

الكتاب العربي السعودي ٧٧

محمد سعيد العامودي



جزء أول

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية



الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

من
حديث الكتب
جزء أول



بسم الله الرحمن الرحيم

الون واحد ٧



المؤلف والكتاب

الاستاذ الأديب الكبير محمد سعيد العامودى من أدبائنا الرواد وهو من مواليد مكة المكرمة ووالده الشيخ عبدالرحمن العامودى من تجارها المعروفين ، قرشى صحيح النسب ، ينتسب إلى ابي بكر الصديق رضى الله عنه ، وبيت العامودى فى الجزيرة العربية بيت علم وفضل وحسب ..

والاستاذ العامودى ممن شاركوا فى تكوين دعامة الأدب السعودى ووضعوا اساسه المتين وثبتوا أركانه ، وعلى يده ونفر من زملائه الرواد قامت نهضة أدبية صادقة مباركة ، وشع من وطننا مهبط الوحى ومنزل الفصاحة والبيان والاعراب أدب حى ، أعاد الينا مجدنا التالد وتاريخنا الخالد .

وهو كاتب وشاعر ملك زمام الصناعتين ، فله بجانب نثره وكلماته ذات المعانى الفصاح والسحر الحلال شعر بديع رائع لايجاريه فيه إلا شاعر مفلق وقصيدته فى (السياسة) مشهورة معروفة تدور على الألسن ويرددها الشادى والمبرز والظالع والضليع وكانت من محفوظاتنا فى فترة من الزمان ، وقصيدته (الزمن والانسان) كانت إحدى القصائد الثلاث التى فازت فى مسابقة أجرتها مجلة الهلال سنة ١٩٣٣م كما له رباعيات منشورة ، وكتابه « من حديث الكتب » الذى نقدمه

اليك أيها القارىء الكريم كتاب ماتع قيم قمين بأن يقرأه الأديب والعالم والمؤرخ ، لأنه كتاب جمع بين دفتيه كل مايغنى هؤلاء عن قراءة مايميلون إليه من الكتب ، ومعرض جامع للاطلاع والاستفادة والتأمل والآراء والملاحظات،كتاب لا يمله النظر ولا تقتحمه العين ·

وحسنا فعلت إدارة النشر في شركة تهامة حين جمعت أجزاءه الثلاثة في هذا السفر القيم .

علي حسن العبادي

رئيس نادي الطائف الأدبي

بطل الأبطال

للأستاذ عبدالرحمن عزام

عمل مشكور حققته رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة فى قيامها باعادة طبع هذا الكتاب للاستاذ المرحوم عبدالرحمن عزام عن « بطل الأبطال » محمد صلوات الله عليه !

والكتاب فى أصله أحاديث قيمة أرسلها المؤلف عن طريق المذياع ، تحدث فيها عن بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوته للدين الحق .. وعن شجاعته ووفائه ، وزهده ، وقناعته وتواضعه وتعبده وعفوه وصفحه وبره ورحمته وفصاحته وبلاغته وحسن سياسته وحكمته فى تصريف الامور ، وعن أثر الدعوة المحمدية فى الفرد والجماعة ، فأبان للناس ـ كما يقول المرحوم الشيخ المراغى فى تقديمه للكتاب ـ أروع ما عرف البشر من سيرة .. وأجمل ما وعى التاريخ من خلق .. وأعلى ما روت الايام من عظمة : عظمة النفس المستمدة من صميم القلب ، ومكنون السرائر ، العظمة التى لايكسبها الانسان بماله أو سلطانه ، أو منصبه ، أو جاهه ولكنها مشتقة من نفسه مفطورة فى خلقه لا يزيدها الرخاء وتنقصها الشدة ولا يظهرها الغنى ويخفيها الفقر . العظمة الثابتة فى نفس العظيم ثبات قوانين الله فى أرضه وسمائه ، والسارية فى أعماله سريان ارادة الله فى سننه « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

يقول الأستاذ الفاضل مؤلف الكتاب : ان ذكرى الابطال والتحدث عنهم ، لمن احب الذكريات ، واطيب الاحاديث ، ذلك لانهم اعلام الهدى ، فى تاريخ البشرية ، وانهم المنارات فى آفاق الظلمات ·

ومن هؤلاء الابطال من امتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم فلم تقم فى وجوههم عقبات العصبية ، ولا عقبات الزمن ··

اولئك هم المبرزون فى تاريخ الانسانية ، واولئك هم الذين كان لاصلاحهم الخلود والاثر الباقى ، وأعظم هؤلاء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، باجماع المفكرين ··

يقول فيه ـ كرلايل ـ : كان مولده مبعثا للنور من الظلمات ·· ويقول السير موير : لم يكن الاصلاح اعسر ولا ابعد منالا منه وقت ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحا واصلاحا تم كالذى تركه عند وفاته ·· ويقول ليونارد : ان كان رجل على هذه الارض قد عرف الله ، وان كان رجل على هذه الارض قد اخلص له ، وفنى فى خدمته بقصد شريف ، ودافع عظيم ، فان هذا الرجل بلا ريب هو نبى العرب ··

ويروى المؤلف عن دائرة المعارف البريطانية قولها : « لقد صادف محمد النجاح الذى لم ينل مثله نبى فى زمن من الازمنة ثم يقول : نفر منذ صباه من عبادة الاوثان وهى آلهة ابائه ، ومصدر عزتهم فى جزيرة العرب كلها ، وكان منذ صباه الصادق الوفى ، المحبوب المبجل فى قومه ، فسماه قومه الأمين ·

ولما وقف لاول مرة على الصفا يدعو عشيرته إلى دينه قال « أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقى ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا ·· قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ·

كان قبل الرسالة أشد الناس نفورا من الظلم ، وهضم حقوق الضعفاء ، فما تحمس لعمل فى الجاهلية تحمسه لحلف الفضول ، وهو أشرف حلف فى العرب ··

وفى هذا الحلف يقول محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة :

« لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا مـا أحب أن لى به حمـر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لاجبت » فنصرة الفقير والضعيف هما أحب الأمور إلى نفسه ٠٠

ويمضى المؤلف فى حديثه إلى أن يقول :

« تلكم نفس محمد ، يتجلى فى كل صورة من صورها حب الحق والثبات عليه ٠٠ لقد سألت مرة ـ ونحن فى قطار فى لندرة ـ احد كبار العلماء المستشرقـين : هل تـظن أن محمدا كـان يقول قـولا لايؤمن به ؟ ٠٠ فقال : لا ان امرا واحدا لاريب فيه ، وهو انه كان صادقا مؤمنا ايمانا كاملا بما يقول وبما يدعو اليه ٠٠

تلك هى الصفة التى لاينكرها على محمد صلى الله عليه وسلم عدو ولا صديق ٠ فالحق فى ذاته هو الغاية التى دأب وراءهـا وخاصم وابتلى ، وهاجر وقاتل لها ٠٠ والناس جميعا طلاب للحق ، او يجب ان يكونوا كذلك ، وقد ضرب لهم محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى ٠٠

●●●

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن شجاعة الرسول الكريم « تلك الشجاعة المنقطعة النظير » يقول : جاء محمد لقومه بدعوة فى قبولها قلب حياتهم رأسا على عقب ٠٠ لم تكن تلك الدعوة تتناول دينهم وحده ، بل شملت حياتهم فى جميع مظاهرها ، فى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى المال ، وفى البيت ، ولم يكن طبيعيا ولا مألوفا ان ينكروا ماوجدوا عليه اباءهم وبلادهم طواعية فكان ـ اذن ـ لابد لهم من رد هذه الدعوة وقهر صاحبها ، ليرجع الى الصف الذى خرج عنه ٠٠ فيعظم حرماتهم التى يعظمون ٠٠

ثم يقول : صدمت الدعوة إلى التوحيد والبعث دين قريش وعقلها فسخرت من الداعى ، ثم هبت إلى الايذاء والعدوان ! ٠٠

لم يكتف محمد بدعواه هذه الغريبة ـ فى رأى القوم ـ بل زاد عليها ان دعا إلى تحريم الخمر والزنا والميسر والربا ، وقريش لا تستغنى عن

هذه الاربعة ففيها متعهم ، وفيها تفاخرهم ، وفيها غناهم وثروتهم ··
الى ان يقول : لم يكتف محمد بالتوحيد والبعث وتحريم بعض ماطاب لنفوس القوم ، بل دعا كذلك إلى غريب مستنكر لديهم ، ذلك هو حق المساواة ·· وهم الذين قضوا اعمارهم فى التفاخر بالاحساب والانساب ، فما بال محمد يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط ·· انها للكبيرة التى لن ترضى قريش ان تقره عليها ·· قريش التى انفت ان تسوى بالناس · فحرفت لذلك دينها ، وابت ان تقف على عرفة ، وان تفيض كما يقف الناس ويفيضون ، وهى تعلم ان ذلك من شعائر ابراهيم وفرائض الحج ·· قريش التى الزمت العرب الا يطوفوا بالبيت فى اثواب جاءوا بها من البدو ، فطافوا عراة ·· قريش التى كانت تختص بانواع الامتياز التى جعلتها لنفسها كما تشاء ·· كيف ترضى لمحمد ان يدعو للمساواة المطلقة ·· وان يقول لعشيرته : يابنى هاشم لايجيئنى الناس باعمالهم وتجيئونى بأنسابكم ··

بل من الغريب ان محمدا ، وهو فى بيت الرياسة من قريش ، وفى طليعة المتازين ، رفض فى الجاهلية ضروب هذا الامتياز ، وسوى نفسه ببقية الامة ، قبل ان يكون رسولا يوحى اليه ··

● ● ●

لم تستطع قريش صبرا على الدعوة الى المساواة ، فبطشت بالعبيد ، قست على المستضعفين الذين وجدوا فى قول محمد صلى الله عليه وسلم انصافا ··

ولم يكتف بان عاب اوثانها ، وانذرها ببعث وحساب شديد ، وقوض جاهها ، وسلطانها ، وحرمها شهواتها والاتجار بالربا ، وسوى بينها وبين العبيد والمستضعفين ، بل قام يطلب لهؤلاء العبيد والفقراء وابناء السبيل حقا فى أموال الأغنياء « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » يؤخذ منهم قسرا ويضرب عليهم ضريبة ، وما كان

ابغض الى نفوس القوم من ضريبة يؤدونها مفروضة ، فلما مات الرسول « صلى الله عليه وسلم » كانت تلك الضريبة أول ما عصوا عليه ··

ذلك مجمل من القول يصور حالة المجتمع ، الذى قام فيه محمد صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الله ، وإلى نظام سياسى واجتماعى بغيض إلى القوم ، وقد صور ذلك القرآن فى ابدع ايجاز بهذه الآية « قالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ··

اذا تصورتم هذا كله ، ادركتم ما ينبغى لمثل هذا الكفاح من الشجاعة والصبر ·· والشجاعة والصبر هما عماد البشرية ، يمسكانها على الأرض كما تمسكها الجبال ان تميد بمن عليها ، وقد ضرب الأبطال والشهداء للناس امثلة فى الشجاعة هى النور فى تاريخ الحياة ·· ويهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وقد امتحنت شجاعة معلم الأبطال صلى الله عليه وسلم طول حياته ·· فما تطرق إليها وهن ·· هذه الشجاعة لازمته منذ الصبا ، فهو فيها المجلى فى الجاهلية والاسلام ·

●●●

وعلى هذا النسق من سمو البيان واشراقة التعبير يواصل المؤلف الجليل حديثه عن ابرز صفات رسولنا محمد صلوات الله عليه فيتناول فيما يتناوله من هذه الصفات الكريمة وفاءه ، وزهده وقناعته وتواضعه وتياسره ، ورحمته وبره ، وفصاحته وبلاغته وحسن سياسته وحكمته فى تصريف الأمور ، وأثره فى التربية العسكرية ·

فى حديثه عن زهده وقناعته ·· يقول : زهده وقناعته صلى الله عليه وسلم قد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعا ، للراعى والرعية ، والأفراد والجماعات ، انظروا إلى العالم الذى نعيش فيه فانه يشكو الجشع الذى اصاب أهله فلا الغنى قانع بآلافه وملايينه ، ولا الفقير راض بالكفاف من العيش ··

ثم يقول : هل ترون الا صراعا بين امم اتخذت حب المال والغلب عليه غايتها ، فهولها الأول والآخر ، والظاهر والباطن ؟ ٠٠ وهل ترون الا طبقات من الأمم تتطاحن ، ليس لها مطلب إلا السبق إلى المتاع ، واختطاف بعضها مافى أيدى البعض ؟ ٠٠

جاء بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم والناس على مثل هذه الحال ٠٠ لايعرفون فضلا إلا للاموال والاحساب ، ولا يدركون من لذة التقوى ومتاع الروح شيئا ، فضرب مثلا من نفسه فى القناعة والزهد واحتقار الدنيا » ٠

ضرب محمد عليه السلام المثل من نفسه فى فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله فى الشعب ، وضربه وهو ملتجىء إلى المدينة ، وهو يقيم دولة الاسلام فيها ، وبعد أن أقامها وبعد ان ملك الاموال والرقاب فى جزيرة العرب كلها ، فكان يهب هبات الملوك ، فيعطى الغنى ، ويرجع إلى داره وفراشه فيها الحصير ، وطعامه خبز الشعير ٠٠

كان بطل أبطال فى زهده وقناعته مثلا كاملا ، صور لنا كيف يتأتى للرجل أن يعيش كريما ، يضع تسعين الف درهم على حصير امامه ٠٠ فينفقها جميعا ، وينام بعد ذلك على حصير يؤثر فى جنبيه فاذا ارادوا أن يتخذوا له وطاء قال : « ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » ٠

وفى حديثه عن تواضعه وتياسره يقول : صفة بينة لبطل الابطال صلى الله عليه وسلم ، كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم ، تلك هى التياسر والتواضع ٠٠ فيهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الانسان ، يؤثرها من صميم نفسه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ٠٠

إلى أن يقول : وكان محمد صلى الله عليه وسلم يكره كذلك الخيلاء والتفاصح والتأثير فى الناس بالقول المزخرف ، ويقول ان من احبكم إلى ، واقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، احاسنكم اخلاقا وان ابغضكم إلى ،

وابعدكم مني يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقـون قالوا يارسول الله : وما المتفيهقون ؟ ·· قال المتكبرون والثرثارون هم الذين يكثرون الكلام تكلفا والمتشدقـون هم الذين يتكلمون بمـلء افواههم تفاصحا وتعـاطفا ·· وكـان يكره الخـطيب يسلب بفصاحتـه الباب الناس ، ويملك حواسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : من تعلم صرف الكلام ليستبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا ، وكان يقول : هلك المتنطعون ·· ويكررها بغضا منه فى التعمق والتفاصح ·· كان كل ذلك نفورا بطبعه الميسر المتواضع ، عن التظاهر والرياء والتكلف ··

يقول السير وليم موير فى وصف تـواضعه وتيـاسره : « كـانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من اظهر صفاته فى معاملته لاقل تابعيه ، فالتـواضع والشفقـة والصبر والايثـار والجود صفات ملازمة لشخصه ·· فلم يعرف عنه انه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده انه لايختصه بأقواله وان كان حقيرا ·

وفى عفوه يقول المؤلف : عفوه وصفحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمن اسرفوا فى ايذائه ، هو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وبين الوحى معناه بقوله « ان تصل من قطعك ، وتعطى من حـرمك ، وتعفـو عمن ظلمك » فالعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس يتجلى فيها سمو المقصد ، وبعد الغاية ، والترفع عن الشهوات ، وتبدو البطولة فى اروع صورها ·· ولن تجد فى تاريخ الابطال بل تاريخ البشر كلهم مثل محمد صلى الله عليه وسلم ظافرا ناجحا ، مؤيدا ، يعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه ··

ويقول فى حديثه عن رحمته وبره عليه الصلاة والسلام : « جانب عظيم من جوانب شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وهو جانب رحمته

وبره الذى لايدانيه فيه أحد » ٠

« ٠٠ كانت رحمته تسـع الناس جميعـا ، وكان بـره يصل إلى المؤمنين والمشركين ، وكـان الفقراء والضعفـاء أقرب النـاس إلى قلبه الكبير ، وعطفه الشامل ٠٠ » ٠٠

« ٠٠ كانت حياته موصولة بالفقـراء ، وكان مـا فى بيته ويـده لهم » ٠٠

« لقد عمل محمد بما آتاه الله ، وما اودع فطرته من الرحمة ، على رفع شأن الفقير ، واكرامه والأخذ بيد الضعيف ، وأرسل بره فى هذه الطبقة ، حتى قلب نظام المجتمع الذى ظهر فيه فى سنين قليلة وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد »

● ● ●

« وكان صلى الله عليه وسلم ٠٠ يجاهد لتحريـر العبيد ولرفـع قيمتهم ، فلم يدخر مالا ولا سلطانا ولا دعوة فى سبيلهم وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم والبر بهم ، واظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة الذى خير بين سيده محمد ووالده ٠٠ فاختار محمدا فى الوقت الذى كان لاحول له ولا قوة ، بل كان موضع اذى قريش وسخريتها ، وهو الذى جعل معتوقه هذا القائد الأعلى للمهـاجرين والأنصـار حين وجههم لغزو الروم ٠ فاستشـهد فى موقعة مؤتة ٠٠ ولما استأنف النبى غزو الروم بعد الفتح أمر شابا ابن رقيق ، وهو اسامة بن زيد هذا وهو حدث فى العشرين ومشى اكـابر الصحـابة واشـراف قريش والنبى فى موكبه » ٠٠

ويمضى المؤلف فى ايراد العديد من الشواهد والأمثلة مما اتصف به الرسول الكريم من رحمة وبر ٠٠ وسعت العدو والصديق ، والقوى والضعيف والحر والعبد والحيوان ٠٠ وفاض بها قلبه الكبير ٠٠ فكانت فى فمه بشرا وفى عينه دمعا ، وفى يده جودا ، ثم يقول : « تلك الرحمة التى وسعت الجميع هى ابرز صفات محمد ، وهى التى يتسابق الابطال

إليها فيردون عن هذا المدى ٠٠ ويبقى رسول الله المثل الكامل ، والقدوة العظمى ، وحقا كان كما قال عن نفسه « انما انا رحمة مهداة » وكما قال القرآن الكريم : « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين » ٠

● ● ●

ومن ابرز صفات محمد صلى الله عليه وسلم : حسن سياسته وحكمته فى تصريف الأمور ٠٠ يقول المؤلف فى هذا المقام : « هذه الناحية من حياته يبدو فيها محمد صلى الله عليه وسلم مثلا عاليا لرجال الدولة ، وسترون بها ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل والابطال ٠٠ ولقد كانت أكثر وضوحا فى المدينة حيث استلزمت الأحوال ان يكون نبى الأمة وزعيمها وقائدها ، وحيث اخذ التشريع الاسلامى يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل اكثر مما كان فى مكة حيث كانت الدعوة لاتزال فى بدايتها متجهة بكل قوتها إلى تعريف الناس بالله وانذارهم حسابه وعقابه ، ذلك الفرق بين مظهرى الدعوة فى بيئتين مختلفتين ، جعل بعض كتاب الملل الاخرى يحاولون ان يصوروا محمدا فى شخصيتين : مكى ومدنى ٠٠ يقولون هذا نبى ٠٠ وهذا رجل دولة وصاحب سلطان ٠٠

لو ان الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدى النظر لرأوا محمدا الواعظ فى مكة : هو محمد الناسك فى المدينة ، الذى تتورم قدماه من كثرة الوقوف بين يدى الله ، وهو الذى يموت - وهو رأس الدولة - ودرعه مرهونة عند يهودى ٠

« لو ان هؤلاء الذين جعلوه نبيا فى مكة ٠٠ ورجل دولة فى المدينة لاحظوا كيف وضعت نواة الدولة فى ايام المحنة فى مكة لما حسبوها من غرس يثرب ٠٠ بل علموا انها نتيجة محتومة للصراع العنيف ٠٠ الذى دام ثلاث عشرة سنة ، ونتاج للدعوة من وقت ان قال الله عز وجل : « فاصدع بما تؤمر واعرض عن الجاهلين » ٠

وما قامت الدعوة فى يثرب إلا على أيدى تلاميذ النبى فى مكة ممن

هاجروا فى سبيل الله إلى الحبشة أولا وثانيا ، ومن هاجروا إلى يثرب بعد ذلك ، وعلى سواعد الانصار من أصحاب البيعة الأولى والثانية عند العقبة فى مكة ٠

اولئك هم نواة الأمة النموذجية التى غرسها الرسول فى المدينة وشاد عليها الدولة المحمدية ٠٠ ثم ظهرت الامبراطورية الاسلامية » على صورتها فيما بعد ٠٠

كان محمد فى مكة والمدينة من ساعة ان استيقظ على صوت الرفيق الأعلى فى « حراء » ٠٠ إلى أن استجابت روحه لذلك الرفيق فى بيت عائشة : واضح الهدف متعدد الوسيلة ٠٠ راجح العقل ٠٠ حسن السياسة ٠٠

قبل فى مكة ان ينتفع بعرفها فطلب فى عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى ، فدخل مكة فى حمايته وهو مشرك ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الاوثان ٠٠ ليقهر الاوثان فى مكة ٠٠ وقبل فى المدينة ان ينظم اهلها ويعاهدهم ، ويستعين بهم ؛ ويقودهم إلى النصر ، ليحمى نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان ٠٠

موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة لغاية واحدة فى احوال شتى ، اخطأ هؤلاء الكتاب فى تصويرها ٠

وان كان يبدو فى المدينة كثير التشريع والتنظيم والتصريف لشؤون الحياة فليس ذلك برهانا على تغيره ، بل على تفوقه ، وانه فياض الموارد ، خصب العقل ٠٠

فذات الرسول التى وقفت فى وجه المشركين ثلاثة عشر عاما بمكة لاتعجز ولاتهن ٠٠ ولاتيأس ، هى ذاته التى فاضت فى المدينة على شؤون الدنيا ، فدلت على مافيها من الحيوية والقوى التى جعلتها اهلا للتغلب على كل معضلة فى وقتها ومناسباتها ٠٠

ويتابع المؤلف حديثه الرائع فى هذا الجانب من جوانب شخصية رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم ٠٠ إلى أن يقول :

ثلاث عشرة سنة قضاها فى فم الاسد ٠٠ دون أن يستطيع الاسد ان يطبق عليه انيابه ، وعشر سنين فى المدينة يحاول فيها الاسد ان يمسك بالفريسة ، وفى هذه وتلك يبدى رسول الله من حسن الرأى وبارع السياسة والصبر ، وسعة الصدر والتدبير ما يوقع الاسد فى شبكة الفريسة ، فاذا ما انتهى إلى النصر الحاسم المعجز وبهت الذين كفروا ٠٠ قالوا : لو انه لم يقم دولة ولم يقد جيشا لكان النبى الخالص من الشوائب ٠٠

لو ان الذين يأخذون على محمد صلى الله عليه وسلم انه لم يقتصر على حياة الوعظ ، وظنوا ان الأكمل له ان يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل ، فكروا فى مصير الدعوة نفسها ، لشاركونا فى الاعجاب به مرشدا ، وواعظا ، ومنظما وفاتحا ٠٠

ثم يقول : لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ابعد الناس نظرا وارجحهم عقلا ، فمنذ ان وصل إلى المدينة أخذ فى اعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لايحترمون غير القوة ولم يفلح فيهم النصح ثلاثة عشر عاما ٠٠ إلى ان يقول : والحق ان محمدا صلى الله عليه وسلم فى حياته بالمدينة وبقيادته للامة ، وتوليه الحكم ٠٠ ادى الرسالة التى اختصه الله بها احسن أداء ٠٠ فأرانا بالفعل لابالقول ماذا يجب أن يكون عليه الحاكم فى كل المناسبات والاحوال ٠٠

« كان فى المدينة على مفترق طريقين : طريق يريده له بعض كتاب الملل الاخرى ، وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ، ويعجزون كل العجز اذا اعترضتهم عقبات الحياة ، وسخافات البشر وسنن الوجود ، وطريق آخر هو الذى سلكه لان الله ارشده واعده ليكون المثل الكامل فى القول والعمل أما الأول فهو الطريق السلبى ٠ وأما الثانى فهو الطريق العامل ٠٠ ففى الاول كان عليه أن يكتفى بالاقامة فى المدينة كما كان فى

مكة واعظا مرشدا ، معولا على حماية من عاهده من أهل المدينة منتظرا ما تفعل قريش ، ومن حول يثرب من اعراب ، فان احسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل ·· وان جاءوا فقضوا عليه كان له الشهادة ولهم فخر النصر ·· واما الطريق العامل فهو ان يدرك هذا الخطر ويعمل على منعه ويقوم على دعوته ·· مناضلا مجادلا مجاهدا حتى يفوز بغايته ، ويضمن للذين امنوا ونصروا والذين هاجروا معه : السلامة والعزة ··

لم يكن محمد من الوعاظ الذين يمرون على الحياة يلقون إلى الدنيا كلمة الخير ، ثم لاينظرون اذهبت مع الريح ام بقيت ·· فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ·· هو الجد فى صورة رجل ، والايمان العامل ينسف الباطل نسفا !! ··

● ● ●

ثم يتحدث عن « الناحية العسكرية فى بدر » وعن « دفاعه عن حرية العقيدة » وعن « مثل من سياسته » وما كان من آثار دعوته المحمدية ورسالته الخالدة فى الحياة الانسانية عامة ·· وهنا يقول :

اصبح الناس بالدعوة المحمدية سواء ·· لاشريف ولا وضيع ، خيرهم احسنهم عملا ·· وسيدهم انفعهم ·· واكرمهم اتقاهم ·· « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ·· انظروا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع ، يعلن هذه المساواة للعرب على انها للبشر كافة ·· « يا أيها الناس كلكم لادم ، وادم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ··

تلك هى الكلمة الخالدة التى كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض فجعلت الفتح العربى بعيدا من رفعة قوم او جنس ·· فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح ، وبقيت آثاره خالدة فى المشرق والمغرب ! ··

وقد عبر العلامة « هيل » فى كتابه « حضارة العرب » عن اثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية :

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والانبياء قد اثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم واقوامهم ، ولكننا لا نعرف فى تاريخ البشر ان دينا انتشر بهذه السرعة ‥ وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد ‥

لقد اخرج امة إلى الوجود ومكن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ووضع اسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، واحل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لاتعرف غير الفوضى » ٠





الفاروق القائد

اللواء الركن محمود شيت خطاب

- ١ -

ناحية بارزة من نواحى شخصية الفاروق ·· خصها مؤلف هذا الكتاب القيم ، اللواء الركن « محمود شيت خطاب » ، بالدراسة والتحليل ··

تلك هى ناحية الحرب فى سيرته ·· أو بعبارة أدق : براعته فى فن الحرب ، وامتيازه فى قيادته العسكرية ··

وفى الحق ، أن المؤرخ الباحث ، اللواء خطاب ، قد أوفى على الغاية فى بحثه هذا الماتع الطريف ، عن عبقرية الفاروق فى الحرب ·· وتفوق قيادته العسكرية ·· !

ولم يكن هذا غريبا ـ فى الواقع ـ من رجل درس فن الحرب ، وتمرس بأعمال القيادة ، إلى جانب دراساته الواسعة فى تاريخ الاسلام والعرب ·· واهتمامه ـ على الخصوص ـ بوقائع الفتح الاسلامى ، وتراجم أبطالنا الفاتحين ··

ومن سنوات أخرج اللواء خطاب كتابه القيم عن « الرسول القائد » صلوات الله وسلامه عليه ··

ثم أصدر أول جزء من كتابه الضخم : قادة الفتح الاسلامى فى الشام ومصر ·· كما أنجز حتى الآن معظم أجزاء كتابه هذا ، عن القادة الفاتحين العرب فى البلاد الاسلامية الأخرى ··

ولقد ظفرت هذه الكتب فى أنحاء العالم العربى والاسلامى بما هى جديرة به من إقبال القارئين ··

ومن كتبه التى ستصدر تباعا ، كتبه عن « الحرب والسلام فى الاسلام » و « الصديق القائد » و « الامام القائد » على بن أبى طالب و « القادة الراشدين » وغيرها ·

وليس من شك فى أن هذه جهود تستحق الاشادة ، وتستحق الإعجاب ··

فما أحوجنا فى هذه الآونة حقا الى المزيد من هذه الدراسات ، وهذه البحوث ··

● ● ●

وفى هذا الكتاب الشيق ·· عن الفاروق القائد ·· نجد المؤلف الفاضل يحرص على تناول هذا الموضوع فى أوسع ما يمكن من شمول ··

وفى ايمان ، وفى حرارة ، وفى احاطة ، وفى عمق ·· يحدثنا فى الصفحات الأولى من الكتاب عن طريقة الفتح الاسلامى العربى ، حديثا موضوعيا أصيلا رائعا ، يملك المشاعر ويهز النفوس ··

ويمضى ـ بعد ذلك ـ فى حديثه عن الفاروق : قائدا عبقريا ملهما · موفقا فى رسم الخطط ، بصيرا بأسرار الحروب ··

يتحدث عن الفتح الاسلامى العربى ·· فيقول فيما يقول :

الفتح الاسلامى نسيج وحده فى تاريخ البشر ، لايشبهه فتح ، ولايدانيه ، ولايقاس به ، ولم ينقل المسلمون الاولون بهذا الفتح الاسلام الى الأمم ·· بل نقلوا به الأمم إلى الاسلام ·· !

فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله ، ويبشرون بدينه ، ويبذلون فى سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ، ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم ، لايريدون علوا فى الارض ولا فسادا ··

كانت غايتهم اصلاح البشر فى أخلاقهم وأرواحهم وعقولهم ، وسعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم ، فاذا قبلوا الهداية كفوا عنهم ، وان لم يقبلوا فرضوا عليهم الجزية ، وان أبوا قاتلوهم ··

إذا حاربوا حافظوا على شرفهم ·· لايغدرون ، ولا يمثلون ولايجهزون على جريح ، ولا يقاتلون امرأة ، ولا يعرضون لعاجز ، ولا يمسون معبدا ، ولا يؤذون متعبدا ، ولا يخربون دارا ، ولا يفسدون ماء ··

لا يلهيهم عن غايتهم مال ، ولا يشغلهم جاه ، ولا ينسيهم هذه الغاية خطر ·· يعملون لله وحده ، لا لجاه ، ولا لذكر ، ولا للمال ··

لا يترفعون بشىء على المغلوبين ، فكل من دخل فى دينهم له ما لهم وعليه ما عليهم ··

كانوا لا يعلنون عن الاسلام بألسنتهم فحسب ·· ولكنهم كانوا فى أخلاقهم ومعاملاتهم وسيرتهم أمثلة حية ·· وترجمة عملية لتعاليم الاسلام ··

لذلك لم ينجل الاسلام عن غالبين ومغلوبين ، كما هو الحال فى كل فتح ·· وانما انجلى عن أمة واحدة لها رب واحد ، ونبى واحد وقرآن واحد ، وسنة واحدة ··

ولذلك استقر الفتح الاسلامى وخلد ، وبقيت البلاد المفتوحة للاسلام ، فكان هذا الفتح فتحا مستداما ، لانه كان فتح خير وبركة وهداية ·

لقد سجل التاريخ قبل الفتح الاسلامى حروبا كثيرة للاشوريين والبابليين والفراعنة ، واليونان والرومان والفرس وأهل قرطاجنة وغيرهم ··

وسجل التاريخ بعد الفتح الاسلامى حروبا كثيرة ، لجنكيز خان وهولاكو ، وتيمور لنك ، وللصليبيين ، وحروب الاستعمار الحديث الشرقى والغربى ، وحروب هتلر وموسولينى والميكادو وغيرهم ··

سجل التاريخ قبل الفتح الاسلامى وبعده ، حروبا عاصفة عاتية ، تهب على الكون مخربة مدمرة ·· ثم تضعف العاصفة وتضمحل ، فلا تدع وراءها غير الخراب والدمار ·· ذلك لان الحرب لم تدر رحاها الا ابتغاء أرض يضمها الغازى إلى أرضه ، أو شعب يحكمه مع شعبه ، أو غنائم ينالها ؛ أو ثأر يطلبه ، أو خيرات يستولى عليها ، أو كنز يملكه ··

لذلك بقى الفتح الاسلامى خالدا مستداما ، وعفت الايام على حروب الآخرين ·

ان الحروب الاسلامية « فتح » لانها حروب لحماية نشر الدعوة ولإقرار أركان السلام ، فهى حروب خير وبركة وتحرر وانطلاق ··

أما الحروب الاخرى ، فهي « استعمار » ، لانها حروب أطماع شخصية ، تثيرها العصبية أو العصبية الدينية ، أو المطامع والمنافع أو حب الامجاد والمغانم ، والاسلاب ، فهى حروب خراب ودمار ، واستعباد وتحكم ·· وشتان بين « الفتح » و « الاستعمار » ··

●●●

يمضى المؤلف ·· فيتحدث عن عوامل انتصار المسلمين الفاتحين ·· وينتهى إلى تقرير أن هذا الانتصار كان انتصار عقيدة لا مراء ·· وان الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى خبرة وقدرة ، يؤمنون بها ، ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم ·

انها عقيدة منشئة ، كما ينقل المؤلف عن الاستاذ العقاد ··

وقد دفعت هذه العقيدة إلى نفوس المسلمين جميعا ـ كما يقرر المؤلف ـ حمية سمت بهم إلى الايمان بأنه لا غالب لهم من دون الله ، وحببت إليهم الاستشهاد فى سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصرا دونه كل نصر ، كما بعثت فيهم الاعتزاز بالنفس والشعور بأن عليهم رسالة واجبة الأداء للعالم ··

ويواصل المؤلف حديثه عن عوامل انتصار المسلمين الفاتحين ، إلى أن يقول :

« لقد انتصر المسلمون بعقيدتهم المنشئة البناءة ، التى حملها إلى الناس حماة قادرون ، قادة وجنودا » ٠

● ● ●

يتحدث عن جذور الفتح الاسلامى ، وعن الرسول القائد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أبى الجيش الاسلامى الاول ، ومؤسسه وقائده ورائده ، ومنظم صفوفه ، ومدرب رجاله ، وباعث كيانه ، وراسم أهدافه ومخططها ٠٠ ثم يشير إلى تاريخ الجيش الاسلامى الاول ، جيش المهاجرين والانصار ، وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرى أنه يتلخص بأربعة أدوار : دور التحشد من بعثته صلى الله عليه وسلم سنة ٦١٠ م ٠ إلى هجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢ م ٠ واستقراره هناك ٠٠ ثم دور الدفاع عن العقيدة ٠٠ من بدء ارسال الرسول سراياه وقواته إلى القتال إلى انسحاب الاحزاب عن المدينة بعد غزوة الخندق ٠٠ وبهذا الدور ازداد عدد المسلمين ، فاستطاعوا الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم الاقوياء ٠٠ ثم دور الهجوم ، من بعد غزوة الخندق إلى غزوة (حنين) ، وبهذا الدور انتشر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية كلها ، وأصبح المسلمون قوة ذات اعتبار وأثر فى البلاد العربية ، فاستطاعوا سحق كل قوة تعرضت للاسلام ٠٠

ثم الدور الرابع : وهو دور التكامل ، من بعد غزوة حنين إلى أن التحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ٠

وبهذا الدور تكاملت قوات المسلمين فشملت شبه الجزيرة العربية كلها ، وأخذت تحاول أن تجد لها متنفسا خارج شبه الجزيرة العربية ، فكانت غزوة (تبوك) ايذانا بمولد الدولة الاسلامية ٠٠

ويقول المؤلف هنا ـ وما أبلغ ما يقول ! ـ : لقد كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم بمكة من بعثته حتى هجرته « توحيدا من أجل

الجهاد » ، وكانت حياته المباركة بالمدينة المنورة من هجرته اليها حتى التحاقه بالرفيق الأعلى « جهادا من أجل التوحيد » !

ثم عمل أبوبكر ، رضى الله عنه ، لتحقيق أهداف النبى صلى الله عليه وسلم ، وسار قدما نحو انجازها ··

ولم يزل أبوبكر الصديق فى كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، مؤسسا لهذا البناء الشامخ ، الذى كان هو أول من قام عليه بعد بانيه عليه الصلاة والسلام ·

وفى سنة ثلاث عشرة هجرية ، بينما كانت جيوش المسلمين تدك معاقل الروم فى أرض الشام ، وتنتصر فى معركة اليرموك : أول معركة حاسمة من معارك الفتح الاسلامى ··

فى تلك السنة مات القائد الاعلى الثانى لجيوش المسلمين ·· بعد أن بدأ الفتح بداية موفقة ، منفذا خطة القائد الأعلى الاول محمد بن عبدالله صلوات الله وتسليمه عليه ··

فماذا فعل القائد الأعلى الثالث عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لتنفيذ خطة الرسول القائد ، فى حمل رسالته السامية إلى الشرق والغرب ·· ؟

● ● ●

يقول المؤلف : « كان عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عهد الفتح الاسلامى الذهبى ·· فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين ، فامتدت دولتهم ، حتى جاوزت أفغانستان والصين شرقا ، والاناضول وبحر قزوين شمالا ، وتونس وما وراءها من افريقيا الشمالية غربا ، وبلاد النوبة جنوبا ·· لقد فتح عمر العراق وايران ، وأكثر مناطق أرمينية ، وبلاد الشام بما فيها سوريا ولبنان وشرقى الاردن وفلسطين ومصر وليبيا والنوبة ·· وخاضت جيوش المسلمين فى أيامه ثلاث معارك حاسمة من معارك الفتح الاسلامى : معركة القادسية التى فتحت للعرب والمسلمين أبواب العراق والاهواز ومعركة بابليون

التى فتحت لهم أبواب مصر وليبيا والنوبة ، ومعركة نهاوند التى فتحت لهم أبواب ايران كلها ·· كل هذا الفتح العظيم أنجز خلال عشر سنوات من سنة ١٣ هجرية إلى سنة ٢٣ هجرية !

« ·· فى هذه المدة القصيرة فتح عمر كل هذه الفتوح ، فلا عجب أن يذهل هذا الفتح عالم يومئذ ، ويدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه ، وحاولوا استقصاء أسبابه ، فذكروا ان من هذه الاسباب : العقيدة الاسلامية التى رفعت نفسية ومعنويات المسلمين ، وانحلال الفرس والروم ، ونظام الحكم فى شبه الجزيرة الذى تطور خلال السنوات العشرين التى تلت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تطورا مكن الامة العربية من مواجهة تلك الاحداث التاريخية الجليلة فى طمأنينة زادتها اعتزازا بنفسها وشعورا بقوتها وايمانا برسالتها العالمية ·

● ● ●

كانت سياسة عمر أن يقوم بالفتح فى حدود العراق والشام لايتعداهما ·· على أن الحوادث ـ يقول المؤلف ـ كثيرا ما تكون أقوى من الرجال وكثيرا ما حملتهم على تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم ، وقد حملت الحوادث عمر على تعديل سياسته بازاء الفرس وبازاء الروم ، على كره منه بادىء الأمر ، ثم ملأته حماسة للسياسة الجديدة بعد أن حالف النجاح هذه السياسة إلى مدى لم يتوقعه ولم يتوقعه أحد غيره ··

ولكن هذا النجاح كان بفضل قيادة عمر الفذة ، تلك القيادة التى امتازت بميزتين ظاهرتين : الاولى مقدرته المدهشة على اختيار القادة العامين ، والقادة المرؤوسين ·· الثانية : قابليته الموهوبة والمكتسبة على القيادة العليا ، والقيادة التعبوية أيضا ··

ويتساءل المؤلف : وكيف كان ذلك ·· ؟

ما هى المزايا التى كان يريد عمر أن تتوفر فى القائد الذى يؤمره على جيوش المسلمين ·· ؟

أولى هذه المزايا : أن يكون صحابيا ٠٠ لقد كان عمر لايولى الا الصحابة ، ولا يرضى أبدا أن يعمل صحابى بإمرة غير صحابى ٠٠

فقد كان للصحابة بصورة عامة تجارب طويلة مفيدة فى القتال تحت لواء الرسول القائد ، اقتبسوا خلالها أعلى وأسمى ضروب التضحية والفداء ، وأنبل وأرفع آداب الحرب والسلام ٠٠

● ● ●

كان عمر يفضل أن يكون القائد مكيثا غير متهور ٠٠ يعرف الفرص وينتهزها ، ويعرف كيف ومتى يقاتل ، ومتى يكف عن القتال ؟٠ قال عمر لسليط : « لولا عجلة فيك لوليتك ، ولكن الحرب زبون لايصلح لها الا الرجل المكيث » ٠٠

وكان عمر يريد أن يكون القائد قويا مسيطرا ، ذا شخصية نافذة ٠٠ فاذا وجد رجلا أقوى من رجل ، فضل الاقوى على القوى ٠٠ فقد استعمل معاوية بن أبى سفيان على الشام ، وعزل شرحبيل بن حسنة ، وقام بعذره فى الناس فقال : « اني لم أعزله عن سخطة ، ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل » ٠٠ وكان يقول : « انى لاتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه » ٠٠

وكان يريد القائد شجاعا راميا ٠٠ كما كان اذا اجتمع إليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميرا من أهل العلم والفقه ٠٠ ولا يرضى أن يؤمر أهل الوبر على أهل المدر ٠٠

تلك هى المزايا التى كان يريد عمر توفرها فى القائد ، ماض ناصع مجيد فى الحرب وفى خدمة الاسلام ، له تجربة عملية فى القتال ، مكيث غير متهور ، يعرف الفرص ، ويدرك الوقت والمكان المناسبين لنشوب القتال ، والكف عنه ، قوى الشخصية ، مسيطر على رجاله ، شجاع

رام ، عالم فقيه ٠٠ وتلك هى نفس المزايا التى يلاحظها علماء فن الحرب قديما وحديثا ٠٠

لذلك نجح قادة عمر فى مهمة قيادة الجيوش الاسلامية نجاحا كان ولايزال وسيبقى أعجوبة من أعاجيب تاريخ الحرب ٠٠

- وكانت (الشورى) عنده مبدأ لايحيد عنه ٠٠ للاغراض السلمية والحربية على حد سواء ٠٠

وبلغ به ايمانه القاطع بالشورى أنه كان يستشير حتى العدو - الذى لايأمنه - كما فعل فى سماع رأى الهرمزان فى أمر الحرب الفارسية ٠٠ بل انه كان يدعو حتى الاحداث يستشيرهم لحدة عقولهم ٠٠ وعمر هو القائل فى المشورة : « الرأى الفرد كالخيط السحيل - أى غير المبروم - والرأيان كالخيطين المبرومين ، والثلاثة مرارا ٠٠ لايكاد ينتقض »

- كان يطالب قادته دائما باطلاعه على تفاصيل المعلومات عن العدو ، وعن الارض التى يقاتلون عليها ٠٠

- وكان يحيط علما بتفاصيل ودقائق المعلومات عن جيوشه ، وعن جيوش عدوه ، وعن طبيعة الارض ٠٠ فكان لذلك يصدر قراراته العسكرية على هدى وبصيرة ٠٠

●●●

- وكان عمر يحرص غاية الحرص على مصائر جيوشه ، فقد كان يخشى الله أن يسأله عن أى إهمال يؤدى إلى ضياع الارواح ٠٠ كما أن تكوينه الطبيعى ، وخلقه ونفسيته ، كانا نموذجا رفيعا للحرص على مصائر الناس ٠٠

- لقد بلغ من حرصه على أرواح المسلمين أنه لم يوافق على الانسياح فى بلاد العجم الا فى الوقت المناسب ٠٠ وبعد تأكده من

ضرورة الانسياح الملحة ٠٠ كما لم يوافق على ركوب البحر ، وعاقب العلاء ابن الحضرمي على ركوبه خلافا لأوامره الصريحة ٠٠

ـ وكان حين يتوقع اصطدام جيوشه بالعدو ، يعيش فى دوامة من القلق والاضطراب ، من شدة حرصه على مصائر المسلمين ٠

ـ وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ، ويرى أن « من لم ينفعه ظنه ، لم تنفعه عينه » ٠٠ وتروى له روايات فى أمر هذه الفراسة ، قد يصدق منها القليل ، وتتسرب المبالغة إلى الكثير ٠

ـ وكانت له فطنة الرجل العليم بنقائص الاخلاق ، وخبايا النفوس ٠

ـ عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه ٠٠ قال المغيرة ابن شعبة لعمرو بن العاص : والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد الا رحمته كان عمر والله أعقل من أن يُخدع ، وأفضل من أن يَخدع » ٠٠

لقد كان عمر كما وصف نفسه : « ليس بالخب ولكن الخب لايخدعه » والخب الخادع الغشاش ٠

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر ـ والقول هنا للعقاد ينقله المؤلف عن عبقرية عمر ـ فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه وما دار بينه وبين القوم من المساجلات والمحاورات ٠٠ انه عمل مالم يعمله الا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية ٠

ولكن أعظم ما يدل على بعد نظره ، وحدة ذكائه هو : فى تركه السواد ـ الارض الزراعية فى العراق ـ غير مقسوم ، ووضعه الخراج عليه ، وتركه أرض مصر غير مقسومة أيضا ، لتكون تلك الأرض للمسلمين كافة ، لا لافراد منهم ٠٠ هذا أولا ٠٠ وتدوين الدواوين ثانيا ٠٠ وفكرته الملهمة فى تقسيم المال ثانيا فقد قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء والمهاجرين » ٠

ثم كثرة انجازات مصيرية خالدة ، كل انجاز منها دليل قاطع على ذكاء خارق ، وبعد نظر فذ ٠٠ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم عن عمر « ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر » وقال : « ان الله جعل الحق على لسان عمر » ٠٠

● ● ●

ويتحدث المؤلف عن شجاعة عمر ، ويذكر نماذج منها ٠٠ ويقول هل تحتاج شجاعة الفاروق الى دليل ٠٠ ؟

- كان عمر يتحمل **مسؤوليته** كاملة ، ويشعر شعورا عميقا بثقل أعبائها ٠

- كان يتحمل المسؤولية قبل توليته الحكم ، وبعد أن أصبح اميرا للمؤمنين ٠

- حين أسلم قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « ألسنا على الحق ؟ فقال « بلى » !

فقال : ففيم الاختفاء ؟ فخرج المسلمون إلى البيت العتيق ، يعلنون دعوتهم ، فاصابت قريشا كآبة شديدة لم يصبهم مثلها ٠٠

- لقد كان يعرف تماما عظم مسئووليته وضخامتها حاكما للناس عليه حقوق وواجبات لاتحصى ٠٠

- خطب يوما فقال : « والذى بعث محمدا بالحق لو ان جملا هلك ضياعا بشط الفرات ، خشيت ان يسأل الله عنه آل الخطاب »

- لقد كان عمر رجل دولة مثاليا ٠٠ يعرف تفاصيل مسؤوليته ودقائقها ، ويتحمل هذه المسؤولية كاملة ، ولا يتهرب منها ، ويحاسب نفسه وعماله محاسبة عسيرة ، قبل أن يحاسبه ويحاسبهم الناس ، ويسهر على مصالح المسلمين ناسيا مصلحته الشخصية ، ومصالح أهله وذويه ٠٠

وكان أحد خريجى مدرسة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فى ممارسة فنون الحرب ، ومعاناة أهوالها ٠٠

كان عمر قبل اسلامه كأى عـربى ، ليس غريبـا على سـاحات الوغى ، وأخبار الحروب ، ولكن هذه المعلومات الابتدائية عن المعارك صقلها وهذبها بالممارسة الفعلية ، وبالتوجيه العلمى والنـظرى لسيد القادة ، وقائد السادة ، عليه الصلاة والسلام ٠

ولقد كان لعمر طبيعة موهوبة للجندى الممتاز ٠٠ فاجتمع لديه ، بعد تجاربه الطويلة للحرب بعـد اسلامـه ، الطبع المـوهوب ، والعلم المكتسب ،، وبذلك أصبح قائدا مثاليا له مزايا القائد المثـالى ، علما ، وعملا ٠

\- ٢ -

فى هذا **الفصل** ، عرض اجمالى لبقية الفصول الرائعة فى هذا الكتاب القيم الفريد ٠

عرض اجمالى بسيط لا اراه يغنى بأى حال ٠٠ عن تأمل الكتاب نفسه ٠٠ فى صفحاته المئتين لمن اراد المزيد !

ان القارىء لهذا الكتاب لايملك نفسه من اعجاب شديد لايعرف الحدود ٠٠ بشخصية عمر انسانا عظيما ٠٠ واميرا للمؤمنين وقائدا شجاعا حكيما واسع الافق ٠٠ عميق الفكر بعيد النظر فى كل مايمت إلى « فن الحرب والقيادة » بصلة من قريب أو بعيد !

ولنستمع إلى المؤلف الفاضل وهو يتحدث إلينا عن دور عمر فى عهد الصديق يقول اللواء خطاب :

« كان أبوبكر يستشير عمر فى تعيين القادة الذين يوليهم قيادة جيوش المسلمين ٠٠

وكان يستشيره فى تسيير الجيوش إلى الجهاد ٠٠ وكان يستشيره عند إعداد الخطط السوقية الاستراتيجية لجيوشه فكان عمر يعاونه فى ذلك اعظم المعاونة ٠

ولما حضرت الوفاة أبابكر دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : « اخبرني عن عمر » فقال : « انه افضل من رأيت ولكن فيه غلظة » فقال أبوبكر : « ذلك لانه يراني رقيقا ، ولو افضى الامر إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد خبرته ٠٠ فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه ٠٠ واذا لنت له أراني الشدة عليه » ٠

●●●

واصبح عمر بعد وفاة أبي بكر رضى الله عنه القائد الأعلى لقوات المسلمين ، فكان أول ما عمل ان ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس ، وكان أول منتدب أبوعبيد بن مسعود ٠٠ فأمره على الجيش وأمر المثنى بالتقدم إلى أن يقدم عليه أصحابه ٠٠ وبذلك ٠٠ طبق « عمر » مبدأ « التحشد » تطبيقا رائعا

وقال عمر لابي عبيد : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية ٠٠ تقدم على قوم تجرأوا على الشر **فعملوه** ، واحرز لسانك ٠٠ ولا تفشين سرك ٠٠ فان صاحب السر مايضبطه متحصن ، ولايؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعه كان بمضيعة » ٠

وهذا يدل ـ يقول المؤلف ـ على ان عمر كان يعرف تفاصيل دقيقة عن الحالة الاجتماعية لعدوه ٠٠ لذلك أوصى قائده بالحذر واليقظة ، وارشده إلى مفتاح كل ذلك ٠٠ وهو « كتمان السر » حتى لايعرف عدوه نواياه قبل الأوان !

لقد طبق عمر فى ذلك مبدأين ٠٠ من مبادىء الحرب المهمة مبدأ « التحشد » وذلك بحشد اكبر عدد من القوات فى ربوع العراق ٠ ومبدأ « توخى الهدف » وذلك بالاصرار على فتح العراق ، مهما يكلفه الأمر ٠٠ ومهما تكن الظروف والاحوال ٠٠

واختار عمر ، سعد بن ابى وقاص لحرب العراق بعد مشاورات طويلة اجراها مع خاصة المسلمين وعامتهم ٠٠ وكتب عمر إلى سعد ومن معه من الجنود ٠

« اما بعد فانى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ٠٠ فان تقوى الله أفضل العلاة على العدو ٠٠ وأقوى العدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ٠٠ فان ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم ٠٠ وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، لو لا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ٠٠ لان عددنا ليس كعددهم ٠٠ ولا عدتنا كعدتهم ٠٠ فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ٠

والا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا » ٠٠ إلى آخر ماورد فى كتاب عمر لقائده سعد من أوامر ووصايا ٠

ولما فرغ سعد بن أبى وقاص من أمر القادسية اقام بها بعد الفتح شهرين ، وكاتب عمر فيما يفعل ٠ فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى « المدائن » وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفا ، وان يشركهم فى كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم ٠٠

وفى هذا الامر المختصر ، يقول المؤلف : « طبق عمر مبدأ اختيار المقصد » و « ادامته » ومبدأ « التعرض » ـ ومعناه الهجوم على العدو لسحقه ـ ومبدأ « تحشيد القوة » ومبدأ « الاقتصاد بالمجهود » ومبدأ « الأمن » ومبدأ « ادامة المغنويات » ومبدأ « الأمور الادارية » ٠ ولا اعلم رسالة قليلة الكلمات كثيرة الفائدة ، مثل هذه الرسالة الموجزة » ٠

● ● ●

ويمضى المؤلف فى حديثه إلى أن يقول : « لقد كان عمر جنديا ممتازا ٠٠ وقائدا مجربا ٠٠ يعرف تفاصيل التعبئة الصغرى ٠٠ ويتحلى بمزية الضبط المتين ٠٠ ويعرف مزايا رجاله ويوليهم المناصب استنادا لتلك المزايا فقط ٠٠ ويطبق جميع مبادىء الحرب المعروفة ٠٠ بشكل مثالى ، وبكل حرص فى الحرب » ٠

لقد كان قائدا فذا لايتكرر على تعاقب الايام والعصور الا نادرا

وقد لايتكرر ابدا ·· لقد انجز « عمر بن الخطاب » كل واجباته قائدا أعلى ·· بشكل يدعو إلى التقدير العميق ·· والاعجاب الشديد ·

تهيأت له الأسباب الجوهرية لانجاز تلك الواجبات بكل جدارة ·

كان يؤمن بالشورى فلا يستقل برأيه ولايبالى أن يأخذ الحكمة من أي وعاء ·· وهذا يقلل من فرص الخطأ والاهمال ·

- وكان يحرص على جمع المعلومات من منابعها بشتى الطرق والاساليب ،، وهذا يجعله يعمل على هدى وبصيرة ، ولا يسير ابدا مغمض العينين ·

- وكان يتسم بالحرص الشديد على الارواح ، وهذا يؤدى إلى عدم زج جيوشه فى المهالك دون مبرر ·

- وكان فطنا عالما بعيد النظر ، ومن نتائج ذلك استكمال دراساته العسكرية بدقة واتقان ، مع ادخال اسوأ الاحتمالات فى الحساب ·

- وكان شجاعا يعد لكل امر عدته ، ثم لايحجم عن تنفيذ خططه ولايتردد ولا يتراجع ·

- وكانت له تجارب طويلة للحرب جنديا وقائدا ، ومرؤوسا ، يتحمل أعباءها ، ولا يتهرب من نتائجها ، ولا يلقى باعباء تلك النتائج على الآخرين ·

وكانت له تجارب طويلة للحرب جنديا وقائدا ، مرؤوسا ، ومستشارا خبيرا للرسول القائد ، ولخليفته من بعده ·· كما كان خبيرا بمبادىء الحرب مطبقا لها ، عالما بتفاصيلها حريصا على مراعاتها ·

تلك هى الاسس الموضوعية التى تهيىء لكل قائد اعلى ·· فرصة النجاح فى اعداد « الخطط السوقية » والتى تهيأت لعمر بشكل واضح وملموس ، قل ان نجد له مثيلا فى تاريخ الحروب بكل زمان ومكان ·

فلا عجب - بعد ذلك - ان تكون خططه « السوقية » دقيقة متكاملة عملية بعيدة عن المخاطر ، ولا عجب ان تكون نتائجها فتحا « مستداما » لم تتراجع راياته منذ اربعة عشر قرنا حتى اليوم ·

لقد كان عهد عمر عهدا ذهبيا للفتح الاسلامى العظيم ·
كان دستوره فى الحرب ان يضع الاسس العامة ·· ويعهد فى تنفيذها إلى ذى خبرة وامانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى ، فى مصائر الحرب كل التخلى اعتمادا على القائد وحده ·· اذ ليس القائد بالمسؤول الوحيد عن المصير ·· فاذا رأى القائد العام رأيا وخالفه هو فى رأيه ·· اعانه بالمدد والمشورة على الاخذ بالرأى الذى دعاه اليه ، وابطل معاذيره بتوضيح الأمر ، واعانته عليه ·
ولقد كان إلى جانب السهر على الميادين العامة ·· لايغل يد القائد فيما يحسن ان تنطلق فيه ، فاذا تجاوز الامر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين ، وفك الحصار ، وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده ان يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع اليه ، وان يجرى فى ادارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ·· استشاره أبوعبيدة فى دخول الدروب خلف العدو ، فكتب إليه : « انت الشاهد وانا الغائب ·· والشاهد يرى مالايرى الغائب ·· وانت بحضرة عدوك ، وعيونك يأتونك بالاخبار ، فان رأيت الدخول إلى الدروب صوابا ، فابعث إليهم السرايا ، وادخل معهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا إليك الصلح فصالحهم » ·
فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها ، وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة ، وهو بعد هذا لايعفى نفسه من التبعة ·· ولايعفى القائد من واجب الرجوع إليه فى المواقف الحاسمة ، ولا يغل يده فيما هو ادرى به واقدر على الاختيار فيه ولاينسى ان يعينه إذا خالفه فى الرأى فيتفق الرأيان المختلفان فاذا رجع القائد إلى الحصار الذى ازمع ان يتركه مثلا ·· رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ليستمد من الايمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب فى تقديره ·
وهذه السياسة هى التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته

وسراياه ، وهى السياسة التى لايستطيع الحاكم ان يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة ٠٠ وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد فى الميدان وجعلت بطل الفرس « رستم » المشهور فى التواريخ والاساطير يقول : « ان عمر هو هازمه فى الميدان وانه هو الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ٠٠ اكل كبدى ، أحرق الله كبده » ٠

وربما يتبادر إلى الأذهان ان عمر كان « مركزيا » فى قيادته يشل ايدى قادته العامين ، وقادته المرؤوسين ، وهذا وهم ليس له من الحق نصيب ٠٠ انه يضع الخطط العامة ، ويترك لقادته التفاصيل ، بعد ان يبذل قصارى جهده فى اختيارهم لتحمل تبعاتهم بجدارة وقوة وايمان ٠ انه يضع الخطط « السوقية » ويترك لقادته امر وضع الخطط التعبوية » ٠

●●●

لقد كان عمر قائدا « سوقيا » يعد الخطط السوقية ٠٠ ويصدر أوامره ووصاياه إلى قادته العامين ، وقادته المرؤوسين ، مبينا لهم السياسة العامة للحرب ٠٠ ثم يترك لهؤلاء القادة تحمل اعباء كل التفاصيل التنفيذية ٠

ان التاريخ ليذكر لنا نماذج حية رائعة من خطط عمر السوقية اصدرها إلى قادته : أوامر جازمة صريحة ووصايا حاسمة واضحة كان من نتائجها العصر الذهبى للفتح الاسلامى فى أيام عمر الفاروق ٠

بعد معركة « اليرموك » فى أرض الشام ، استخلف أبوعبيدة على اليرموك « بشير بن كعب الحميرى » وسار حتى نزل بـ « الصفر » موضع بين دمشق والجولان ٠٠ فأتاه الخبر ان الروم وحلفاءهم المنهزمين اجتمعوا بـ « فحل » ـ موضع بالشام ، واتاه الخبر ايضا بان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب إلى عمر فى ذلك فأجابه : يأمره بأن يبدأ بدمشق فانها حصن الشام وبيت ملكهم ويشغل أهل « فحل » بخيل تكون بازائهم ، واذا فتح دمشق سار إلى « فحل » فاذا فتحت

عليهم سار هو وخالد إلى حمص وترك « شرحبيل بن حسنة » « وعمروبن العاص » بالاردن وفلسطين ٠

تلك هى الخطة « السوقيـة » لعمر التى بمـوجبها فتحت أرض الشام « سورية والاردن ولبنان وفلسطين » ومنها يتضح أن عمر بدأ « بهدف الحركات الخطير » وهو مدينـة دمشق عاصمـة البلاد وبعـد فتحها تتوجه الجيوش إلى الأهداف الثانوية ولكى يحرم الروم وحلفاءهم من تعـاون قواتهم فى مختلف منـاطقها عنـد فتـح دمشق امـر عمـر بتخصيص قوات من الفرسان لمشاغلتهم اثناء محاولة المسلمـين فتح دمشق ٠

ويفسر لنا المؤلف « هدف الحركات الخطير » بانه الهدف الذى متى ماتم الاستيلاء عليه تنتهى الحرب ٠٠ او أن العدو يضطر إلى قبول الصلح ٠٠ وتؤلف عواصم البلاد هدف الحركات الخطير ٠٠

ثم يقول : لقد ادى تطبيق هذه الخطة السوقيـة إلى فتح أرض الشام بسهولة ويسر ٠٠

وقبل معركة « القادسية » الحاسمـة امر عمـر ابا عبيـدة ابن الجراح ان يصرف جند العراق إلى العراق ـ وهم الذين شهدوا معركة اليرموك ـ وأمرهم بالحث إلى سعد بن أبى وقاص وذلك لتحشيد اكبر قوة ممكنـة فى الزمان والمكـان المناسبـين ، فكان لحضـور هؤلاء معـركة القادسية اثر كبير فى انتصار المسلمين فى هذه المعركة ٠

ان مهمة القائد الأعلى هى أن يحشد أكبر عدد من الرجال قبل المعركة الحاسمة ليضمن لجيوشه النجاح والنصر ٠٠ فاذا كانت قوات العراق قد شهدت معركة اليرموك الحاسمة فلا مبرر لبقائها فى أرض الشام بعد انتصار المسلمين فى تلك المعركة وبعد فتح دمشق ٠٠ ومن الضرورى ان تعمل تلك القوات فى ساحة اخرى اكثر اهمية من ساحات ارض الشام ٠

ويتابع المؤلف حديثه عن خطط عمر « السوقية » ـ ترتيباته فى سوق الجيوش ـ فى كل من العراق والشام وفارس ومصر ثم يقول : « تلك امثلة رائعة من خططه « السوقية » للفتح ·· تصور لك : كيف نهض عمر بتبعات قيادته « قائدا اعلى » لجيوش المسلمين فى عصرها الذهبى ·· انها تكشف لك عن السر فى قدرته الممتازة على الاضطلاع باعبائه الجسام على نحو لايزال مثارا لعجب الناس واعجابهم : كما تبين لك كيف كانت قابليات عمر القيادية من أهم الأسباب التى هيأت لامتداد الفتح ودفعت المسلمين إليه ورغبتهم فيه لقد كانوا يرون امير المؤمنين خير كفيل بحقوقهم ·· وبمن يخلفون وراءهم من عيالهم ، وكانوا يرونه يؤثر على نفسه وأهله ·· ويؤدى لكل ذى حق حقه ·· فلا جرم انهم يندفعون إلى ميادين القتال وكلهم الطمأنينة إلى غدهم ·· وإلى مصير ابنائهم وذويهم ·· وما ضر احدهم ان يقتل فى سبيل الله وفى سبيل الفتح الاسلامى ، وهو على يقين أن بنيه سيجزون إذا استشهد بخير مما يجزون إذا ظل حيا ·· وانه ستفتح له أبواب الجنة بما وهب الله نفسه مجاهدا فى سبيله ·

واذا كتب لخطط عمر « السوقية » النجاح الفذ ، فلأنه بناها على أسس قويمة ·· ولعل من أهم هذه الأسس هو تطبيقه مبدأ « التحشد » تطبيقا بلغ حد الروعة عددا ·· وعددا فكان قادته لايخوضون غمار معركة قبل ان تتوالى عليهم امدادات عمر : الخيل تتبعها الخيل ·· والرجال تتبعها الرجال ·· كما يقول عمر عن تلك الامدادات ·

● ● ●

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن التشريعات الاسلامية التى وضع عمر اكثر اسسها ·· وكانت أثرا من آثار الفتوح ·· ومن هذه التشريعات ما اتخذه من سياسة مالية قويمة وما احدثه من نظام للعطاء إلى جانب انشائه للدواوين ·· واستعماله للتاريخ الهجرى وامتناعه عن

تقسيم الاراضى الزراعية فى البلاد المفتوحة على الفاتحين واعتبارها من المرافق العامة ٠٠ إلى غير ذلك من التشريعات والترتيبات ٠٠ ثم يقول ٠

ذلك هو عمر بن الخطاب امير المؤمنين ، والقائد الأعلى للجيوش الاسلامية « يعد الخطط » السوقية لجيوشه ٠٠ ويسهر على مراقبة تنفيذ تلك الخطط ٠٠ ويحشد اكبر عدد ممكن من الرجال قبل خوض المعارك ٠٠ ليضمن لهم النصر ٠٠ ويمد جيوشه بالامدادات المتعاقبة ويوحد العرب فى شبه الجزيرة العربية ٠ ليطمئن إلى سلامة قاعدته الامنية ٠٠ ويؤمن العطاء للمجاهدين وذويهم ويجعل الأرض المفتوحة كلها « رصيدا لهذا العطاء » ويضمن السكن للجنود ولعوائلهم ٠ ولا يترك الجنود بعيدين عن عوائلهم اكثر من اربعة اشهر ٠٠ حفاظا على معنوياتهم ومعنويات عوائلهم ويخلف الغزاة بأهليهم ٠٠ ولست اعرف - يقول المؤلف الفاضل - قائدا أعلى كانت القيادة العليا بعض واجباته فعل اكثر مما فعله عمر فى سبيل جيوشه ماديا ومعنويا ٠

« ولقد طبق عمر الحرب الاجماعية » تحشيد الأمة ومرافقها المادية والمعنوية للحرب — قبل أربعة عشر قرنا .. فلا يزعم أحد ان الألمان أول من طبقها فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م

● ● ●

ولقد وضع المسلمون « الضمان الاجتماعى » للجنود موضع التنفيذ قبل ان تحلم به اوربا وامريكا بأربعة عشر قرنا ٠٠ فلا يقولن قائل : ان من مزايا هؤلاء ضمان الرواتب للجنود ولاسرهم فى حياتهم وبعد موتهم ، وضمان سكناهم وراحتهم فى كل أرض يحلونها فقد كان نصيب المسلمين من كل ذلك فى عهد عمر اوفر نصيب ٠

والحرب فى الاسلام حرب انسانية من دون شك ، والشواهد على ذلك ما جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية وما طبقه الرسول القائد عمليا فى الحرب .

ولكن العبرة دائما فى التطبيق العملى لا فى النظريات والتعاليم

المكتوبة ، وكثيرا ما يكون قانون ما ٠٠ مثاليا فى اهدافه ومراميه ولكن الاساءة فى تطبيقه تجعل من ذلك القانون حبرا على ورق ليس الا ٠٠

فتعاليم الحرب فى الاسلام تحتم الوفاء بالعهود ٠٠ وتحريم الغدر والخيانة فى الظاهر والخفاء ٠٠ واحترام الانسانية وتكريم البشرية والدعوة إلى الاخاء الشامل واعتبار الفضيلة والتقوى اساس العلاقات الدولية فى الحرب والسلم ، والرحمة فى الحرب والعدالة المطلقة ، والمعاملة بالمثل ، وافساح الطريق للدعوة الجديدة ومنع الفتنة فى الدين ، واقرار السلام ٠

تلك هى بعض تعاليم الاسلام فى الحرب ٠٠ فكيف وضعها عمر فى حيز التنفيذ العملى ؟!

استدعى عمر سعد بن ابى وقاص بعد تعيينه قائدا عاما فى العراق واوصاه بقوله : « ياسعد ، سعد بنى وهيب ! لايغرنك من الله ان قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ٠٠ فان الله عز وجل لايمحو السىء بالسىء وليس بين الله وبين احد نسب الا طاعته ٠٠ فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء : يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فأنظر الامر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فانه الامر »

هكذا يوصى عمر سعدا بالالتزام بأوامر النبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعثه إلى ميدان القتال !

ثم يفيض المؤلف فى حديثه فى هذه الناحية منوها بالكثير من وصايا عمر لقواد الفتوح فى وجوب تقيدهم بتلك التعاليم ومراعاة تنفيذهم لوصاياه ٠

● ● ●

آخر الفصول فى هذا الكتاب الرائع « الفاروق القائد » عنوانه « عمر فى التاريخ » يقول فيه :

بوفاة عمر رضى الله عنه ، ختم أروع فصل فى تاريخ الاسلام

والمسلمين منذ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر الدهر ، فلم يعرف المسلمون ، وما اراهم سيعرفون فى يوم من الايام خليفة يشبه عمر من قريب او بعيد ، فقد رأيت انه كان أزهد خلفاء المسلمين وملوكهم فى الدينا ، واشدهم لها ازدراء واعظمهم منها نفورا .

لقد فتح بلاد الفرس كلها ، وفتح الشام والجزيرة ومصر وبرقة .. ولم يستطع خليفة بعده ان يزيد على ذلك الا ما كان من فتح افريقية أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن المضى فى هذا الفتح إلى المحيط .. ومن فتح الاندلس ايام بنى امية .

ولم يعرف المسلمون بعد عمر خليفة أو ملكا جعل بيت المال ملكا للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ويعين منه من احتاج الى المعونة .. ويوفر ما بقى منه ليشيعه بين المسلمين رجالهم ونسائهم واطفالهم ، يأخذون منه اعطياتهم كل عام .. تسعى اليهم هذه الاعطيات .. دون ان يتكلفوا مشقة فى طلبها .. سواء فى ذلك منهم القريب والبعيد .. وقد رأيت انه كان يحمل بنفسه المال إلى البادية القريبة من المدينة ومكة فيعطيه للناس فى ايديهم وقد رأيت كذلك فى عام الرمادة انه كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به إلى الاعراب النازلين حول المدينة وربما طبخه لهم بنفسه ولم يعرف المسلمون ملكا أو خليفة بعده عنى بحماية الذميين والرفق بهم فى أمرهم كله .. كما عنى به عمر .

.. ولم يكن عمر يعرف قانونا إلا القرآن الكريم والسنة الشريفة ولم تكن له شرطة يستعين بها على حفظ الامن والنظام ، ولكنه ساس المسلمين على نحو جعلهم جميعا شرطة له فى المدينة .. وشرطة لولاته فى الامصار .. فليس غريبا ـ وهو الذى فعل هذا كله وأكثر من هذا كله ـ ان تكون الفاجعة بموته عظيمة والخطب به جليلا .

« .. لم أر عبقريا يفرى فريه » كلمة قالها النبى عليه السلام فى

عمر رضى الله عنه ٠٠ وهى كلمة لايقولها إلا عظيم عظماء خلق لسياسة الامم ، وقيادة الرجال ٠

لقد اتعب الخلفاء من بعده حقا وقد مضت القرون ، ولم تلد النساء مثله : ولا أراها ستلد مثل عمر ٠٠ ان فضائل عمر التى يذكرها له التاريخ باعجاب أى اعجاب وتقدير أى تقدير كثيرة لاتعد ولا تحصى ٠٠ فى ايامه ظهرت عبقريته الفذة فى توطيد اركان الدولة الاسلامية وتوسيع نفوذها واشاعة الحق والعدل والحرية والمساواة فى ربوعها ٠

٠٠ وكان من نتائج الحرب « الانسانية » التى خاضها العرب المسلمون فى عهد عمر : الحرية التى كفلها الفاتحون لاهل البلاد المفتوحة فى امر العقيدة ٠٠ مما دعا الفرس والروم وغيرهم للاقبال على الاسلام ، وعلى اللغة العربية ، وزاد فى اقبالهم ما فرضه الاسلام من المساواة بين المؤمنين على اختلاف اجناسهم والوانهم ولغاتهم وعاداتهم وماقرره من انه لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ٠٠ ومن ان المؤمنين اخوة ، فلا يكمل ايمان احدهم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه فهذا الاخاء ، وهذه الحرية ٠٠ والمساواة ادت كلها إلى انتشار جو ضاعف من قوة الوحدة فى الدولة الاسلامية ٠٠ وتضاعف فى ظله نشاط كل جزء من اجزائها ٠





داعي السَّمَاء

بلال بن رباح

الأستاذ عباس محمود العقاد

أثر قيم ، فى أدب التراجم ، وتحليل الشخصيات يضيفه العقاد إلى قائمة كتبه الأخرى ·· وخاصة منها كتبه الاسلامية !

ولقد كان بلال ـ رضى الله عنه ـ خليقا بهذه الدراسة ، وخليقا بهذا الكتاب ··

بلال ·· الصحابى الجليل داعى السماء ومؤذن الرسول صلوات الله عليه ·

وكعادة العقاد ، فى تراجمه للرجال ·· نجده فى هذا الكتاب مستوفيا لموضوعه فى احاطة وشمول ·· وفى دقة بحث ، وروعة تحليل ··

●●●

يتحدث العقاد فى كتابه هذا ـ الى جانب ما يقدمه لنا من سيرة سيدنا بلال ـ عما يسميه « مسألة العنصر » ثم عن « العرب والأجناس » ثم الرق فى الاسلام ، ثم يأخذ فى حديثه الماتع عن صاحب الترجمة فى فصول خمسة يبدأ بها فصله « نشأة بلال » فيقول :

اتفقت الأقوال على أن بلالا كان من أبناء الحبشة المولدين ، وجاء فى وصفه أنه رضى الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفا **طوالا** أجنا ـ أى فيه انحناء ـ كثير الشعر خفيف العارضين » ·

ويختلف مولده فيقال انه ولد فى مكة ويقال انه ولد فى السراة ، وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالا رضى الله عنه رجع إليها حين فكر فى الزواج ٠

والأرجح فى سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين ٠٠

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباح ٠٠ وأمه تدعى حمامة ، ولعل أمه كانت من اماء السراة أو اماء مكة اذا صح أنه لم يولد بالسراة ٠

● ● ●

وكانت نشأة بلال بمكة فى بنى جمح من بطون قريش المشهورة ٠٠ واذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور فى بغضه لعبادة الجاهلية واقباله على الاسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والأيسار وما يلازمها أحيانا من الغش والتلبيس وأن القوم فيهم مجافاة عن الرحمة والنزعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف ـ جد النبى عليه السلام ـ منذ القطيعة الأولى بين الأحزاب القرشية ، وخليق بأمثال هؤلاء **الآ** يألفهم الضعفاء ! ٠

واتفقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو الذى استنقذه من أيديهم بعدما عاينه من تعيبهم اياه لدخوله فى الاسلام فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق ، وقيل بتسع أواق ٠٠ واستراح بلال بعد عتقه من ايذاء السادة للعبيد ، ولكنه لم يسترح من ايذاء الأحرار للأحرار ولاسيما المستضعفين الذين لاتحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل مااستطاعوا من عنت ومساءة واشتدوا فى ذلك حتى هموا بقتل النبى عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكى بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها ، فأشفق النبى الكريم على صحبه وأذن لهم فى الهجرة قبله على ايثار منه للبقاء فى مكة ٠

·· ولزم بلال النبى والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازى والأسفار بعد ذلك وكان لمسجد المدينة الذى اشترك النبى عليه السلام فى بنائه حظ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين فى حضرة النبى حتى قبض عليه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه فى الاسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وان كان تقدمه فى الاسلام هو أرجح المزيتين التى استحق بها التفضيل والتكريم ·· وقد آخى النبى فى المدينة بين المهاجرين والأنصار فآخى بين بلال وخالد أبى رويحة الخثعمى وقيل بل بينه وبين أبى عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ·· والأول هو الأرجح لبقاء الصلة بين بلال وأبى رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة ·

● ● ●

·· وقد كان الحارس الملازم لشخص النبى عليه السلام فى طويل صحبته بين الحرب والسلم والاقامة والسفر ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارسا يحميه كما يحمى الحراس الأمراء والسلاطين ، وانما كان يستصحبه فى اقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه وكانت مودة بلال لمولاه تبدو منه حيث يريد وحيث لايريد فاذا اشتد الهجير فى رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشى والنبى لا يسأله ذلك واذا **تهيأوا** للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرقهما موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم الا جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث مالم يكن فى غيبة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذى لم يكن له شأن سواه ··

ولما فتحت مكة امره النبى عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه ، والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك

اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ودخل النبى الكعبة فكان فى صحبته ثلاثة هم عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها ، وأسامه بن زيد ، وبلال ٠

ومازال بصحب النبى مجاهدا حتى قبض عليه السلام فأقام الأذان بعد وفاته أياما على أرجح الأقوال ، ثم أبى أن يؤذن وأصر على الاباء ، لأنه كان اذا قال فى الأذان « أشهد أن محمدا رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبى ويراه ثم هو ، بعد لايصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ٠٠ وآثر الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة فى عشرة الستين ، واتفقت أرجح الأقوال على أنه استعفى الصديق من الأذان معه ٠٠ وأستأذنه فى الخروج إلى الشام مع المجاهدين ، فأذن له بعد الحاح منه واشترك فى معارك لانعلمها على التفصيل ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك الا يوم أذن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ويوم تصدى لمحاسبة خالد فى مجلس الحكم بين يدى أبى عبيدة ٠

وأدركته الوفاة فى نحو السبعين ، لأنه كان ترب الصديق على أرجح الأقوال وقيل انه مات فى طاعون عمواس وقيل سنة عشرين للهجرة أو احدى وعشرين واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبى وصحبه كما كان يقول فى ساعات الاحتضار فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله ! واحزناه ! فيجيبها فى كل مرة وافرحتاه ، غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه ٠٠

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضى الله عنه معروف يزار ٠

●●●

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذى اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم فى دمشق بعد انقطاعه عن

الأذان تلك السنين الطوال ·· بكى عمر ·· وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض ، واضطربت الأنفاس التى لاتضطرب فى مقام الروع ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمى ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما تولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ولكنهم انصتوا لوحى الغيب حين اصغوا اليه وقام فى أفئدتهم انه صوت جدير بمحضر النبى عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونة من الزمان فهم اذن فى عليين أو قريب من عليين !

رحم الله بلالا ·· انه كان داعى السماء ، ليرفع أبناء الأرض بدعوتها ·· وقد رفعهم فى ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ·· وحق للمسلمين فى ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبى وصوت بلال حيث كان ، فمن سيرة بلال نعلم أنه كان يأوى إلى كفالة النبى فى حياته البيتية كما كان يأوى اليه فى حياته الدينية وان احدا من الصحابة لم يكن يذكرهم بالنبى عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون اليه ··

·· ذكره ابن اسحاق فيمن حضر بدرا ·· فقال : وبلال مولى ابى بكر ، مولى من بنى جمح اشتراه ابو بكر من امية بن خلف وهو بلال بن رباح لا عقب له ·

نعم ·· ولكنه أعقب الميراث الذى يتصل بالأذان فى كل مكان ·· فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال ·

كان أول من أسلم ثمانية ، هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبوبكر وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد ·

قال رواة صدر الاسلام ، أما أبوبكر فمنعه الله بقوته ، وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم وأما سائرهم ، فأخذهم المشركون فالبسوهم

أدراع الحديد ، وأصهروهم فى الشمس ، فما منهم انسان الا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبى عليه السلام ·· الا بلالا ·· فانه هانت عليه نفسه فى الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد ، أحد ، ولايزيد ··

● ● ●

وجاء فى طبقات ابن سعد باسناده ما فحواه : انه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذى يعذبه أمية بن خلف !

وكانوا اذا اشتدوا عليه فى العذاب قال : أحد ·· أحد · فيقولون له ، قل كما نقول فيقول ان لسانى لايحسنه ، وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد ، أحد ، فأتى عليه ابوبكر فسألهم ، علام تعذبون هذا الانسان ؟ واشتراه بسبع أوراق وأعتقه ·

وهانت على بلال نفسه فى الله حتى ملوه فجعلوا فى عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم ان يشتدوا به بين أخشبى مكة ، فلم يزدهم على كلمته التى كان يرددها ولا يمل تردادها : أحد ، أحد ·

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية فى وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لايجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد !!

هذه صورة بلال رضى الله عنه فى مبدأ اسلامه وهو يتلقى العذاب ، ويتعرض للموت ولايصل به الاسلام إلى الوعود ـ فضلا عن تحقيق الوعود ـ فى معاملة المستضعفين من العبيد والاماء لأن احكام الاسلام فى معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة فى ذلك الحين !

ويستطرد المؤلف الكبير ·· إلى أن يقول : على أن المعاملة

الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لايحتسب كأحسن ما تصبو اليه الأحلام ، ويتعلق به الرجاء !

فبلغ من تعظيمه انه كان ندا لأعظم المسلمين فى حياة النبى عليه السلام وحياة الصديق والفاروق بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول : « أبوبكر سيدنا واعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع !

واتفق يوما ان ابا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطا من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق ، وطلبه معهم بلال وصهيب .. فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم .. وغضب ابوسفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه .. وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الانصاف فقال لهم : أيها القوم : انى والله أرى الذى فى وجوهكم ، ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم - إلى الاسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟

كان بلال رجلا على الفطرة ! .. وقد تقدم فى صفات الموالى الأفريقيين انهم ينقمون الاساءة على المسىء .. ويحفظون الحسنة لمن يحسن اليهم ، ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .. وهكذا كان بلال رضى الله عنه فى مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بنى جلدته وهى الأمانة والطاعة والولاء ، والصدق مع الولاء ! .. وقد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الايمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود ، وانما هو بشرة سوداء ، على طبع صاف .. يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .. وقد كان أكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء فكان ايمانه القوى بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التى ترتقى اليها محاسن بنى جلدته ومحاسن كل مولى مطيع سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع ، أو ولاء معجب بمن يستحق الاعجاب ! ..

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا

والآخرة فى طوية قلبه وعاش ومات وهو لايرجو فى دنياه ولا بعد موته الا أن يأوى إلى جواره وينعم برضاه ··

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة فى قرين حياتها ، فتصيح : واحزناه ! وكان هو يجيبها فى سكرات الموت : بل وافرحتاه ، غدا نلقى الأحبة ، غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه !

وعلى هذا عاش ·· وعلى هذا مات ·· وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم الا وهى فى جانب منها علاقة بمحمد رسول الله ، ومحمد سيده ومولاه !

● ● ●

وقد لزمت بلالا عادة الصدق فى كل كلام يبلغه المسلمون عن النبى أو يبلغه اليهم فى شأن من عامة الشؤون وخاصتها فلما رجاه أخوه فى الاسلام - ابورويحة - ان يسفر له فى زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال :

« أنا بلال بن رباح وهذا أخى ابورويحة وهو امرؤ سوء فى الخلق والدين فان شئتم ان تزوجوه فزوجوه وان شئتم ان تدعوه فدعوه ! » ·· فزوجوه وكان حسبهم عنده ان يقبل الوساطة ولايرده ، أو يموه عليه أوصافه ··

وقد كان من ولائه لأبى رويحة هذا ، أن ضم ديوان عطائه اليه حين خرج إلى الشام فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبى رويحة « ولا أفارقه ابدا للأخوة التى كان رسول الله عقد بينه وبينى » ·

● ● ●

وقد عرف له النبى عليه السلام هذه الخصال التى تتجمع كلها فى صفة الأمانة - وهو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس - فأقامه فى

موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه فى غزوه وحجه وحله وترحاله ولم يعرف أحد من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه المؤذن الذى يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذى يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذى كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير فى رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التى قلما كان يركبها سواه عليه السلام ، ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه وبلال !

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن فى ثراه ٠٠ فكان بلال هو الذى ذكر واجب الحنان المكلوم فى ذلك الموقف الأليم ٠٠ فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء ٠

ومن المتفق عليه فى أقوال الصحابة ان بلالا كان محبب الصوت الى اسماع المسلمين وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبى بهم فيزيدهم هذا خشوعا لسماع صوته فوق خشوع ٠

ولزم بلال النبى عن كثب طوال حياته ٠٠ فكان يوقظ النبى بعد الأذان أحيانا بآية من الآيات ٠٠ أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى ٠٠ فاذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الأفريقى الواقف بالصف الأول ليتلوه فى حركات الصلاة فان من واجب المؤذن بعد اعلان الأذان أن يصحب الامام بالتكبير والدعاء ٠

ولما تعاظمت قوة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت اليه أمور وأمور ٠٠ فكان خازن بيت النبى وأمينه على المال الذى يصل إلى يديه ٠٠ وتلقى من النبى مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة فى موكبه الظافر ، وكان هو الذى أقام الأذان على أعلى مكان فى تلك البنية التى اشتهرت الآن فى أنحاء الكرة الأرضية ٠٠ وكان هو الداعى الى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضرموت للدخول فى الاسلام وكان هو الذى يدعو الى الصلاة حين يحتشد فرسان الاسلام بالصحراء لقتال عابدى

الأوثان ‥ ثم توفى محمد صلى الله عليه وسلم فسكت الصوت العجيب ، ودعى مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين الى الصلاة ‥ لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لامام بعد نبيه ووليه ٠

ولانعلم كم من الوقت قضاه بلال فى صحبة أبى بكر بالمدينة ولكنه لاريب كان فى موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ‥ وكان له من جلال القدر فى انظارهم ما خوله ان يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهى رعاية عظمى بين قوم لايزالون يفخرون بصحة النسب ‥ ويسمون أنفسهم بالأحرار ٠ أى الخلص من النسب الخليط ! ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى مهام الدولة بعد الخليفة الأول فلما أراد الخليفة العادل الصارم فى عدله ـ عمر بن الخطاب ـ أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين ٠

ولكننا لانسمع بعد هذه القصة عن بلال الا القليل حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم أنه كان يصحب الجيش وانه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض ، واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال ‥

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق ابوبكر وخالد بالنبى فى رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه فى معارك الاسلام الأولى ‥ ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذى تقدمه فى المعيشة ‥ فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التى درجت عليها ‥ وظهرت بينها بدع من الترف الأسيوى لم تكن معهودة فيما مضى وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب ‥ حتى دمعت عينا الخليفة عمر ‥ وهو ينظر اليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه ‥

وخلال ذلك كانت العقيدة التى تعذب بلال من أجلها ، ودان بها زمنا وهى لاتتجاوز حى ابى طالب ـ قد تجاوزت البرور والبحار الى

سورية وفلسطين وفارس وشهدها قبل ان يسلم روحه ـ الى ذلك الذى لاينام ـ وهى تسلك سبيلها الى القارة الافريقية ، فتضمها الى فتوح الاسلام ٠٠ وبهذا أصبحت دعوته الأولى ـ دعوة الأذان ـ مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند الى شواطىء الأطلسى ٠٠ وقرع فرسان الصحراء العربية أبواب كابل ٠٠ ولعل ولدا من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتى يوم بين المشرق والمغرب ٠٠ وأن ما بلغته الفتوح الاسلامية ـ حتى فى السنة الثانية عشرة للهجرة ـ لخليق ان يستجيش فى صدر الشيخ الهرم حمية الدين التى عمر بها إلى ما بين جانحيه ٠

● ● ●

سكت صوت بلال عن ترديد الاذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى فى حسبانه التقى أن الصوت الذى أسمع نبى الله ، ودعاه إلى بيت الصلاة لاينبغى أن يسمع بعد فراق مولاه ٠٠ ولنا أن نتخيله فى مأواه بالشام وانه ليدعى مرارا إلى ترديد ذلك الدعاء الذى أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب وأنه ليضطر مرارا إلى الاباء والاعتذار لاولئك الذين كانوا يجلونه اجلال القديسين وبودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه ! ٠

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل اليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا اقامة الأذان تكريما لمحضر أمير المؤمنين ٠٠ فرضى بلال وكان أذانه الأخير ! ٠٠ لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد فى تلك الأيام غيرة يوشك الا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النبأ الذى سرى بينهم مبشرا باستماعهم إلى أذان بلال ٠٠ قد أذكى فى نفوس أهل المدينة الوردية الشذى ٠٠ حمية مفرحة لانظن أن العالم المسيحى قد شهد لها مثيلا فى غير أيام الصليبيين ٠٠ فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوى لاح للأكثرين ولاشك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة ٠٠ تكاد أن تضارع الظفر بسماع صوت النبى عليه

السلام ٠٠ وانها أفخر أحدوثة فى الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والأحفاد ، وقد يكون فى المدينة من تلقى النبأ بشعور لايتجاوز التطلع والاستشراف ولكن الأكثرين الذين تزاحموا فى صمت وخشوع واجفى القلوب مرهفى الآذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان ٠٠ وتزكى روايات العيان هذا الاعتقاد لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار فى تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهورى تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الأفريقى بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ٠٠ ومن معه ، وانحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع فى زفراتهم نشيج عال غطى فى المسجد على دعاء الأذان الأخير ٠



المثنى بن حارثة الشيباني

الأستاذ محمد فرج

الرجل الذى يتناوله هذا الكتاب بالحديث ، قائد بطل مظفر سجلت له أعماله الخارقة فى ميادين الجهاد والفداء ، أروع صفحات المجد والخلود فى التاريخ الاسلامى ٠

« إنه المثنى بن حارثة الشيبانى » وكفى به اسما مدويا فى تاريخ الجهاد والفداء !

إنه المثنى الرجل الذى آمن عن عقيدة ٠٠ وآمن باخلاص وظل طيلة حياته منذ أن اسلم يجاهد فى سبيل الله ٠٠ ويغزو مستميتا من أجل الدين الذى آمن به أقوى ايمان وكان المثنى مثلا فريدا بين قادة الحرب ، وأبطال المعارك كان « مثلا » فى تفوقه القيادى ، وكان مثلا فى الجرأة والاقدام ، وكان مثلا فى الحيطة والحذر ٠٠ وكان مثلا فى رسوخ العقيدة ، وفى صدق المبدأ ٠٠ وكان ـ أخيرا لا آخرا ـ مثلا كريما رائعا لنبالة الأخلاق !

ان تاريخ هذا القائد البطل حافل بكل البطولات ٠٠ فحسب المثنى بن حارثة الشيبانى انه فى بلده حيث يقيم فى الخليج العربى ٠٠ كان أول من تصدى لجيوش المرتدين إلى جانب « العلاء » القائد الذى بعث به الخليفة ابوبكر إلى أرض البحرين لمحاربة القبائل المرتدة ٠٠ وكان موقف المثنى من هذه الحرب من أقوى العوامل فى نصر المسلمين الحاسم !

وحسب المثنى أيضا الدور البارع الذى أداه فى حربه لدولة فارس وفى استيلائه على العراق وما قام به بعد ذلك من معارك كان لها شأنها فى الصراع بين المسلمين والفرس وكان لها أثرها فى الزحف الاسلامى ٠

وسنمضى مع صفحات من هذا الكتاب ـ من سلسلة أعلام العرب ـ لنرى أى رجل عملاق ٠٠ شجاع ٠٠ مؤمن صادق الايمان كان المثنى بن حارثة :

يقول المؤلف فى مقدمته لكتابه : المثنى بن حارثة الشيبانى موضوع هذا الكتاب شخصية عربية أصيلة ممتازة ، كان له دور كبير فى حياة العرب والاسلام ، دور ملىء بالبطولات عامر بالأمجاد ٠٠

ويتناول فى الفصل الأول البيئة التى نشأ فيها المثنى ، فيتحدث عن قومه « بنى شيبان » وينوه فى بحثه هذا بما كان لقبيلة شيبان من سطوة وبأس وسؤدد بين القبائل العربية جمعاء وكان لهذه البيئة التى عاش فيها المثنى ، وترعرع بين رجالها الأثر الفعال فيه ٠٠ فى انماء روحه ، ونشوئه على الايمان بالمبدأ والتصلب بالعقيدة والجود بالنفس ٠٠ والصدق والعزيمة والصبر والجلد والتحمل والشجاعة والاقدام والقوة والتغنى بضروب الفروسية ، والاستماتة فى الحرب ٠٠ هذه الصفات احس بها الكثيرون من بنى شيبان ، ولمسوها بصورة واضحة فى المثنى فجعلوا منه سيدا لهم ، والتفوا من حوله ، وأصبحوا فى اشارة بنانه ٠٠ قذفوا بأنفسهم فى المهالك من ورائه ، فكتبوا لأنفسهم ولزعيمهم وقائدهم المثنى ٠٠ أروع صفحات المجد والبطولة فى التاريخ ٠٠

وكانت منازلهم تبدأ من اليمامة إلى البحرين الى أطراف سواد العراق فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية عاش بنو شيبان كانت هذه المنطقة قريبة من أرض الفرس الذين أقاموا الحاميات للمحافظة على بلادهم لدرء الأخطار التى قد تثيرها القبائل العربية ضدهم ٠

ويسجل التاريخ لبنى شيبان موقفهم التاريخى فى موقعة « ذى

قار » التى دارت رحاها ضد الفرس فقد زلزلت سيوف بنى شيبان ورماحها تاج كسرى ، وقضى رجال بنى شيبان وأبطالهم على جموع الفرس ·· حتى ان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه خلال حديث له عن ذى قار « ان هذا لأول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » ·· فى هذه البيئة عاش المثنى ، واستطاع ان يسجل لنفسه فى التاريخ العربى صفحات بطولية مجيدة ·· ونحن لانبالغ فى قولنا هذا ـ اذا عرفنا ان اسم المثنى ارتبط بيوم هام من أيام العرب هو يوم « الفرات » ·· وكان انتصاره فى يوم الفرات أحدوثة الزمان حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم ·

وينتقل المؤلف إلى الفصل الثانى ، وفيه يتحدث عن اسلام بنى شيبان فى عام الوفود فقد خفق قلبها بالاسلام وواتتها الفرصة التى كانت تنتظرها منذ زمن ، فسيرت من ربيعة وشيبان الى مكة فأسلموا ، وأقرهم الرسول على ما بأيديهم ، ولم يؤاخذهم على ما فعلوه قبل اعتناق الدين الحنيف ·

وكان المثنى واحدا من أفراد هذا الوفد ·· هو اذن كان من الأولين الذين امنوا بهذا الدين ·· والذين انتظروا الفرصة المواتية للدخول فيه ·· هو اذن قد دخل الاسلام عن ايمان وثقة ، وذكر بعض المؤرخين ان سلمى بنت حفصة زوج المثنى كانت معه حين قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وهى بذلك تكون صحابية ·· وهناك اتجاه آخر يخالف هذه الرواية يشير اليه المؤلف وهو ان الرسول صلوات الله عليه بعث فى العام الثامن الهجرى العلاء بن الحضرمى الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام أو إلى دفع الجزية وان العلاء حين قدم الى البحرين وأوضح مهمته لأهلها أسلم الكثيرون الا المجوس واليهود الذين قبلوا دفع الجزية ··

ويمضى المؤلف فيشير إلى حروب الردة وما كان من شأنها فى بلاد

البحرين وما انتهت اليه من انتصار المسلمين الحاسم فى تلك الحروب على ما يعرفه التاريخ ، ويهمنا هنا فى هذا العرض الموجز ان نشير الى دور المثنى بن حارثة الشيبانى فى هذه الحروب كما يرويه المؤلف :

ترى ماذا كان موقف المثنى فى هذه الحروب ؟

هل ارتد وبقى على ردته ؟ هل ارتد ثم عاد مع من عاد الى الاسلام ؟ ·· هل بقى على الاسلام ولم يرتد أبدا ؟ يقول المؤلف : « ان الايمان القوى الراسخ فى صدر المثنى هو الذى حدد موقفه من الردة والمرتدين » ! ·

فقد ابى عليه هذا الايمان أن يعود أدراجه الى الجاهلية ، وهو الذى آمن عن عقيدة ، وعن شعور وعن ثقة فى ان الاسلام هو الدين الحى الذى بعث به الله تبارك وتعالى الى الناس جميعا ، وجعله خيرا للبشرية كلها ، ولهذا رفض المثنى كل دعوة إلى الردة فى صدق واصرار وعزيمة ·· ولم يكن موقفه من الردة سلبيا ، وانما اتخذ موقفا ايجابيا فقد صمم على أن يدافع عن الدين الذى آمن به ودخل فيه ، ولهذا جمع الجموع وانضم بها الى جيش العلاء بن الحضرمى ودعا اهله من بنى شيبان ليبقوا على دينهم وليخرجوا مع الخارجين لمحاربة المرتدين ، ولصيانة الدين ·· وما ان تم للعلاء الانتصار على المرتدين فى خندقهم حتى أسرع المثنى على رأس جيش كبير العدد ونشر جنده على ساحل البحر ليصد المنهزمين الفارين عن ركوبه ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، ويرجع اليه فضل الانتصارات الكبيرة التى احرزها المسلمون على طول خليج البصرة ·· واستطاع المثنى ان يستولى على القطيف ، وان يصل بقواته إلى دلتا الفرات مهددا دولة الفرس ·· التى كانت تسند القوات المرتدة وتؤيدها وتعينها على ردتها ·· وتمكن المثنى من مقاومة دسائس الفرس ومن القضاء على أنصارها من مختلف القبائل ·

ولقد كان اتصاله بأرض العراق ودعوته هناك الى الاسلام بداية ومقدمة لفتح العراق وضمه إلى الدولة الاسلامية ··

ثم ينتقل المؤلف إلى الباب الثالث من الكتاب ليتحدث فيه عن أرض السواد والحيرة وغارات المثنى بن حارثة الشيبانى ··

●●●

وكان السواد ـ وهو أرض العراق ـ مستعمرة فارسية رغم أن كثيرا من العرب يعيشون فيها ، لهذا كانوا يرونها عربية يجب ان تكون تابعة للعرب دون الفرس ·· ومن هنا بدأ التفكير جديا فى انقاذها من أيدى الفرس ·· وشغل امر انقاذها القائد العربى المثنى بن حارثة ، فأخذ يبحث ويدرس الوسائل التى تحقق أمله الكبير فى ضم أرض السواد إلى سلطة العرب ، ونشر الراية العربية فوق هذه الأرض ··

تتبع المثنى أحوال العجم ، وتنسم أخبار العرب القاطنين فى أرض السواد ، وعلم من دراساته لأحوال العرب أن العجم يسومونهم الأذى ·· وقد استضعفوا فشنوا عليهم الغارات مستغلين فى ذلك ملوك الحيرة الذين يخضعون لسلطانهم ·· وعرف المثنى أن العرب يقاسون من ظلم العجم الكثير ·· وكان مما عرفه أيضا ذلك الاضطراب العنيف الذى يعيش فيه العجم داخل بلادهم ·· اذن فالبلاد التى يقف المثنى على أبوابها بلاد مزعزعة الأركان ، مهلهلة الجوانب ، لاضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشؤون ·· أهلها مختلفون شيعا وأحزابا وفيها يعيش الناس فى ذلة وهوان ·· وقفز الى ذهن المثنى هذا السؤال ·· لماذا لايقتحم أرض السواد بمن تبعه من بنى شيبان ؟ ! ان تحت يديه ثمانية آلاف مقاتل من خيرة الأبطال · فلماذا لايخرج بهم إلى أرض السواد فيمد يده إلى العرب المقيمين هناك يرد لهم اعتبارهم ويرتفع بنفوسهم إلى مراتب الكرامة والرضى ·· وينشر بينهم مبادىء الاسلام الخالدة ، ويأخذ بأيديهم إلى حياة أفضل تليق بهم كأفراد فى العائلة الانسانية ؟ !

●●●

بعد أن أسهم المثنى فى القضاء على المرتدين فى البحرين تقدم إلى القطيف وهجر ·· وبلغ مصب دجلة والفرات ، ومن هناك بدأ غاراته

المتعددة على احدى مدن الفرس العتيقة واستطاع ان يدخل المدينة ·· ثم اتجه المثنى إلى مدينة « الأبلة » وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها ، ووقع فى يده منها أسرى كثيرون ·· وعطف المثنى بعد ذلك على الحيرة ، ووقعت مناوشات كبيرة بينه وبين سكانها ، وكانت شجاعته وقوته ، وبطولة رجاله من العوامل الكبيرة التى أثارت روح النفور والتمرد فى القبائل العربية ··

ويتساءل خليفة المسلمين ابوبكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ بعد أن بلغته **أخبار** المثنى :

من هذا الذى تأتينا اخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ ويجيبه قيس ابن عاصم بن سنان : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ·· هذا المثنى بن حارثة الشيبانى ويسرع المثنى الى المدينة حيث التقى بالخليفة ابى بكر الذى كان قد عرف الكثير عنه قبل ان يلقاه ·· ونقل المثنى إلى أبى بكر صورة واضحة المعالم عن أرض السواد ·· اخبره بتفاصيل غاراته ووقائعه وقدم له وصفا للحالة الداخلية لبلاد الفرس ، وجعله يقف على أمورها ، واضطراب حيل دولتها ، وانهيار كل قوة او منعة فيها ·· ومازال المثنى يهون على الخليفة امر العراق ويغريه ببلاد فارس هذا فوق ان المثنى طلب من الخليفة ان يقوم بتأمين العرب من أهلها ، وحمايتهم من شرورها ·· وعاد المثنى الى بلاد الفرس وتولى قيادة جيشه ، واخذ العدة للقيام بالدور الخطير الذى ألقى على عاتقه ، واحس بالمسؤولية الضخمة التى أصبحت فى عنقه ·· ورأى ابوبكر ان يمد المثنى بقوات وامدادات تساعده وتسانده وتشد من أزره ليتحقق فى بلاد الفرس نصر سريع عاجل فأصدر أوامره إلى « خالد بن الوليد » بأن يجمع بقية جنده فى اليمامة ، وان يسير بهم إلى العراق على أن تكون له القيادة العليا بطبيعة الحال ، وفى ذات الوقت امر أبوبكر « عياض بن غنم » بالسير إلى دومة

الجندل ، فاذا ما أخضع أهلها المتمردين تحرك شرقا إلى الحيرة لمعاونة خالد فى مهمته ٠

وعندما تحرك خالد كان تحت إمرته عشرة الاف مقاتل ، واستقبله المثنى ومعه ثمانية الآف وامده الخليفة بالقعقاع بن عمر التميمى ٠

وعندما استقر خالد فى أرض العراق كان تحت إمرته رجال ابطال ميامين باعوا أنفسهم فى سبيل الاسلام ، وخلصت نيتهم للدين الذى هيأ الله لأهله أسباب النصر ٠٠ ومن هؤلاء الرجال :

المثنى بن حارثة ، مذعور بن عدى العجلى ، سويد بن قطبة الذهلى ، عاصم بن عمرو ، عدى بن حاتم الطائى ، القعقاع بن عمرو التميمى ٠٠ وكان أول اشتراك للمثنى فى الحرب تحت قيادة خالد فى المعركة التى دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس بقيادة هرمز ٠٠ وكان هرمز هذا من أسوأ امراء الفرس معاملة للعرب حتى بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل فى الكفر والخبث وكانوا يقولون « أخبث من هرمز » و « أكفر من هرمز » وكان هرمز ينازل العرب فى كل مكان برا وبحرا ٠٠

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل هرمز ٠٠ وفر جيشه فأمر خالد المثنى بمطاردة الفارين ، وخالد كقائد عسكرى يدرك قيمة المطاردة بالنسبة للجيش المنتصر ٠٠وأيضا بالنسبة للجيش الفار ٠ ويعلم أن وقعها على الجيش الفار أليم ٠٠ اذ يزلزل كيانه ، ويحطم معنوياته ويفقده الثقة فى نفسه وفى قادته ٠٠ ومن أجل هذا رأى خالد أن يقوم بالمطاردة رجل قوى عليم بفنون الحرب وأصولها ليستطيع أن يحقق الغرض من المطاردة ، ولم يجد فى قادته من يرتفع إلى مستوى القوة والحكمة والعلم بشؤون الحرب سوى المثنى بن حارثة فأسند هذا الأمر وهو مطمئن إلى تنفيذه بالصورة التى يريدها ، وبالنتيجة التى يهدف اليها ٠٠

أسرع المثنى يلاحق المنهزمين الفارين فى اتجاه المدائن ٠٠ واستمر فى جهاده الكبير العظيم تحت قيادة خالد ، فانتقل معه من موقعة إلى أخرى ، ومن قتال إلى قتال ، لم تضعف روحه ، ولم تهن عزيمته ، وانما ظل متمسكا بمبادئه ، قويا فى ايمانه عظيما فى قتاله ، حتى توغل الجيش الاسلامى فى بلاد الفرس وأدى المثنى دورا كبيرا خطيرا فى هذه المعارك كلها ، وكان له فضل فى النتائج التى انتهت اليها ٠٠

ولقد قدر خالد له جهده ، وقدره أيضا ابوبكر الصديق حتى انه حينما أمر خالد بن الوليد بالتحرك إلى الشام لمساعدة الجيوش الاسلامية التى كانت تواجه جيش الروم فى اليرموك ، أمر بأن يتولى المثنى قيادة الجيش الاسلامى فى العراق ٠٠

وعاد المثنى قائدا للجيش الاسلامى فى أرض العراق ٠٠ وبدأت منذ هذه اللحظات أروع صفحات المجد والبطولة للقائد العربى الهمام ٠٠ ويتحدث المؤلف فى البابين الرابع والخامس من كتابه عن المعارك التى أدارها المثنى بن حارثة تحت قيادته فى العراق وما أبدى فيها من بطولات خلدها له التاريخ بحروف من نور ٠٠ إلى أن توفى بعد اصابته فى واقعة الجسر ٠٠ وبلغ سعد بن أبى وقاص نبأ وفاته فترحم عليه وأوصى أخاه « المعنى » بأهل بيته خيرا ٠٠

ثم يتحدث المؤلف فى الباب السادس عن قيادة المثنى ٠٠ فيقول « والمثنى بن حارثة الشيبانى واحد من القادة العرب العسكريين ، كانت له جولات واسعة المدى فى مجال الحرب والقتال ، وكان له باع طويل فى المجال العسكرى ، وكتب لنفسه صفحات خالدة ، وسجل مواقف طويلة ، واستطاع ان يرقى سلم المجد الحربى فى سنوات قليلة ٠٠ وان يحتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأن يبرز اسمه كمحارب فذ ٠٠ وقائد كفء فى الميدان وان يحرز انتصارات تاريخية برغم أنه كان يقاتل بجيوش قليلة العدد والعدة جيوشا تفوقها فى الأفراد والسلاح تقف من ورائها أمم ذات مجد وحضارة وقدرات ٠

ويتساءل المؤلف ـ وهو يتناول فى بحثه « المثنى وفن القيادة » : ماهي الصفات التى جعلت من المثنى قائدا ممتازا له فى تاريخ الحروب سجل مشرف ، مشرق ؟ !

ثم يقول : ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذى أحرزه المثنى يجد انه يكمن فى مدى ايمانه العميق ٠٠ فمما لاشك فيه ان قوة الايمان هى التى تدفع الى النصر ، والمتتبع لتاريخ الحروب يلمس ان النصر كان حليف من هم أقوى ايمانا وأثبت عقيدة !

ولقد دخل الايمان قلب المثنى وملأ نفسه منذ سمع بدعوة الرسول الكريم ـ صلوات الله عليه ـ حين خرج ومعه على بن ابى طالب وابو بكر الصديق ليعرض بنفسه على قبائل العرب دعوته فقد نزل الرسول وصاحباه بمجلس عليه السكينة والوقار يضم كبار رجال بنى شيبان ، ومن بينهم المثنى بن حارثة ، وتحدث اليهم الرسول الكريم فقال : « أدعوكم إلى شهادة أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأنى رسول الله وان تؤونى وتنصرونى حتى أودى عن الله الذى أمرني به ٠٠ فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ٠٠ والله هو الغنى الحميد » ٠

واستمع القوم إلى الرسول الكريم وهو يتلو بعض آيات القرآن واستمع اليها معهم المثنى ، وتجاوبت نفسه مع الدين الجديد ، وتفهم فى عمق رسالته ٠٠ ووقع القرآن فى نفسه موقعا حسنا ، ووجد ان كلمة الحق تدوى فى أرجائه ، فاتجه بجوارحه وأحاسيسه إلى الرسول تلتقط أذناه كل كلمة حتى اذا ما انتهى الرسول من عرضه قال له المثنى « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش واعجبنى ما تكلمت به » وتمر الأيام واذا بالمثنى يجد دين محمد صلى الله عليه وسلم فى اتساع ، ورجاله فى كثرة ، وقريش والقبائل الأخرى تنهزم مرة وراء الأخرى وتعجز عن صد الدين الجديد ٠٠ فيقع الاسلام فى قلبه ويستجيب له ، ويؤمن به ايمانا عميقا يمنعه حين يرتد قومه من أن يرتد ٠٠ وانما يظل

على دينه وينضم الى جيوش المسلمين التى جاءت تحارب المـرتدين فى البحرين بقيادة العلاء الحضرمي ، ويعاونه معاونة صادقة فى القضاء على المرتدين ، ثم لايقف عند هذه الحدود ، وانما يسير على رأس جيش ينشره على طول ساحل البحر ويتلقى المنهزمين ويصدهم ويفتك بهم حتى تمتـد انتصاراتـه على طول خليـج البصرة حتى هجـر ٠٠ والاراضى الشمالية ، والقطيف ، وحتى تبلغ قواته دلتا الفرات ٠٠٠

وهكذا دفعه الايمان القوى الذى كان راسخا فى صدره الى اعلاء كلمة الله ، كما دفعه تفكيره الى ناحية ارض السواد ٠٠ فتقدم اليهـا مغيرا عليها يعرض الاسلام على أهلها ٠٠ والايمان هو الذى جعله يلقى الرعب فى قلوب اهـل السواد فتنهـار معنويـاتهم ، وتضعف قواهم ، ويستسلمون حين يشتد اللقاء ، ويعنف القتال ، وهو الذى جعله ينتقل الى الخليفة فى المدينة يعرض صورة لوقائعه ، ويرغبه فى غزو العراق ، ويهون عليه أمرها ، ويغريه ببلاد الفرس ، فلما استجاب له ، وسير اليه خالد بن الوليد ، رضخ تحت تأثير ايمانه لأوامر ابى بكر ، فعمل تحت إمـرة خالد ، وقـد كان قـائدا للجيش قبـل مجيئه ـ كجنـدى بسيـط متواضع ، وهو الذى جعله يواجه هرمز فى قوة وصبر بقواته الضئيلة وهو الذى جعله يقاتل جيشا يفوقه عددا وعدة فى بابل وفى غيـرها من المعارك ، فينتصر انتصارا ساحقا ، وينقل راية المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والجمال ٠٠

ان الثقـة بالنفس ، والاعتمـاد عليهـا من أهم عنـاصر تكـوين شخصية القائد ، فمتى وجدت الثقة بالنفس أصبح من السهل الاعتماد عليهـا فى كل عمـل ممكن ٠٠ والثقـة تتـولد نتيجـة للعلم والمعـرفـة والمقدرة ٠٠ والمثنى بن حارثة حين فكر بالقيام بغاراته ينتصر فى هذه العمليات التى حمل نفسه عبء القيام بها ٠٠ ومما لايختلف فيه اثنان ان الناس يثقون بمن يثق بنفسه ٠٠ ولهذا كان واضحا ان جند المثنى قد وضعوا ثقتهم الكبيرة به ٠٠ وليس أدل عـلى صحة ذلك من أنهم

حاربوا معه وبجانبه ولازموه فى معاركه المختلفة ، وغاراتـه المتعددة ، وشاركوه متاعب المعركة وجهدها ، وقاسموه حلوها ومرها ·

وكان المثنى يتميز بصفة انسانيـة كبيرة ، فقـد كان يعمـل فى صمت ·· ايمانا منه بأن العمل فى صمت هو سبيل النجاح من هنـا ظهرت حقيقته للناس فقدروا كفاءته واعترفوا بشخصيته ومقدرته ·· فالمثنى الذى انتصر فى جميع معاركه لم تمتلىء نفسه بالغرور ·· ولم يتعال على جنده ·· وانما عاش معهم كواحد منهم ·· حتى أحس جنده بأنه رجل صادق الحس ·· حسن البصيرة ·· جيد التقدير ·· يحكم على الأمور بفهم لايأخذ بالمظاهر والقشور ·· يضبط نفسه ولاتثيـره الصغائر ·· ولاتفقده الكبائر الصواب ··

يقول المؤلف ـ وكان المثنى محرر النفس من التعاظم والكبرياء والغطرسة ، والمظاهر الكاذبة ·· وكان يبدو أمام الناس على حقيقته فلا يلبس غير ثوبـه ·· ولايبدو فى مـظهر ليس له ، ولايـدعى القول ·· ولايعطى لنفسه من التصوير ما لايستحق ··

كان « المثنى » من القادة العظماء الذين انقطع نظيرهم وقد تفرد بخلال لم تتوفر فى غيره ·· كالمقدرة ·· والكفاءة والخبرة بـأساليب الحرب ·· ومن أهم ما يتميز به الإقدام ·· وقد دفعه الاقدام الى أن يوسع نطاق الفتح ، وأن يستثمر الفوز بدحر الأعداء ، ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ·· ومازال المثنى يقاتل الفرس ، ويخضـع الخارجين من أهل العراق ويثبت دعائم الاسلام حتى أصبحت بـلاد الفرس جزءا من الأمة العربية تمثل قطاعا هاما من قطاعاتها ··

وكان المثنى يشارك جنوده مشاعرهم وأحاسيسهم ·· وأفراحهم وأتراحهم ·· وكان يتجنب العنـاية بمصـالحه وراحتـه على حسـاب الآخرين ·· وكان يثير الحماس فى نفـوس جنده ويـدفعهم إلى التعلق بالنصر مهما كانت ظروف المعركة ·· وانه كان متفائلا يفكر فى النجاح لا

فى الفشــل ٠٠ ينـظر إلى الأشيــاء بعــين الأمــل ٠٠ لابعــين اليــأس والقنوط ٠٠ يفكر فى النصر دون الهزيمة ٠٠ وفى المبادءة بالهجوم دون الدفاع ٠٠ كما أن عاطفته لم تؤثر فى تصرفاته أو أفعاله ، وانما كان يزن الأمور ويقدر الأشياء ويؤمن بالعدل والمساواة ٠٠ ولم يفقد سيطرته على مشاعره وعواطفه ٠٠ ولم يأخذ الأمور بالمظاهر ٠٠ وانما كان يتعمق فى حقائقها ٠٠ ويبحث عن أصولها !! ولقــد اهتم المثنى اهتمامــا بالغــا بنفسية رجاله حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر ٠٠ قادرين على خوض المعارك والعيش فى أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهي تحمل سيوفهم أو ترتعد قلوبهم وهم يتعرضون لمفاجــآت المعركة وما أكثرها ٠٠



عبد الملك بن مروان

الدكتور ضياء الدين الريس

فى سلسلة « أعلام العرب » ٠٠ ظهر هذا الكتاب القيم عن الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » ٠

وما بنا من حاجة إلى أن نقول انه من حق « عبد الملك بن مروان » وهو أحد ثلاثة أو أربعة خلفاء عمالقة فى تاريخ الاسلام كله ، بعد الخلفاء الاربعة الراشدين ٠٠ من حق هذا الرجل الضخم ذى التاريخ الحافل أن تؤلف حوله كتب ٠٠ وتخصص له دراسات :

فعبد الملك بن مروان ٠٠ هو الذى أعاد للدولة الأموية كيانها قويا شامخا بعد ان أوشك هذا الكيان أن يتهاوى وينهار !

والعجيب فى أمر عبد الملك وأبيه مروان من قبله أن يكون مجيئهما إلى دمشق ـ عاصمة بنى أمية ـ بعد مصادفة من أروع المصادفات دون أن يسبق ذلك منهما أى قصد أو أى تدبير بعد أكثر من أربعين عاما أمضياها وأسرتهما فى المدينة المنورة فى شبه عزلة عن كل الأحداث ٠٠ ثم يكون مجيئهما إلى دمشق بعد ذلك ارغاما لا اختيارا بداية نضال عنيف ٠٠ لم يكن فى حسبانهما قط وكان نضالا فى نفس الوقت خيرا كله بالنسبة لهما ٠٠ وخيرا كله بالنسبة للأمويين !

جاء مروان إلى دمشق مهاجرا أو منفيا ٠٠ بعد أن أوشكت دمشق يوم جاءها مروان أن تبايع لابن الزبير ٠٠

جاء مروان إلى دمشق ·· فى فترة يأس ، وفى فترة اضطراب ظلت تعيشهما دمشق منذ موت يزيد ·· وتنازل ابنه معاوية ·· فما أسرع ماتغير الأمر ·· وما أسرع ما بويع لمروان !! كان ذلك فى أواخر عام ٦٤ هـ ثم يشاء الله أن يموت مروان فى العام التالى « رمضان ٦٥ هـ » ويتولى الخلافة ابنه « عبدالملك » ·· ومن هنا يكتب التاريخ صفحته الجديدة الرائعة عن الدولة الأموية ·· ولنستمع الآن للمؤلف :

يقول الدكتور ضياء الدين الريس :

فى غرة رمضان من عام ٦٥ وجد « عبدالملك بن مروان » نفسه خليفة ·· أقبل عليه زعماء بنى أمية ، وأمراء الجنود ورؤساء القوم ، فسلموا عليه بالخلافة فى « دار الخلافة » بدمشق بدأت - اذن - خلافة عبدالملك فى مستهل رمضان من عام ٦٥ هـ وهو الموافق عام ٦٨٥ م ·

● ● ●

فمن هذا الخليفة ·· الذى جلس على عرش الخلافة فى دمشق فى ذلك التاريخ ·· واليه آلت المسؤوليات الضخمة ؟ من هو عبدالملك ؟ ··

فأما نسبه - فهو عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ، بن عبد مناف ·· وفى عبد مناف يجتمع عبدالملك بن مروان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب ·· فعبد مناف هو ابوالهاشميين والأمويين جميعا لأن هاشما هو ابن عبد مناف ·· وأمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ·· فأمية هو ابن اخى هاشم وهاشم عمه ·· فمن هذا يعرف مابين الفرعين الكبيرين ، من وثيق القربى فهما أبناء عمومة ، وكانت هذه القربى جامعة بينهما ، ملحوظة ومراعاة فى الجاهلية فيما عدا أنه كانت توجد أحيانا منافسة بينهما ·· فالذى كان حاصلا بينهما هو منافسة فى سبيل الشرف كما توجد عادة بين فروع اسرة كبيرة لم تبلغ مبلغ العداء ·· ولم تصل إلى الحرب ·· وقد كتب كثيرا عن الخصومة بين الفرعين ، وبولغ فيها حتى صور ما بينهما بحالة عداء مستحكم ، مقرون بعواطف الحقد والبغض

والمرارة وليس هذا صحيحا ·· ولا يتفق مع واقع التاريخ ·· وانما هو قراءة للتاريخ الماضى فى ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترقيب الزمنى ، وهو من الأخطاء المعروفة فى تصوير التاريخ ··

وقد وقف بنو هاشم وبنو أمية جميعا جنبا إلى جنب فى حرب الفجار ·· وقاتلوا اعداءهم ·· وقف بنو عبد المطلب بن هاشم إلى جانب أبناء أمية بن عبد شمس حتى نالوا الظفر ··

لكن الاسلام أتى بظروف وأحوال جديدة افترق فيها الفرعان من أجل العقيدة ، ثم التأما ، ثم فرقت بينهما عوامل السياسة كما تفرق دائما وفى كل عصر بين الأحزاب والأسر ، لكن الفرعين لم ينسيا ابدا - برغم الاختلاف - التقاء أصلهما فى عبد مناف · وكان الشعور بذلك عاملا حاسما فى كثير من المواقف السياسية ·

وكان « مروان » ابو عبد الملك قدم المدينة المنورة فى عام ٢٤ هـ وبقى فيها وأسرته فلم يبرحها الا لرحلات موقوتة - وذلك حتى سنة ٦٤ هـ أى قضى فيها أربعين سنة من حياته فيعتبر اذن من أهل المدينة والحجاز ·· وكان مروان من رجال قريش ، وكان من اقرأ الناس للقرآن ·· وكان أهم حادث شهده - وهو لايزال فى فتوته - حادث الفتنة أو الثورة على عثمان وذلك فى اواخر عام ٣٥ هـ وقد كان بعض أسباب هذه الثورة يتعلق بمروان نفسه وكثير من التهم التى سيقت ليست ثابتة أو جوهرية ويظهر ان مروان - وهو فى عنفوان شبابه - كان يقابل الناس بالشدة ويصادمهم فيزيد من ثائرة غضبهم ·· وقد دافع مروان دفاعا مجيدا عن عثمان فى يوم وقعة الدار عند محاصرته وقاتل قتالا شيدا ليصد المهاجمين الذين اقتحموا الدار ·· وهذه المعركة أظهرت مروان فى دور الفروسية ، وبرهنت على شجاعته وقوة شكيمته ونبل وفائه ··

وقد ولاه معاوية واليا على المدينة فى سنة ٤٢ هـ ولبث واليا حتى سنة ٤٨ هـ ·· ولم يعينه « يزيد » فى ولاية ما طوال عهده وحين حدثت مأساة الحسين كان مروان وعبد الملك بعيدين خارج الحكم والولاية وهما

مقيمان بالمدينة فلم تكن لهما اية علاقة بهذه المأساة ٠٠ وكانت علاقة مروان وعبدالملك بعلى بن الحسين علاقة طيبة ٠٠ وفى عام ٦٤ هـ هاجر مروان إلى الشام مع من هاجر اليها من بني امية الموجودين بالمدينة ٠٠ خرج مروان وعبدالملك وآل بيتهما فى رحلتهم هذه مهاجرين ٠٠ وهم يظنون انهم ذاهبون الى منفى : الى مغترب وعزلة وكان مروان بالذات وقد بلغ من السن عتيا يفكر انه ذاهب ليقضى الفترة الباقية من عمره فى هدوء ، وما دروا حينئذ ـ كما كانت ستبين لهم الأيام ـ انهم ذاهبون ليخوضوا معتركا سياسيا لم يشهدوه من قبل وأنهم ذاهبون ليعطيهم أهل الشام الدولة والخلافة والملك ٠٠ وأنهم ذاهبون ليسجلوا صفحات فى تاريخ العرب والاسلام ٠٠ وليصنعوا تاريخا جديدا ٠٠ فبعد ستة أشهر فقط من قدومهم بويع مروان بالخلافة وأجلس على عرش دمشق فى المكان الذى كان يجلس عليه معاوية الخليفة الكبير وابنه الخليفة الآخر ٠٠ وقام مروان فى المدة الباقية له ـ وهى أقل من عام ـ بأعمال مجيدة ٠٠ انتصر فى موقعة حاسمة ، وبعث جيوشا إلى العراق والحجاز ٠٠ وضمن انتقال العرش لأولاده فعقد البيعة لهم ، فكل شىء كان ممهدا لتولية عبدالملك ٠٠ لقد كان آخر عام فى حياته على الاطلاق ٠ ! ومع ان خصوم مروان وبيته ـ وهم كثير فى عصره وما بعده ـ وبخاصة الشيعة وانصار بنى العباس ـ وضعوا أحاديث واخبارا مكذوبة ترمي إلى الطعن فى مروان وأبيه وذريته ـ فان أحاديث مروان وعبدالملك رويت فى كتب الحديث الصحيحة ٠٠ وعد مروان فى الطبقة الأولى من التابعين ، وعبدالملك فى الطبقة الثانية واستشهد ائمة الاجتهاد بأعماله ٠٠ وشهد لهما المؤرخون بالعدالة ٠٠

وقد ولد عبدالملك بالمدينة فى عام ٢٤ هـ فى شهر رمضان بالتحديد ، وكان هذا العام هو أول عام فى خلافة عثمان التى بدأت فى المحرم من ذاك العام ٠

كان عبد الملك ـ وهو أول من سمى بهذا الاسم فى الاسلام أول فرد من الأسرة يولد فى بيئة إسلامية كاملة ٠٠ من بيت شمله كله الاسلام ، من أب مسلم وأقارب مسلمين ، لم يدرك لحظة من الجاهلية ، فكانت نشأته ـ اذن ـ منذ لحظة مولده نشأة اسلامية محضة ، وأجمع معاصروه ثم المؤرخون فيما بعد على أنه كان أيضا مثالا ممتازا فى العبادة والنسك طوال حياته فى المدينة ٠٠ قضى عبد الملك أربعين عاما فى المدينة منذ ولد فيها ـ ٢٤ ـ ٦٤ فلم يبرحها الا لزيارات موقوتة فهو مدنى اذن وينبغى ان يعتبر من أهل المدينة ٠٠ وكانت المدينة لاتزال عامرة بعدد غير قليل من الصحابة ، وعدد أكثر من التابعين ، فكانت لاتزال المركز الأول للثقافة الاسلامية ، والمصدر الأول للتأثير الروحى ، واذا كانت قد فقدت كثيرا من أهميتها السياسية ، بعد انتقال العاصمة الى دمشق ، فانها مع ذلك لم تفقد أهميتها العلمية والروحية ، بل ان ذلك كان ادعى لأن تتفرغ لدراسة العلم وأداء رسالة الدين ٠٠ فكانت الفرصة ميسرة ـ اذن ـ أمام عبد الملك ـ وقد أهله ذكاؤه ٠٠ واستعداده ونشأته لذلك ان ينهل من هذا المورد السائغ الغزير وقد أفاد عبد الملك من هذه الفرصة الماثلة خير افادة ، ونهل من هذا المورد العذب ما شاء له جده أن ينهل ، وأكب على تحصيل العلم باجتهاد حتى نال من العلم بغيته وحتى وصل إلى مستوى شهد له فيه بالتفرد والنبوغ ، وعد من رجال المدينة المعدودين ٠

وقد تأثر عبد الملك فى نفس الوقت بالجو الروحى الذى عاش فيه فى المدينة ، ولاسيما فى بيئته الخاصة ، حيث كان يرى عثمان مثله الأعلى ، ثم أباه مروان ، ثم زيد بن ثابت الذى كان مستشار عثمان ، والذى قال عنه عبد الملك : « نعم المشير كان للاسلام » تأثر بهذا الجو حتى صار أيضا نموذجا فريدا من حيث العمل بأحكام الدين ، والتزام فضائله ، والعكوف على العبادة ، وشهد له أيضا بالنبوغ فى ميدان الخلق الكريم ، والاجتهاد فى العبادة ٠٠

واذا كانت أكثر الأقوال تشهد له بالتفوق فى هاتين الناحيتين ناحية العلم الديني والأخلاق الفاضلة فاننا نرى ايضا أنه حصل على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية ، كما تدل على ذلك خطبه فيما بعد ورسائله وقوته على نقد الشعر ومناقشاته فى مجالسه الأدبية مع العلماء والشعراء التى حفلت بها كتب الأدب والتاريخ ٠٠ قال الشعبى : ما ذاكرت احدا الا وجدت لى الفضل فيه ٠٠ الا عبدالملك بن مروان فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه ٠٠ ولا شعرا الا وزادني فيه ٠٠ والشعبى هو عالم العراق ٠٠ وقال هو أيضا : « وفدت على عبدالملك فما أخذت فى حديث أرى انه لم يسمعه الا سبقني اليه وربما غلطت فى الشىء ٠ وقد علمه فيتغافل عنى تكرما ! » ٠

وكان عبدالملك يوصى بنيه ان يحفظوا لغة العرب وقال انه لايلى العرب الا من يحسن كلامهم !

وسطر « ابن خلدون » حكمه على عبدالملك فقال : وعبدالملك صاحب ابن الزبير اعظم الناس عدالة ٠٠ وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله ، وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن « ابن الزبير » وهم معه بالحجاز ٠٠ وفى موضع آخر قال ٠٠ « فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبدالملك » !٠

ولما كانت هذه صفات عبدالملك ٠٠ فانه نال اعجاب من رأوه حتى فى حداثته ، وتنبأ له البعض بما يكون من مستقبله ٠ وانه سيصل الى مراتب السيادة ٠

● ● ●

وقد بقى فى المدينة حتى بلغ أربعين سنة ، ثم اضطر هو وأسرته إلى الهجرة إلى الشام فى ربيع الآخر عام ٦٤ هـ عند حدوث الفتنة ، واضطراب الأمر بالشام وظهور عبدالله بن الزبير بمكة والحجاز ، وأمره باخراج بنى امية من المدينة ٠٠ فوصل عبدالملك إلى دمشق فى التاريخ المذكور : رجلا ناضجا ، كامل الثقافة ، كثير التجارب ولم يكن يدرى

ماذا يكون مصيره ومصير أسرته فى هذا المغترب ، ولكن الله وحده كان يعلم أنه بعد ستة اشهر فقط سينعقد مؤتمر « الجابية » ويقرر بالاجماع انتخاب « مروان » أبيه خليفة على المسلمين ٠٠ وتقوم بذلك دولة آل مروان بدمشق ٠٠ ويكون عبدالملك العضد الأيمن ، والوزير لابيه ، فى أثناء خلافته ، فيعينه نائبا عنه فى دار الخلافة حينما خرج لفتح مصر ، ثم يعقد البيعة بالعهد له عند عودته فلا يلقى الا قبولا وموافقة من الناس وذوى الحل والعقد ، ثم يعينه أميرا على فلسطين ولو أنه لم يبق فى ذلك الا مدة قصيرة ٠

ثم لاتكاد تمضى عشرة أشهر فقط على قرار مؤتمر الجابية حتى يختار الله أباه الى جواره ٠٠ ويصبح عبدالملك فيجد نفسه خليفة الاسلام والمسلمين ٠٠ وصاحب الدولة فى دمشق ، وذلك بعد سنة فقط وبضعة اشهر من قيامه من المدينة منفيا ، يواجه الصحراء الفسيحة ٠٠ ويواجه المجهول !

ولم تكن دولة (آل مروان) تتألف ، عندما تولى عبدالملك الخلافة فى رمضان عام ٦٥ هـ الا من الشام ومصر فقط اما بقية أجزاء الدولة الاسلامية فقد توزعتها طوائف وأحزاب مختلفة ، وكان هناك أكثر من جبهة ، وأكثر من خصم يواجهون عبدالملك منذ اللحظة الأولى ٠ كانت الدولة مفككة منهارة أو شبه منهارة ، وكان الأعداء المتربصون بها كثيرين وكانت مأساة قتل الحسين بن على رضوان الله عليه فى عهد يزيد ابن معاوية قد أدمت قلوب المسلمين وهزت مشاعرهم فى كل الأنحاء وكان طبيعيا ان يزيد هذا من حرج الموقف امام عبدالملك ولو انه لم يكن له ولأبيه مروان علاقة بهذه المأساة من قريب أو بعيد ٠٠

وقد استطاع عبدالملك بشخصيته القوية ومواهبه الفذة ان ينقذ الموقف وان يقضى على كل الخصوم وان يعيد للدولة ما كان لها من قوة وما كان لها من بأس ، كل ذلك خلال سنوات معدودة ٠٠ فما كاد عام ٧٤ هـ يحل حتى انتهى النزاع حول الخلافة واجتمعت كلمة الأمة

وسمى الناس هذا العام « عام الجماعة » وهو عام الجماعة الثانى بعد عام الجماعة الأول عام ٤١ هـ حين اجتمعت كلمة الأمة على معاوية بعد تنازل الحسين بن على ٠٠

يقول المؤلف هنا : « ولاشك ان من أهم العوامل التى ساعدت عبدالملك على النجاح ، ودعت الناس الى الالتفاف حوله ، والرضا به ، والاقبال على مبايعته - على خلاف ما كان الحال مع غيره ، هو شخصيته ومعرفة الناس انه يتمتع بالصفات المتميزة التى تؤهله للزعامة ، وفى مقدمة ذلك ما عرف عنه من طيب النشأة ، وحسن السيرة والخلق واجتهاده فى العبادة والعلم ٠٠ ولانعرف ما يدل على ان هذه السيرة قد تغيرت بعد توليه الخلافة ٠٠ وان كان وقته قد أصبح مشغولا بشؤون السياسة والحرب والادارة أكثر من غيرها ولكن هذه ايضا خدمة للمسلمين ، وعبادة جليلة ، بل من أجل ضروب العبادة » ٠

ولم لم يكن لعبدالملك بن مروان من فضل الا أنه أنقذ الأمة من شرور الانقسام واخطار الحرب الأهلية - لكفاه ذلك من عمل مجيد يؤهله لأن يدرجه التاريخ بين العظماء الذين أسدوا أجل الخدمات لأممهم ٠٠ لكن عبدالملك كانت له أعمال اخرى مجيدة - أيضا - وهى تؤكد أهليته لأن يضعه التاريخ فى تلك المرتبة الرفيعة ٠٠ فمن ناحية نهض عبدالملك بهمة وحزم ٠٠ ليستأنف الفتوحات التى توقفت طويلا منذ بدء الفتنة والنزاع الداخلى فأثمرت جهوده أن ضمت إلى الدولة أقطار هامة صار لها شأن فيما بعد فى تاريخ العروبة والاسلام ؟ ونعنى بها بلاد الغرب بعد ان كاد الروم يحولون بين الدولة ٠٠ فعبدالملك ابن مروان هو صاحب الفضل فى اتمام تحرير هذه البلاد ، وطرد الروم منها نهائيا ، وفتح الطريق لنشر الاسلام ، واللغة العربية فيها واستقرارهما ، كما أثمرت جهوده ايضا أن أعادت للدولة - بصفة عامة - كامل قوتها أمام الأعداء فاستردت هيبتها ومركزها ، وبذلك أوجد العوامل وهيأ

الوسائل للتمهيد لفتح اقطار اخرى كبيرة سيتم ضمها فى عهد خلافة ابنه « الوليد » ثم العهود التالية ..

ومن ناحية اخرى امر عبدالملك بتنفيذ اصلاحات داخلية كان من شأنها دعم المقومات التي تقوم عليها الدولة ، وأهم هذه الاصلاحات أمران : الأول : تحقيق الاستقلال المالى للدولة وسيادتها الاقتصادية ، وذلك باصدار عملة عربية لها - بدل اعتمادها على النقود الأجنبية - والثانى : جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة ، وابطال استخدام اللغات الأجنبية فى الدواوين ..

ان مكانة « عبدالملك بن مروان » فى التاريخ تحددها الجوانب الرئيسية التالية :

أولا : انه حفظ الدولة وثبت دعائمها ومكنها من البقاء والاستمرار ..

ثانيا : أنه حقق وحدة الدولة ، وعمل على تقويتها وجعلها تسترد مكانتها وهيبتها وسيادتها على الاعداء كما كانت أو أكثر .

ثالثا : انه وسع حدود الدولة فأضاف اليها أقاليم جديدة وأهم ماتحقق فى هذا الشأن فتوحه فى بلاد المغرب ، فأصبحت من ذلك الحين جزءا لايتجزأ من الدولة العربية ! .

رابعا : وضع أساس السيادة الاقتصادية للدولة باصداره العملة العربية ..

خامسا : حفظ أحد المقومات الكبرى للدولة بتحويله جميع الدواوين الى اللغة العربية .

وقد استمرت الدولة - بعد ذلك - محتفظة بهذه المميزات والمقومات والأسس ، حتى بعد أن انتهى عهد الدولة الأموية ، وذلك بعد نحو نصف قرن فان الدولة العباسية انما قامت - أيضا - على هذه الأسس واحتفظت بهذه المقومات ، وكانت استمرارا للدولة الأموية من حيث القواعد الجوهرية ولولا إقامة عبدالملك للدولة على أسس ثابتة

واعادة قوتها وروحها وتدعيم نظمها لما أمكن لبنى العباس ان يقيموا دولتهم ويحفظوها ، ويسيروا بها إلى أن أوصلوها الذروة التى بلغتها ··

● ● ●

كان قوى الارادة ، ثابت العزم ، يصر على الوصول الى غايته مهما كان فى طريقه من عقبات ومهما حاول المترددون ان يثبطوا من همته ، وكانت الشجاعة لديه موفورة ·· وهاتان الصفتان : قوة الارادة والشجاعة فى مقدمة الصفات التى تشترط للقيادة والزعامة ، فلا يصلح لقيادة الأمم ورياسة الدول الا من كانت متوفرة فيه هاتان الصفتان ·· وكانت تصاحب هاتين الصفتين ـ أو هى فرع عنهما ـ صفة عبر عنها القدماء فى تحدثهم عن عبدالملك بأنها : « الحزم » ويقصد بها الثبات فى مواجهة المواقف ، واتخاذ القرارات ، والبت فى الأمور دون تردد ولذلك قالوا : « كان معاوية أحلم ، وعبدالملك أحزم » وبذلك شهد له ابوجعفر المنصور ·· فقال : « كان عبدالملك أشدهم شكيمة وأمضاهم عزيمة » فاذا أردنا أن نجمع هذه الصفات كلها فى واحدة ونجعلها صفة نعبر عن شخصية عبدالملك ـ قلنا ان الصفة التى نستخلصها من تصرفات عبدالملك وأعماله وسياسته هى :

القوة ·· فالقوة هى الطابع العام لشخصيته : القوة فى الارادة والعزم والسلوك والتنفيذ ، وقد كان الموقف الذى وصلت اليه الامة والدولة فى ذلك الوقت ·· يتطلب رجلا له هذه القوة النفسية ·· ليحل الأزمات والمشاكل بقرارات نهائية يتخذها وينفذها بقوة الارادة والاصرار والحزم ·· وهكذا تمكن عبدالملك بن مروان من حل جميع المشاكل التى كانت امامه ·· فحين ترك الدولة لابنه الوليد تركها هادئة ·· خالية من المشاكل والتعقيدات ·· فكانت أمور الحكم في عهد الوليد تسير فى بحر مستقر ، وجو هادىء ولذا امكن ان تتم فى مدته أعمال عظيمة ··

وقد كان من نتائج صفة القوة ان عبدالملك كان شديدا فى سياسته ، وهذه الشدة كانت موجهة ـ بصفة خاصة ضد المخالفين والعصاة ، أو من يحتمل أن يكونوا كذلك وقد ظهرت هذه الشدة فى معاملته لأهل العراق فلا شك ان عبدالملك أوصى عامله الحجاج حين أرسله الى العراق ان ينهج منهج الشدة ·· وتدل على ذلك خطبة الحجاج وكان الأمر يقتضى ذلك لتخاذل أهل العراق عن الدفاع عن وطنهم والدولة ضد الخوارج ودأبهم على العصيان ·· لكن الحجاج استمر فى هذه السياسة وجعلها قاعدة بعد انتهاء مقتضيها فأدت الى عكس ما يراد منها ··

·· على اننا يجب أن نفرق بين الشدة والقسوة ·· وبينها وبين الرغبة فى التسلط أو النزوع إلى الاستبداد فقد كانت شدة عبدالملك بعيدة عن هذا ، وانما كان نوعا من الحزم لمنع الفتن أو قمعها وكان رائدها المحافظة على سلامة الدولة وطاعة القانون ·· لكننا نرى ان شدة عبدالملك كان يمتزج بها ـ بصفة عامة ـ الحكمة ·· كما يتجلى ذلك فى توصيته للحجاج أن يكف عن العلويين ·· وان يجنبه دماء آل أبي طالب ·· ولذا لم يحدث فى عهد عبدالملك شىء يثير الرأى العام بل انه احسن معاملة آل على وآل العباس وقد كان هذا من بواعث الاستقرار فى عهده وعهد ابنه الوليد ·· بل اننا اذا تعمقنا فى فهم شخصية عبدالملك نتبين أن شدته كانت ظاهرية وأنها كانت مجرد اتخاذ موقف حازم من المخالفين والعصاة لأن الضرورة العملية كانت تقتضى ذلك أى انها كانت سياسة فرضتها أو تفرضها الظروف والأحوال القائمة ·· أما حقيقة شعور عبدالملك فانه كان يميل إلى العفو والمسالمة والود ·· فنرى من ذلك أنه كان يفرض الأمان على أعدائه قبل بدء القتال وفى اثنائه ، ويكره قتلهم ·· ثم يعز عليه مصيرهم ·· كما حدث مع مصعب وعبدالله ابن الزبير وكما حدث أيضا من عفوه عن أخيه وأبناء عمرو بن سعيد وأسرته ثم وصله لهم وبره بهم ، وأمثلة عفوه عن خصومه كثيرة ·

وكانت تصرفات عبدالملك وأعماله وسياسته توحى كلها بأن صاحبها رجل موفور العقل أو « محشو عقلا » وأنه سديد الرأى تملي عليه تصرفاته الحكمة ، وآية ذلك ضبطه لعواطفه وقدرته على العفو ونسيان الماضى بما كان فيه من أذى واضرار ، وآيته انصافه حتى لأعدائه فلم تحمله خصومته لمصعب أو عبدالله بن الزبير ـ أو غيرهما ـ أن ينال منهم ٠٠ بل كان يعطيهم حقهم ويثنى عليهم ٠٠

ومما يشهد بقوة عقل عبدالملك ما حدثت به الأنباء ان عبدالملك كان اذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق قال له أعفنى من أربع ، وقل بعدها ما شئت : لاتكذبني ، فان الكذوب لا رأى له ولاتجبنى فيما لاأسألك ٠٠ فان فيما اسألك عنه شغلا ولاتطرينى فاني أعلم بنفسي منك ٠٠ ولا تحملنى على الرعية فانى الى الرفق بهم أحوج ٠

أما من حيث أسلوبه فى ادارة الدولة فانه كان يشرف على الأمور بنفسه ٠٠ وكان يرجع اليه دائما فى الأمور الهامة ٠٠

وجاءت الأخبار بما يدل على أن عبدالملك بن مروان كان حريصا على أن تكون النزاهة من أولى صفات عماله وولاته ٠٠ فقد روى المدائنى وغيره انه بلغ عبدالملك ان بعض عماله قبل هدية ٠٠ فأمر باشخاصه اليه ٠٠ فلما حضر قال له : أقبلت هدية مذ وليتك ؟ ! فقال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ٠٠ ورعيتك على أفضل حال ٠٠ قال : أجب عما سألتك ! قال : نعم قد قبلت ٠٠

فقال عبدالملك : « لئن كنت قبلت هدية لا تنوى أن تعوض المهدى لها ٠٠ انك للئيم ، وان كنت قبلتها لتكافىء المهدى من مال المسلمين ، أو لتقلد رجلا من عملك مالم تكن لتقلده اياه قبل الهدية ـ انك لخائن ! وان كنت نويت تعويض المهدى عن هديته من مالك فقد فعلت ما جلب لك التهمة ، وبسط فيك لسان معامليك وأطمع فيك سائر مجاوريك ـ فانك لأحمق ! وان من أتى أمرا لم يخل فيه من لؤم ٠٠ أو خيانة أو حمق ٠٠ لحقيق الا يصطنع « أى لايستخدم » ثم عزله ٠

وكان عبدالملك أديبا عالما ٠٠ على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية ٠٠ فكان يحب الأدب والشعر ، وفى أوقات فراغه يعقد المجالس الأدبية فى حضرته ـ وسجلت بعض كتب الأدب أو التاريخ هذه المجالس ، وبينت كيف ان عبدالملك كان هو الذى يشرف على المجلس ، وينتقد ما يلقى عليه من الشعر انتقادا دل على ذوق أدبي رفيع ، وذكاء لماح وبراعة فى النقد ٠

وقد رأينا الأدلة على أنه كان يكرم الشعراء ويجزيهم ويحسن صلاتهم ٠٠ لكنه كان يكافىء « الممتازين » وليس كل من يفد عليه للسؤال ٠٠ ولم يسرف فى ذلك ٠٠ لأنه ـ كما عبر فى مناسبة ـ كان يرى أن الأموال العامة حق للدولة ، ولذا نسب اليه بعضهم البخل ممن لم يظفروا بنواله ٠٠ لكنه فى الحقيقة لم يكن بخلا ٠٠ ولكن اقتصادا وموازنة بين الأمور ٠٠ لتصرف أموال الدولة فى الوجوه التى تستحق ٠

ووصل عبدالملك إلى عام ٨٦ هـ والأمور مستتبة والدولة مستقرة ، ولم يعد هناك ثورات ولا خلاف ، وكل شيء يسير فيها بانتظام وفى رمضان من ذلك العام كان قد مضى عليه في الحكم ـ أى على كرسي الخلافة واحد وعشرون عاما فمرض مرضه الأخير وكان قد بلغ من العمر اثنين وستين عاما ـ ثم كانت وفاته فى يوم الخميس للنصف من شوال عام ٨٦ هـ ٠





الوليد بن عبد الملك

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

ظاهرة جميلة جدا فى عالم التأليف اليوم هو ما نراه من عناية ملحوظة بأدب التراجم ، واحتفاء بالغ بتاريخ الأعلام ٠

ومن الجدير بالذكر ان يكون لأعلام العرب نصيبهم فى هذا المجال موفورا يتمثل فى الكثير من الدراسات التاريخية المركزة يعالجها بالاسلوب الحديث نخبة الكتاب والباحثين ٠

والحق ان كتابة التراجم أصبحت اليوم فنا متميزا ٠٠ يعتمد اول ما يعتمد على الدراسة الموضوعية ٠٠ والنقد والتحليل ٠

وما اكثر ما تناولت الدراسات المعاصرة اشخاصا مرموقين قاموا بأهم الادوار ومع ذلك كاد الاهمال الطويل يضفى على اعمالهم وشخصياتهم - رغم تفوقهم ! - حجابا كثيفا من النسيان ، ولعل الخليفة الأموى **العمراني** ، كما يوصف - وكما يوصف بحق - ونعنى به الوليد بن عبدالملك بن مروان الثالث من الخلفاء آل مروان ، والسادس من خلفاء أمية ٠٠ لعل الوليد يأتى فى أوائل الشخصيات البارزة الاسلامية ٠٠ ممن أهملهم مؤرخونا القدامى ، فلم يفردوا لواحد منهم سيرة حياة يشملها - كتاب مستقل - يصور شخصيته واعماله للناس ٠٠ وما أشبه الوليد من هذه الناحية بأبيه العظيم عبدالملك ابن مروان ٠

عبدالملك ·· الذى لم تظفر المكتبة العربية بكتاب يترجم لنا حياته فى اطار مستقل سوى أخيرا منذ عام أو أكثر من عام عندما ظهر ـ فى سلسلة أعلام العرب ـ أول كتاب ·· يتحدث عن ثانى مؤسس ·· وثانى رجل ـ بعد معاوية ـ فى تاريخ الامويين ! ··

وكتاب ـ الوليد بن عبدالملك ـ للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، وهو من سلسلة أعلام العرب أيضا يعتبر ـ فى الواقع ـ متمما لكتاب ـ عبدالملك بن مروان ـ للدكتور ضياء الدين الريس ·· والذى سبق أن عرضنا له فى الفصل السابق ··

والحق ان سيرة الوليد نفسها منذ أن تبوأ عرش خلافة دمشق ·· امتداد لسيرة ابيه عبدالملك ولئن اعتبر التاريخ عبدالملك ، المؤسس لحكم آل مروان بل الرجل الذى اعاد لبنى أمية بصورة عامة قيادتهم للدولة ، وزعامتهم للحكم فى نفس الوقت الذى أعاد فيه للدولة الاسلامية وحدتها وهيبتها وشوكتها على نحو ما كانت عليه زمن معاوية ـ رضى الله عنه ـ فالوليد ـ لاشك ـ هو الموطد لدولة ابيه ·· وأكثر من ذلك ·· ما كان له من الأثر ـ بعد ان استقرت الدولة فى أيامه ـ فى اعادة عهد الفتوح ·· حتى لقد وصف المؤرخون عصره ، بانه عصر الدور الثالث للفتوحات الاسلامية ولم يكن اثر الوليد فى نواحى الاصلاحات الشاملة ، وبخاصة الناحية العمرانية ، بأقل من أثره فى امتداد الفتوح !

● ● ●

وتتحدث المؤلفة فتقول : ولى الوليد خلافة الدولة الاسلامية وعمره يزيد على الثلاثين قليلا أو كثيرا ، فمنح الدولة من شبابه الكثير واستفاد الوليد كثيرا من مجهودات ابيه « عبدالملك » ولم ينس ان ينوه بفضله على الدولة منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة فاستفاد من السلام الذى بدأ يسود الدولة بعد أن أمضى عبدالملك بن مروان معظم خلافته فى القضاء على الفتن والحروب الداخليه التى كادت تمزق الدولة

الاسـلاميـة شر ممـزق ٠٠ كمـا انـه اقتفى اثـر ابيـه فى الاصـلاح والتعمير ٠٠ بل انه اعتمد عـلى الرجال الذين اعتمـد عليهم ابوه ٠٠ والمعروف ان عبدالملك مهد للفتوحات الواسعة التى تمت فى عهد ابنه الوليد ٠٠ وهكذا نرى الوليد يستفيد من مجهودات ابيه فى تعمير الدولة الاسلامية ، وفى تعريبها ، وفى نشر نفوذها ، وليس غريبا ـ اذن ـ ان نرى ما تم على يدى الوليد الشاب فى مدة لاتعدو العشر سنوات قد تعجز الدول عن الوصول اليه فى قرون عديدة ٠٠ ثم تتحدث عن ادارة الدولة وسياستها المالية فى عهد الوليد فتقول فيما تقول :

اعز الاسلام العـرب ، ووحد كلمتهم ، وخلق منهم العـظماء فى الحرب والسياسة والادارة وخرج العرب من شبه جزيرتهم يفتحـون البلاد شرقا وغربا واصبحوا يكونون الارستقراطية العسكرية فى جميع البلاد التى فتحوها ٠

ثم تقول : ولعل براعة العرب السياسية تجلت فى ادارتهم للبلدان والاقطار المفتوحة فقد فتح العرب بـلادا راقية فى نـظمها متقـدمة فى حضارتها ، فأبقوا على تلك النظم ٠٠ ولم يحـاولوا ان يزاحمـوا اهل البـلاد المفتوحـة فى اراضيهم الزراعية ، أو فى أعمـالهم الصنـاعيـة والتجارية أو فى وظائفهم وانمـا اكتفى العرب بشغـل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا على الادارة بوجه عام ٠٠ وتمضى المؤلفة فى حديثها فى هذا الصـدد ٠٠ إلى أن تقـول : وكان أكثـر الخلفاء الامـويين يقتلون العامل إذا اتضح لهم ظلمه أو اشتطاطه فى تقاضى الخـراج والجزيـة والصدقات ولم يكن بين هؤلاء الخلفاء وبين رعيتهم حجاب ، فكان حكم الامويين لايزال ديمقراطيا ، وقد اعطى الامويون لعمالهم سلطانا واسعا لادارة ما عهد اليهم به حتى يسرعوا فى البت فى مصالح الناس ، وعمران البلاد ، وفى فض الخصومات والمنازعات ٠

وتوسـع الامويون فى اعطيات وارزاق عمالهم ، وكان ذلك نتيجة لورود المال إلى خزينة الخلافة من البلاد المفتـوحة ، والحق ان نـظام

الامويين الادارى والمالى كان استمرارا لنظام الخلفاء الراشدين ٠٠ كما انه كان متمما لهذا النظام نتيجة للظروف التى وجد فيها ٠٠ وهو فى الوقت نفسه ممهد للنظام الادارى والمالى العباسى ٠٠

●●●

وتتحدث فى الفصل الرابع عن الحجاج واستعانة الوليد به فى اقرار الامن فى شرق العالم الاسلامى ، ثم فى توسيع الدولة العربية شرقا وتصفه بأنه من أقدر الرجال الذين ظهروا فى تاريخ الدولة العربية ٠

ونحن مع المؤلفة الفاضلة فى الاعتراف بكفاءة الحجاج ٠٠ وما اسداه من خدماته لعبد الملك ثم لابنه الوليد بل لا ننكر ايضا انه نجح فى اقرار الامن فى عصر كان يعج بشتى الاضطرابات الداخلية بل ولا ننكر ايضا اثره فى توسع الدولة وفى امتداد الفتوح ولكنا مع ذلك لانستطيع ان ننكر قسوته البالغة ٠٠ وطغيانه الشديد وما كان من اثر ذلك فى الاساءة إلى سمعة الامويين انفسهم ، وما اكثر ما وجه اليه عبدالملك ـ الخليفة الاموى النافذ البصيرة والبعيد النظر ـ ما اكثر ما وجه إليه عبدالملك بن مروان من رسائل اللوم والتأنيب فى مختلف المواقف والمناسبات ٠

وتنتقل المؤلفة فى الفصل السادس الى بحث العصبية القبلية فى العصر الاموى وما كان من ابتعاد كل من عبدالملك وابنه الوليد عن صراعها ٠٠ فقد استطاعا ـ كما تقول المؤلفة ـ ان يسيرا دفة الدولة بعيدا عن تيارات العصبية القبلية ٠٠ ولو ان هذه العصبية ما لبثت ان استعر اوارها بعد وفاة الوليد ٠

ثم تنتقل المؤلفة فى الفصل السابع لتتحدث عن دولة عربية مترامية الاطراف ، توطدت دعائمها للمرة الثانية فى العهد الاموى على يد عبدالملك ٠٠ وما جناه الوليد من ثمرات مجهودات ابيه فى توطيد الحكم والقضاء على الفتن الاهلية ٠٠ الامر الذى دفعه إلى أن يستأنف عهد الجهاد ، ونشر النفوذ العربى الاسلامى فى مناطق جديدة لم تصلها

جيوش العرب من قبل ، وهى تقرر ان عصر الوليد يعتبر « عصر الدور الثالث » للفتوحات ٠٠ على اعتبار ان الدور الاول للفتوحات الاسلامية وهو الدور الذى تم فيه فتح العراق وفارس والشام ومصر وجزء من شمال افريقية كان فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - اما دور الفتوحات الثانى وهو الدور الذى امتد فيه سلطان العرب إلى خراسان وآسيا الوسطى شرقا وإلى شمال افريقية غربا وإلى عمان على ساحل الخليج العربى فقد كان فى عهد معاوية وعبدالملك بن مروان !

● ● ●

وتقول المؤلفة : « كان عصر الوليد هو عصر الدور الثالث للفتوحات العربية ٠٠ وقد بسط العرب سلطانهم فى عهده على اكبر بقعة من العالم حينذاك ٠٠ وكان اتساع الفتوحات فى أيام الوليد هو أعظم اتساع بلغته الفتوحات العربية فاضاف إلى دولتهم اقليم ماوراء النهر وحوض السند ، ووصل العرب إلى حدود الصين وكذلك ثبت العرب اقدامهم فى شمال افريقية ، وفتحوا اسبانيا وحاولت الدولة العربية الوصول إلى القسطنطينية « عاصمة الدولة البيزنطية » » من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ، وكانت رغبة العرب فى نشر الدين الاسلامى بالاضافة إلى رغبتهم فى توسيع نفوذهم السياسى ، واعلاء كلمة الله من أكبر العوامل التى ساعدت على هذا التوسع وجعلت العرب يلاقون نجاحا اثر نجاح ، والراجح ان الامويين كانوا يعتقدون أن نشر الدين الاسلامى وتوسيع نفوذهم شيئان لايتعارضان ٠٠ بل هما مرتبطان أشد الارتباط فكان عصر الدولة الاموية هو عصر سيادة العروبة وسيادة الاسلام ، وكان عصر الوليد بن عبدالملك هو عصر امبراطورية العرب الواسعة ، إذ تضاعفت فى السنوات العشر من حكم الوليد مساحة الدولة كما دخلت تحت سلطان الاسلام شعوب جديدة من ترك ، وهنود وبربر واسبان ٠

وفى الفصول الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر ٠٠ تتناول المؤلفة بالبحث موضوع العلاقات بين العرب والروم وما كان من امرها فى عهد الوليد ٠٠ ثم الدواوين وتعريبها وهو ما بدأ به عبدالملك ـ على ماهو معروف ـ وقد سار الوليد على سياسة ابيه فى ذلك ٠٠ ففى سنة ٨٧ هـ أمر واليه على مصر « عبدالله بن عبـدالملك » بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالقبطية ٠٠ فجاء هذا العمل فى عهد الوليد تتمة لما بدأه الخليفة عبدالملك فى سياسة التعريب ٠٠

والواقع ان هذا التعريب كما تقول المؤلفة كان اول عملية ترجمة منظمة وجبارة وقد أدى الى نقل كثير من المصطلحات الفارسيه واليونانية والقبطية إلى العربية ٠٠ وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بـين الموالى فـأصبحت اللغة العـربية لغـة الدواوين كذلك اصبحت اللغة العربية لغة الادارة ، فضلا عن انها صارت لغة الثقافة ، بالاضافة إلى انها لغة السياسة والدين ٠

كان الوليد أعظم الخلفاء الامويين اثرا فى العمارة والفنون ٠ وقيل ان النـاس فى دمشق كانـوا يتحدثـون فى عهد سليمـان عن الطعـام والشراب ، وفى عهد عمر بن عبدالعزيز عن الدين والقرآن ٠٠ وفى عهد الوليد عن الفنون والعمران ٠٠

والواقع ان الوليد سار على نهج سياسة ابيه وسياسة الامويين فى العناية بالعمائر والفنون ، ويشيد المؤرخون والادباء القدماء بذلك مثل « اليعقوبى » و « الطبرى » فى تـاريخيهما و « الثعـالبى » فى « لطاف المعارف » وابن فضل الله العمرى فى مسالك الابصار ، و « القلقشندى » فى صبح الاعشى ، ويؤيد ما ذهب إليه المؤرخون والادباء النقوش الاثرية التى ترجع إلى عهد الوليد والآثار التى لاتزال إلى يومنا هذا ٠٠ واعظمها الجامع الاموى فى دمشق ، والاوراق البردية التى ترجع إلى عهد الوليد ، والدراسات القيمة الحديثة التى قـام بها علمـاء الاثار مثـل دراسات الاستاذ « كريزول » والدكتور « زكى محمد حسن »

كذلك يذكر المؤرخون أن الوليد كان مغرما ببناء الجوامع وامتلاك الضياع وكان الناس فى أيامه يسيرون سيرة خليفتهم ويحرصون على التشييد والتأسيس ، ويولعون بالضياع والعمارات لوفرة الثروة فى أيديهم ويروى ان احد عمال الوليد بن عبدالملك كتب إليه ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخمس ٠٠ فكتب إليه ان يبنوا المساجد ، كذلك اجرى الوليد على العميان واصحاب العاهات والمجذومين وجعل لكل واحد خادما ، كذلك كان يهب أكياس الدراهم لتفرق فى الصالحين وزاد الوليد الناس جميعا فى العطاء وخاصة اهل الشام ٠٠ ويذكر « الطبرى » ان الوليد كان عند أهل الشام افضل خلائفهم : بنى المساجد : مسجد دمشق ، ومسجد المدينة ، واعطى الناس وقال لا تسألوا الناس : وكان الوليد أول من أمر بتشييد المستشفيات لذوى الامراض المزمنة والمستعصية ٠

● ● ●

وعنى الوليد بتجديد الكعبة فى مكة وتوسيعها ، كذلك عنى بتجديد المسجد النبوى فى المدينة ، ولم تكن المساجد التى شيدت فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ترمى إلى أكثر من جمع المصلين فى مكان واحد فكان مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة مساحة من الأرض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر ، وعلى جزء منها سقف من جريد النخل تغطيه طبقة من الطين بالاضافة إلى عدد من جذوع النخل وزاد عمر بن الخطاب فى هذا المسجد وجدده عثمان بن عفان ، لكن العمارة الكبرى التى جعلته مثالا للمساجد فى العصور التالية ، هى التى تمت على يد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك فى سنة ٨٧ هـ او سنة ٨٨ هـ ٧٠٧ م وقد أشار اليها البلاذرى فى « فتوح البلدان » بقوله : « ثم لم يحدث فيه شىء إلى أن ولى الوليد بن عبدالملك بن مروان بعد أبيه فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز ، وهو عامله على

المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام فبناه ، وزاد فيه » ولم يكن المحراب المجوف معروفا فى المساجد قبل عصر الوليد ، وحين اعيد بناء مسجد المدينة فى عهده ·· عمل له محراب مجوف ، كذلك ذاعت المنابر فى العصر الأموى ·· اما ابدع العمائر الاموية فكان المسجد الجامع فى دمشق ، وكان هذا الجامع الاموى من اجل واعظم مابنى فى عصر الوليد ·· ففيه آيات للفن العربى البديع ، وفيه معان لعظمة العرب وتفوقهم وغلبتهم فى كافة الميادين ·· والحق ان المؤرخين ، والأدباء افاضوا فى وصف هذا الجامع الاموى حتى قيل ان الزائر لهذا المسجد يرى فيه كل يوم شيئا جديدا ، لم يره من قبل ·· من حسن صنائعه واختلافه ·· وقد اعجب بهذا المسجد كل من رآه من مشرق ومغرب ، والحق ان النفقات التى قيل انها انفقت على بناء هذا المسجد لاتكاد تذكر بجانب هذا الفخر للعرب وبجانب هذه العظمة البالغة فى العمارة والفنون ، وبالرغم من هذه النفقات الباهظة فان المصادر تجمع على ان الوليد لم يظلم احدا ، ولم يغبن عاملا فى أجر ··

● ● ●

ومن امتع ما تناولته المؤلفة بالبحث فى فصلها الحادى عشر ـ والاخير ـ دراستها للحياة العقلية فى عهد الوليد والعصر الاموى بصورة عامة وهى فى ذلك تقول : شهد العصر العباسى ازدهار الحياة العقلية عند المسلمين ·· ولكن اسس هذه النهضة وضعت فى العصر الاموى ·· وكانت مراكز الحياة العقلية فى العصر الاموى البصرة والكوفة ومكة والمدينة ودمشق والفسطاط؛اما البصرة والكوفة فقد افادتا من **موقعهما** الجغرافى وكانتا من اهم الامصار العربية الاولى التى كان العرب يتخذونها قواعد عسكرية يوجهون منها جيوشهم للفتوحات ، ومراكز لادارة الاقاليم التى يفتحونها ، فازدهرت فيهما الحياة

الاقتصادية ازدهارا كبيرا ، واستقر فيهما عدد كبير من الموالى حتى لقد قيل ان عدد سكان كل منهما زاد على مائة الف نفس ٠٠

وقام فى البصرة والكوفة مدرستان ، او مذهبان فى النحو والأدب العربى ولم تكن العناية بالصرف والنحو يقصد بها تعليم العربية للموالى فحسب ، بل قصد بها مقاومة تفشى اللحن وانتشار اللهجات التى كانت تبتعد تدريجيا عن اللغة العربية الفصحى ٠٠ وظهر فى البصرة أبو الاسود الدؤلى الذى ينسب اليه وضع النحو والمتوفى سنة ٦٩ هـ ـ ٦٨٨م ـ كما عنى الفقهاء فى البصرة والكوفة فى العصر الاموى بدراسة العلوم الدينية والاسلامية ولاسيما الحديث والفقه ٠٠

وبدأ تدوين التاريخ فى العصر الأموى بسبب الحرص على جمع الأخبار الخاصة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واعلام الصحابة ، وحوادث الفتوحات والرغبة فى الالمام بأخبار الاشخاص ، والامكنة الواردة فى القرآن ، والشعر القديم والعمل على اثبات انساب العرب لتقرير مايفرض لهم من العطاء ، فضلا عن حرص بعض الموالى على تدوين اخبار ملوكها وحضارتها قبل الاسلام ، وحرص العرب من اهل اليمن على الاشادة بحضارة بلادهم فى الجاهلية فضلا عن ان حاجة الشعر الى عناصر الفخر والهجاء كانت تقتضى معرفة اخبار الاوائل ، ومآثر القبائل ومثالبها ٠٠ وكان تدوين اخبار الفتوحات لازما لاثبات ما فتح من البلاد عنوة ، وما فتح منها صلحا لان لكل منها حكما فى النظم المالية ٠٠ وهكذا تألفت « الاخبار » فى فجر الاسلام من السيرة النبوية واخبار الفتوح والمغازى ، فضلا عن اخبار الجاهلية وانساب العرب ٠٠ ولكن التاريخ كان فى فجر الاسلام فرعا ثانويا من علم الحديث ، وتأثر باساليب المحدثين ، فى جمع الروايات التاريخية واسنادها ، غير انه لم يخضع بعد ذلك لكل ما خضعت له الاحاديث النبوية من نقد الناقلين ، وهو ما يسمى « الجرح والتعديل » فضلا عن انه لم يخضع لنقد

الروايات التاريخية نفسها ، وكانت عنايته باخبار الاشخاص اعظم بكثير من عنايته بدراسة المجتمع واحواله ٠

● ● ●

ووضعت فى العصر الاموى اسس كثير من الحركات الفكرية التى ظهر اثرها فى الحياة العقلية الاسلامية ، ولاسيما فى العصر العباسى ٠٠ واعتنق بعض النساطرة الاسلام كغيرهم من علماء المسيحية ، وبدأوا مع بعض المسيحيين فى نقل الكتب اليونانية الى العربية ٠٠ واتجه بعض الامراء الامويين الى البحث العلمى مثل خالد بن يزيد بن معاوية ويروى انه اشتغل بالكيمياء ، او علم الصنعة والطب وتعلمهما على كاهن من الاسكندرية ، ثم نقلت له بعض الكتب العلمية من اليونانية والقبطية ، وانفق خالد بن يزيد اموالا كثيرة فى دراسة الكيمياء العلمية ٠٠ ولاشك ان العرب عنوا بعلم الطب ٠٠ وكان من اطباء البلاط الاموى الطبيب النصرانى « ابن اثال » طبيب معاوية ٠٠ وعكف الطبيب الفارسى الاصل « ماسرجويه » فى خلافة مروان بن الحكم على ترجمة كتاب فى الطب عن السريانية فكان اول كتاب علمى بلغة العرب ٠

أما الوليد بن عبدالملك فانه عنى بالمصابين بالامراض المزمنة ورتب لهم من يعنى بأمرهم ٠

وكان للوليد الفضل بذلك فى انشاء اول مؤسسة صحية فى الاسلام ٠

● ● ●

ولم يعرف المسلمون فى العصر الأموى المدارس بالمعنى الحديث ، لكن الخلفاء كانوا يرسلون ابناءهم إلى البادية لتعلم العربية ، كما كان بعضهم يختار لابنائه مؤدبا او معلما ، وكان الاغنياء يفعلون ذلك ايضا ، وغدا المؤدب فى عهد عبدالملك بن مروان فى جملة حاشية البلاط ٠٠ وكان مقياس التعليم عندهم ان يكتب الرجل العربية ويقرأها

ويتقن السباحة والرماية ٠٠ وكانت المدارس الاولى فى الاسلام منذ عصر الخلفاء الراشدين وفى عصر بنى امية هى المساجد ٠٠

ثم تشير المؤلفة ـ اخيرا ـ فى خاتمة كتابها إلى ماتميز بـه عهد الوليد بن عبدالملك بن مروان فى شتى النواحى السيـاسية والاداريـة والاقتصادية والاجتماعية والفنية والحربية وترى انـه لم تكن ظروف

واحوال الدولة العربية حينذاك هى التى توجه الوليد فقط ٠٠ وانما كان للوليد اعظم الاثر فى توجيه معظم الاحداث الهامة انذاك إلى ان تقول : « وكان عهد الوليد عهد اصـلاح وتعمير وانشـاء ، واهتمام بشـؤون الرعية ، كذلك كان عهد الوليد عهد عظمة وتفوق فى الفنون العربية ، وكان الوليد بن عبدالملك اعظم الخلفاء الامويين اثرا فى البناء ولا يزال الجامع الاموى فى دمشق يشير إلى عظمة هذا الخليفة العـربى وكان سلطان الوليد قويا ، وحكومته مهابة ٠٠ وسار الوليد على هدى سياسة ابيه عبدالملك الذى وضع نفسه فوق المنازعات القبلية ، واستطاع الوليد مترسما خطوات ابيه ، ان يسير دفة الدولة العربية على شاطىء الامان بعيدا عن مكامن الخـطر على الدولة ، والتى كـانت تتمثل فى حـركات

الخوارج والموالى ٠٠ وفى العصبية الاقليمية بين العراق والشام ، وفى العصبية القبلية التى انبعثت بعد موقعة مرج راهط ٠

واستأنف الوليد عهد الجهاد ، ونشر النفوذ العربى فى منـاطق جديدة لم تصلها الجيوش العربية من قبل ، او لم تثبت اقدام العرب فيها بعد ٠٠ وقد بسط العرب فى عهده سلطانهم على اكبر بقعة من العالم القديم حينذاك ٠٠ وكان توسع العرب فى ايام الوليد هو اعظم توسع بلغوه ، واتصل العرب بالثقافات الهندية والايرانية والتركية والمغولية ، والصينية ، وكان الوليد هو القائد الاعظم لهذه الفتـوح الرائعة التى حملت معها العروبة والاسلام ، والتى خطت بأهل البلاد المفتوحة قرونا

الى الامام والتى نتج عنها انتشار الحضارة الفذة التى غذت اوربا فى عصور ظلامها ، ولسنا نبالغ اذا قلنا ان عصر الوليد يمثل اوج مجد الامويين ٠



الخليفة الزاهد

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

الخليفة الزاهد ، عمر بن عبدالعـزيز ! كتـاب ٠٠ ألفه بـاحث معروف ، له العديد من المؤلفات فى التاريخ الاسلامى ٠

ولقد كانت سيرة الخليفة الزاهد ! عمر بن عبدالعزيز ، منذ أول العصور موضع عناية الكتاب والباحثين ٠

وقيل عنه بحق : « أعدل الخلفاء الأمويين ! »

وقيل عنه بحق : « خامس الخلفاء الراشدين ! » ٠

ولم يكن العدل وحده سمة عمر بن عبدالعزيز !

لقد كان لسبط ابن الخطاب ٠٠ سمات أخرى كثيرة ٠٠ غير ما اشتهر به من عدالته المثالية ٠٠ كان الورع والتقوى والزهد ٠٠ وكان العلم والفقـه كل ذلك ممثـلا فى اسمى صورة ، وفي أجمـل مثال ، فى شخصية عمر ٠

فى عهد الخليفة الأموى الراشد عمر بن عبدالعزيز ازداد اقبال الناس على الاسلام من جميع الأنحاء التى فتحها المسلمون ، ولم يكن هذا ناشئا عن رهبة ، أو قسر ٠٠ وانما لما رآه أهل هذه الأقـطار من انسانية الحكم ٠٠ ومثالية الحاكم ٠٠

وقد كان الخوارج أعنف جبهة معارضة للحكم الأموى منذ أن قام ٠٠ غير أن الخوارج ما لبثوا ـ منذ أن جاء عمر ـ أن أقلعوا عن نشاطهم ، وتخلوا ـ رغم عنجهيتهم ـ عن خصومتهم بعـد أن رأوا ما رأوه من نزاهة عمر ٠٠ وتحريه للحق ٠٠ وزهده وورعه وتقواه ٠٠

وحارب عمر الفقر والمرض ·· فيما حارب ـ وحارب الجهل وكان أكبر حاث على العلم ·· ومشجع لنشر التعليم ·· والمؤلف الفاضل ، يحدثنا عن كل ذلك فى أسلوب رصين ·· يبدأ حديثه أول ما يبدأ عن مولد عمر وعن نشأته فى المدينة ·· فى احضان اخواله آل الخطاب ، وتلقيه للعلم ، وروايته للحديث عن خاله « عبدالله بن عمر » وعن أبيه « عبدالعزيز بن مروان » وعن سعيد بن المسيب وغيرهم ·· ثم زواجه من ابنة عمه فاطمة بنت عبدالملك بن مروان ·· ويحدثنا عن اعجاب « عبدالملك » بابن أخيه الشاب ·· ثم ما كان من أمر ولايته للمدينة ·· ثم عزله منها ونزوحه الى الشام ، وما كان من مواقفه بعد ذلك مع كل من الوليد بن عبدالملك ، وأخيه سليمان ، واختيار سليمان أن يكون الخليفة من بعده : عمر بن عبدالعزيز !

ولم يكن عمر راضيا عن اختياره للخلافة · ولم يقبل المنصب الا بعد ما رأى من اصرار الناس جميعا ـ سوى بضعة أفراد على البيعة اماما للمسلمين ·· يتحدث المؤلف عن كل ذلك فى افاضة وشمول : ولقد وقف عمر يخطب فى الناس ـ بعد مبايعته ـ فقال :

« أيها الناس انى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، واني قد خلعت مافى اعناقكم من بيعتى ·· فاختاروا لأنفسكم ! » ·

ودهش الناس لما قال .. وأخذتهم الحيرة وكادوا يضطربون فقام رجل من الأنصار فقال : يا أمير المؤمنين : ابسط يدك أبايعك ! وفيما كان الأنصارى يبايع عمر أول من بايع .. كان الناس يصيحون فى المسجد راضين وكارهين : قد اخترناك ورضيناك ، فل أمرنا باليمن والبركة .

فلما هدأت الأصوات ، ولم يبق من معارض حمد الله واثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل من خلف ، فأعملوا لآخرتكم ، فانه

من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم وان من لايذكر من آبائه ـ فيما بينه وبين ادم ـ أبا حيا لمعروق فى الموت ·· وان هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل ولا فى نبيها ولا فى كتابها ، وانما اختلفوا فى الدينار والدرهم ·· وانى والله لاأعطى احدا باطلا ، ولا أمنع احدا حقا » ·· ثم رفع صوته فقال « يا أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ·· أطيعوني ما أطعت الله فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » ·

ثم نزل فاستقرت له الخلافة منذ ذلك اليوم وكان يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ·

كان أول عمل قام به ـ قبل دفن سليمان ـ ان بعث بثلاثة كتب واحد منها إلى مصر بعزل « اسامة بن زيد » صاحب صدقات مصر الذى حلب الدر حتى انقطع ، والدم حتى انصرم وكان غاشا ظلوما ·· معتديا فى العقوبات يقطع الأيدى فى خلاف ما يؤمر به ، ويشق أجواف الدواب فيدخل فيها القطاع ويطرحهم فى جنوب مصر للتماسيح ·· فأقسم عمر ليكونن أول عمله لو تولى الأمر أن يعزل اسامة بن زيد عن صدقات مصر ، وبر بوعده لله فعزله ، وحط المظالم عن أهلها ، وأراح أكبادهم ··

ومضى الكتاب الثاني برجوع مسلمة بن عبدالملك عن بلاد الروم ·· فقد كان يذوب مع جند المسلمين تحت وطأة الروم ذوبان الثلج تحت شمس الصيف ويكاد الجيش يفنى ولا يرجع منه احد ·· وكان مسلمة أشرف على فتح القسطنطينية برا وبحرا وكاد يلج ·· لولا أن خدع عنها ، وأحرز العدو طعامه وحوائجه وأغلق أبوابها دونه وبلغ خبر النكبة سليمان فغضب اذ خدع مسلمة وحلف الا يرجعه منها حيا ·· فاشتد المقام على المسلمين وهلكوا وأكل الناجون منهم لحوم الدواب ، ولج سليمان فى التصعيب عليهم ، وكان ذلك يغم عمر فلما ولى لم يسعه

فيما بينه وبين الله أن يؤخر قفولهم ساعة ، فذلك الذى حمله على تعجيل ذلك الكتاب ٠٠

ومضى الكتاب الثالث بعزل يزيد بن ابى مسلم عن أفريقيا لأنه كان جبارا يظهر التأله ٠٠ ويشتط فى النفاذ ، مما جل أو صغر ، بالجور ومخالفة الحق ، وكان رجلا مختلطا متناقضا يأمر بتعذيب من يعذبه وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ٠٠ شد يا غلام موضع كذا ٠٠ لا اله الا الله والله أكبر : شد يا غلام موضع كذا وكذا ٠٠ لبعض مواضع التعذيب ـ فكانت حاله تلك شر الحالات فكتب عمر بعزله فى ثالث كتاب ٠

ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة ، فاقتلع جذور الباطل ، وطمس معالم الغرور ، ونوى أن يفنى المال المجموع ويضيع العقار الموروث ، ويبدد القطائع الموهوبة لا ليزهد زهادة تفقره وتفقر أهله ، ولاتغنى الناس ٠٠ ولكن ليرد الحق الى نصابه ، ويعيد العدالة الى مجراها ، ويوضح من معالم الاسلام ما طمسته الخطوب فى الأذهان ٠٠ وانه لماض مثقل بأوزار غلاظ تصعب على كل تطهير ولكن عمر صمم أن يطهر الأرض مهما زلزلت فى يده ٠٠ ولو قدر أن يطهر بدنه من سموم الطعام الذى أكله من قبل ٠٠ وأن يمحو من الهواء نفحات الطيب التى نفحت فيه منه ـ لو قدر أن يفعل ذلك وأن يصهر شحمه ٠٠ ويذيب عظمه ٠٠ لفعل !!

وكان من أوائل أعماله عزله للولاة الظلمة ٠٠ قال سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب حين استشاره عمر بن عبدالعزيز فى العمال ٠٠ ولايمنعك من نزع عامل ان تقول لا أجد من يكفينى عمله ٠٠ وانك اذا كنت تنزع لله وتعمل له أتاح الله لك رجالا وجاءك باعوان ٠٠ وانما العون من الله على قدر النية ، فاذا تمت نية العبد تم عون الله ٠

وكان قد مات الحجاج بن يوسف ، ولكن ظلمه لم يمت ٠٠ وخلفاؤه مايزالون يلون البلدان ، وصليل سيوفهم مايزال يقعقع فى الأذان ٠٠ فانشأ عمر ـ فى سرعة واستعجال ـ بعزل الولاة الذين

ظلموا ، وسفكوا الدماء ، فعزل كل رجل ولغ فى دماء المسلمين ليهدىء النفوس ، ويريح الجنوب ، وحرضه قول سالم بن عبدالله فقيه المدينة ، فأمر بعزل كل ظالم وان كان ذا قرابة لأمير المؤمنين ! ونفى أهل بيت الحجاج ٠٠ الى اليمن ، ولم يستعمل احدا منهم على سلم أوحرب ليأمن مكرهم ٠

●●●

واستطاع عمر ان يغير من نفسه كل مظاهرها وعاداتها سوى مشية « التبختر » العمرية التى كان يمشيها صبيا ، وواليا بالمدينة ، فقد صارت له ديدنا ، وقد حاول حين استخلف ان يغيرها فلم يستطع ، فطلب من « مزاحم » مولاه ان يعاونه وينبهه كلما مشاها الى ان يغيرها ٠٠ فجعل مزاحم يراقبه ويدله ، ثم يرجع فينسى ، ويخلطها ثم لايستطيع فيرجع اليها ومازال بها حتى أوشك ان يغيرها قليلا ، فصارت كمشية الرهبان ٠

قال علي بن جذيمة : رأيته فى المدينة وهو من أحسن الناس لباسا ، ومن أطيب الناس ريحا ، ومن أخيل الناس فى مشيته ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان ٠

وكان عمر ماضيا قدما لايتأخر ولايتلوى ، اخذ يتعالى في صفاته ويسمو ، وينزل عن عادته في السمو والتعالى ما كان يزداد عاما بعد عام الا فضلا ، ولكن الذكريات كانت تمر به فيضاهىء بين ماضيه وحاضره ٠٠ فيحن لنعماه التي مضت حنين المودع ، الذى لايرجو ان يعود ٠

كان يضاهىء بين عيشه فى المدينة ومصر ، وعيشه الأول بالشام ، وبين عيشه اليوم ٠٠ فيقول : أين عيشنا اليوم من عيشنا اذ كنا بمصر ! لقد رأيتني وكنا لو ضافنى أهل قرية لوجدت ما يعمهم ! واين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ؟ !

ومر يوما بزوجته فاطمة بنت عبدالملك بن مروان ٠٠ فضرب على

كتفها وقال : يافاطمة ! لنحن فى ليالي دابق أنعم منا اليوم فقالت له : والله ماكنت على ذلك أقدر منك اليوم ! فأدبر عنها وله حينئذ حنين ·· وهو يقول : يافاطمة ! اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ··

وكان حب العدالة والانصاف ركيزة فى نفس عمر ، وميلا فى دمه ورثه من جده عمر بن الخطاب ولكن عوامل أخرى تظاهرت عليه ، وأحاطت به ، فقهرته على أن يفعل للعدالة مالم يفعل لها من قبل ·· وكان أقوى هذه العوامل التى نشأت حوله ابنه عبدالملك ! ·

ظهر ابنه عبدالملك هذا فى هبوب العاصفة ، فبعث فيها عنفا وقوة ، وكان عبدالملك اعجوبة تاريخ ، ونادرة فلك كان ناشئا لم يجاوز العشرين من عمره ولم يلحق بها ، ولكنه نشأ منذ صغره قوى الايمان كأنه حوارى لنبى أو انصارى لرسول ·· فجعل الفتى الزاهد يقتحم على أبيه مجلسه ، ومخدع نومه وقيلولته ، يحثه ، ويعظه ، ويوقظه ، **وينبهه** الا يؤخر مظلمة للناس مخافة أن يحم الأجل ، فتسوء المغبة ·· وتلتهب على جسد أبيه النار ··

وكان كلما ترفق عمر ·· عنف عبدالملك وكلما دخل عمر فى الأمور على هنة اقتحمها عبدالملك قويا مستعجلا ومازال الصبي بأبيه يزعجه ويدعوه ·· حتى بدا عبدالملك كأنه هو الذى أدخل أباه فى العبادة ·· وقد شاهد أهل الشام بأعينهم حالى عمر قبل الخلافة ·· وبعدها ·· فقال بعضهم : كنا نرى أن عمر انما ادخله فى العبادة ما رأى من ابنه عبدالملك !

هذا الولد الخير البار مازال يذيب بدنه الزهد ويضنيه حتى ذبل وذوى ·· ثم مرض مرض الموت ، ولم يبلغ التاسعة عشرة من عمره ، ففرح لأنه يوشك ان يقضى ! ودخل عليه أبوه يعوده وكان يحبه حبا جما – فقال له : كيف تجدك يابنى ؟ فكتم عبدالملك مابه مخافة أن يحزن أبوه فقال : أجدنى صالحا ·· ولكن الأمر لم يغب عن عمر ، وكان يعلم استبشار ابنه بالموت فقال له : اصدقني عن نفسك يابنى ، فان احب

الأمـور إلى فيك لمـوضـع القضــاء فقال عبـد الملك : أجـدني فى المـوت فاحتسبني فثواب الله خير لك مني ، فحطم الولد قلب ابيه ، ثم مضى عمر وهو يقول يابنى لأن تكون فى ميزاني احب الى من أن أكون فى ميزانك وذهب يصلى ، فأقبل عليه « مزاحم » يخبره بموت عبد الملك ٠٠ فخـر عمر مغشيا عليه ٠٠ ولم يمت عبد الملك بن عمر حتى احتدم أتون أبيه بالغض للمظالم فلم تعد لقوة ان تطفئه او تخمد ناره وزحفت قوى الرجل كما تزحف قوى الجيش اللهام تأكل ما أمامهـا ولاتشبع ٠٠ فعـدها المسلمون كأيام أبى بكر حين حارب أهل الردة ! والعلم والفقه والذوق الأدبي والغنائي ٠٠ كل أولئك قد أربى فى عمر احساسه وأرهفه ـ ففرغ للمظالم التى أصابت الناس ولم يكن لرجل بلغ درجة الاجتهاد ان يقف من المظالم موقف من لايعلمها ولا يتأثر بها ٠٠ ولئن وقف بعض الفقهاء يفتون ضد المظالم فحسب لأنهم لايملكون لها ردا فان عمر حين جمع فى برديه نفس الفقيه ، ونفس الحاكم المسؤول ، كان لابد له أن يرد ثم لم يكن لرجل رق ذوقه ، ونبغ فنه حتى صنع الألحان ليطابق بها ما في نفسه من معان سامية ٠٠ ما كان له الا يحس المظالم من حوله ! ولكن عمر ـ مع ذلك كله ـ ظل طويلا لايدرى غير الفقه الأصغر ٠٠ الذى يعرف الناس به المسائل والقضايا والأحكام ، ثم يتصدرون بمعـرفتهم لفتيا الناس فيما يلتبس عليهم وليس لهذا الفقه من قيمـة حتى لو سبق به صاحبه اراء الفقهاء والعلماء مـالم يخفق به خفقـان الشاعـر ٠٠ أو القديس ، وتعمل النفس له عمل الأنصار والحواريين ! ٠٠

وصحبة الناس حظ وقدر وتنقية واختيار ٠٠ وقد رزق الله عمر رجالا اعانوه على النهج : وطبعوه حتى تطبع ، وجدهم ابدا حوله وفى طريقـه ، ووجدهم فى المـدينة وفي مصر والشـام ، وجدهم فى الطفـولة والشبـاب والصبا والكهـولة واستجابت نفسـه لهم واستجابـوا له ، فتبادلوا تجارة المعـروف ٠٠ وكانت أقـرب حلقة أحـاطت به ، حلقـة مزاحم ، مولاه ، وسهـل أخيه ، وعبـد الملك ابنه ، وظلت هـذه الحلقة

تضيق عليه حتى بدت كأنها انفرجت بموت هؤلاء جميعا ، ولكنه ظل طول حياته حبيسا فيها ·· كأنهم أحياء !

وقد احسن عمر في استشارة النصحاء ففى استشارتهم حصافة ·· وهداية ·· فان المرء مهما كان حصيفا متمكنا فانه اذا انفرد لذاته ·· وتعقب غاية منافعه ضل وافتضح ، أو قصر فأخطأ ·· وذلك لأن محبة الانسان ذاته وتخوفه عليها من خطأ ينسب اليها يعرض له الدهشة والحيرة ، وذلك اذا لم يمل مع الهوى ·· فالرجل المميز الفاضل لايأمن أن يكون رأيه لنفسه من قبيل الهوى ، دون العقل ، فيضطرب فكره ، ولايصح رأيه لنفسه وأما اذا كان رأيه لغيره فهو سليم من الحالين معا ، فلذلك يأتى بالرأى الصحيح السليم ··

وقرب عمر العلماء اليه ·· وأبعد غيرهم من الناس ·· وحفلت سوق عمر بالمواعظ فأصبحت لاتحصى مواعظ العلماء والفقهاء والزهاد نثرا وشعرا ··

ولم يأت عمر الخلافة غافلا قد جهل الأمور ، ولكنه أتاها على قدر ومعرفة ·· قد خبرها عن قرب ، وعرف كل أحوالها وأعد لكل داء دواء ·· ولم يدع الأمور تجرى على سجيتها ·· وقد رأى منذ بدأ يحكم أن يستعين بصلحاء العمال ، ويستمع لمشورة الناس فيهم ، وكان لايولى الرجل حتى يختبره ظاهرا وباطنا ·· فاذا اطمأن له بعد الاختبار ، ولاه عاملا ، أو على الخراج والصدقات ، أو قاضيا أو قاصا ، أو صاحب بريد ، أو حرسيا أو معلما ، أو قائدا ، أو سيافا ، أو على الخاتم ، أو كاتبا ، وكل أولئك وغيرهم اختارهم عمر من أولى القسوة فى العدالة ، والرفق بالرعية ·· وهما امران لايتعارضان وقد ضمن باختبار الرجال ، واختيارهم أن يضع الرجل فى العمل الذى يصلح له ، وينتفع الناس به ··

وكان عمر غير خب ·· ولكن الخب لايخدعه ·· وكثيرا ما خاف ان يدخله الغش من مظاهر الرجال فجعل يتثبت ويدس على ذوى المظاهر

من يأتيه بخاصة اخبارهم ليثق بهم ، أو يزيفهم وقد كان عمر أول من زيف بلال بن أبي بردة ·· وكشف خبيئه ·· ثم طرده ، ولم يستعن به ولا بأحد من أهله فى عمل له ··

وبلال بن أبي بردة الكوفي كان رجلا داهية لقنا أريبا وكان كريم المظهر بادى التدين ، هذا كان مظهره ·· اما ما وراءه فنفس ذات ملق وطمع ·· وسرعة إلى الحمق والباطل ·· وفد هذا الرجل على عمر ابن عبد العزيز بخناصرة ·· فهنأه بالخلافة قائلا : من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرفته فأنت شرفتها ومن كانت زانته فقد زنتها ، وأنت والله كما قال مالك بن اسماء ؟

وتزيدين أطيب الطيب طيبا
ان تمسين ·· أين مثلك أينا ؟
واذا الدر زان حسن وجوه
كان للدر حسن وجهك زينا !

فشكر له عمر ، ثم خرج من عنده فلزم المسجد ، ولصق بسارية منه فجعل يصلى اليها ويديم الصلاة ·· فقال عمر للعلاء بن المغيرة ابن البدار : ان يكن سر هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراق غير مدافع ·· فقال العلاء : انا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعشاء ، فقال اشفع صلاتك فان لى اليك حاجة ·· ففعل فقال له العلاء : قد عرفت حالى عند امير المؤمنين فان انا اشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال بلال : لك عمالتي سنة ·· وكان مبلغها الف الف درهم - قال فاكتب لى بذلك ·· فانقلب بلال مسرعا إلى منزله فأتي بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ·· فأتى العلاء بالكتاب الى عمر فلما رآه كتب إلى واليه على الكوفة : « اما بعد فان بلالا غرنا بالله ·· فكدنا نغتر فسبكناه فوجدناه خبثا كله ·· والسلام » ·

وقد أبى عمر أن تجوز عليه حيل الدجالين ·· وطرق

المحتالين ٠٠ فجعل كلما بلغته حيلة دجال ، وخرافة محتال ٠٠ يتقصى احواله لئلا يصاب الناس بجهالة ٠

لقد دل عمر عماله على الطريق ، ومدهم برأيه ، وترك لهم حرية الرأى متى وثقوا من أنفسهم فعدلوا ٠

أقل ما يحدث من العدالة ان يسعد الناس ، او يحسوا أنهم سعدوا ٠٠ وان يستتب الأمن فى الأرض وقد حدث أن سادت العدالة فى مدة عمر ، وعم الأمن ، وانقطعت ظهور الناس ، ويئسوا من الظلم ٠٠ حتى ان الخوارج حين بلغتهم سيرة عمر وما رد من المظالم ٠٠ اجتمعوا وقالوا ما ينبغى لنا ان نقاتل هذا الرجل ٠٠ وجاء عمر يسوس الناس عن علم وخبرة ٠٠ وامتد بصره فى نظرة طويلة وتدبير محكم ، وجاءهم بعد الفكرة والنظر **بعقيدة** راسخة ٠٠ ونية على العمل ، واستجمع ، وجمع من حوله المشيرين ، والنصحاء ، وراح يستنصح كل من ظن فيه خيرا ، ولم يعف رجلا فى أقصى الأرض من الاستعانة به ، واستهدائه متى ظن فيه الخير ، وكان من بقية الناس ٠

تولى عمر الخلافة والناس على يأس من العدالة ٠٠ وما يستطيع سليب أن يطلب حقه ، وكان السعيد الموفق من رد عن نفسه الظلم ، أو تجنبه ، وكان اسعد من هذا حظا من غفل عنه السلطان واندرج فى متاهة المغمورين ، فلا تناله ظنة او شبهة فلما جاء عمر لم يكتف برد المظالم وانما اخذ يضع عن الناس السخرة التى كانوا يسخرونها فى المصالح العامة ، لأن عمر رأى فيها أمورا ظالمة فحطها عن كواهل المسخرين ٠٠

ومر الزمن يمضى ٠٠ وعمر يحن إلى المدينة ٠٠ قد علق قلبه بها ، ولم يتحول ٠٠ وأوصى بها الولاة وفرق على أهلها حقوقهم ، وما جاءه رجل منها الا سأله عن أهلها كافة الأشراف والتجار والمساكين والرجال والنساء ، ولقد جاءه رجل مرة ، فسأله عمر قائلا : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا ؟ فقال الرجل : قد قاموا يا أمير المؤمنين ، وأغناهم الله ! وكان من اولئك المساكين من يبيع الخيط

للمسافرين ، فالتمس ذلك منهم بعد ٠٠ فقالوا : قد اغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر ! ٠٠

● ● ●

ولما رد عمر مظالم أهل مكة ، وزارها ، ثم خرج ، مضى معه رجل مع من يشيعه ، وكان أحد الولاة حبسه وأخذ ماله غصبا ٠٠ واستحلفه الا يخاصمه أبدا ٠٠ فشكا الرجل إلى عمر قائلا : ظلمت ٠٠ ولاأستطيع أن أتكلم ! فأدرك عمر أنه أخذت عليه يمين ، فجاء بالوالي ونكف بالخيزران بين عينيه فى سجدته وقال له : هذه غرتني منك ٠٠ ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك ٠٠

كره عمر اللحن ، ومجاوزة الحق فى القول ، وكره جفوة الكلام ، ومن أجل اللحن كره الوليد ، ومن مجاوزة الحق كره الحجاج بن يوسف ، ومن الجفوة أخذ يؤدب الجافين ، ولا يستكتب واحدا منهم ٠٠ وقد دق ذوق الرجل للكلام ، لأنه حسب له حسابه فى أمور السياسة ، وأمور الاجتماع ، وكان انكبابه على علوم الدين والحديث والقرآن سبيلا لارهاف حسه اللغوى ، بين قوم من خالصة العرب كلهم مرهفون ٠

ولم يؤمن عمر بقول : لايحققه العمل ، بل كان يرى القول والعمل شيئا واحدا ، وانمَا احدهما بعض الآخر ٠٠ ومن لم يجعل كلامه من عمله كان مذنبا كثيرا الذنوب ٠٠

أما الكلام الحق ٠٠ فسماه عمر سحرا حلالا ٠٠ وأما هو فقد صدر عن نية صارمة وقلب صادق حين تكلم ولذلك سمعت آذان الناس فى مدته ومنه صوتا صارخا لم تسمعه من قبل الا فى صوت رسول الله (ص) وبعض أصحابه ، وحتى العظة الخالصة وقراءة القرآن كانت منه تثير القلوب والأشجان ٠٠ وقد خطب مرة بالقران فقرأ (اذا الشمس كورت) وكان يقرأها بصوت يبكي ، ودمع يثور ، فارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظنت حيطان المسجد كأنما تبكي معه ومع الناس ٠

ولما استوى عمر خليفة ٠٠ كان أول ما امر به ان منع الناس عن

سب على فى الخطبة على منابر البلدان ، وأثبت عمر فى مكان السب قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » .

واهتم عمر بنشر العلم فكتب إلى أهله أن ينشروه فى مساجدهم ، فان السنة كانت قد أميتت ، وخطب ذات مرة فقال : أيها الناس ، انما يراد الطبيب للوجع الشديد ألا فلا وجع أشد من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب .. ولا خوف أخوف من الموت .. !

وكانت دفعة عظيمة فى رسوخ أصول العلم حين خاف عمر غائلة النسيان فأوصى أن يقيد العلم بالكتابة مخافة الضياع لذلك قيل انه أول من دون الحديث ..

● ● ●

وكما اهتم عمر بعلوم الدين .. اهتم بعلوم الدنيا .. ولا سيما الطب لحاجة الناس إليه فى أول معاشهم وليس يخفف عن الناس أعباء الحياة الا اذا سعدوا بالعدل ، وتنوروا بالعلم ، وفى صحة أبدان ، وسلامة ايمان ، وكذلك كان عمر بن عبدالعزيز أول من حارب « فقر الناس » و « جهلهم » و « أمراضهم » وحاربهم بقوة فى مختلف بلاد المسلمين .. وكان عبدالله بن أبحر أو « ابن بحر الكناني طبيبا عالما ماهرا ، وكان يتولى تدريس الطب بمدينة الاسكندرية ، وصحبه عمر فى شبابه واستطبه ، وقد تأثر ابن ابحر .. بعمر فأسلم على يديه .. فلما صار عمر خليفة استعان بصاحبه واعتمد عليه فى تفريق علم الطب وتدريسه بانطاكية وحران وغيرهما من البلدان ، فانتقلت بذلك صناعة الطب اليوناني الى بلدان المسلمين وكانت لم تزل قوية زاهرة فى الاسكندرية .

وأكرم العلماء وبحث عنهم في كل مواطن وجعلهم سنده وأعوانه فى مجلسه وعلى عماله وقضاته وأرسل قوما كثرا منهم لنشر الاسلام والعلم ... وجعل لمن انقطع إلى القرآن والحديث نصيبا من بيت المال وفرض لمن فرغوا لنفسهم للفقه وحبسوها

فى المساجد عن طلب الدنيا لكل منهم مائة دينار قبضا عاجلا ٠٠ وقد كتب الى والي حمص ليغني أهل القرآن والحديث فلا يشغلون عنهما واجرى عمر علي المعلمين الأرزاق والأجور ٠٠ وتسارع الأغنياء يؤدون زكاتهم ٠٠ ولم تكن همة عمر بعد رد المظالم الا القسم فى الناس ٠٠ أما الأغنياء فحين رأوه مهتما بهذا القسم ٠٠ فقد تسارعوا من أنفسهم يؤدون الزكاة والصدقات ٠٠ ومنذ جاء الأغنياء بهذه الزكاة انفقت فى وجوهها من غير بطء ٠٠ فانه لانفع من زكاة ما لم تصل إلى أيدى الناس فى حينها حتى يسدوا حاجاتهم وشيكا ٠٠

ولم يكن أحب إلى عمر من أن يعم الاسلام بقاع الأرض ، وأن يهتدى به الناس ، مهما أصاب بيت المال من النقص والخسار وكان ملحا يطلب إلى عماله أن يدعوا أهل الذمة إلي الاسلام فاذا اسلموا وشكا العمال نضوب بيوت الأموال ، كتب اليهم يلومهم على الشكوى ٠٠ كتب عدى بن ارطأة إلى عمر : أما بعد فان الناس قد كثروا فى الاسلام وخفت أن يقل الخراج فكتب اليه : فهمت كتابك ووالله لوددت ان الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا ٠٠ وقد أخذ خراج مصر ينقص فى عهده لإقبال القبط علي الاسلام ، وكان خراجها فى عهد عثمان اثنى عشر الف الف دينار وفي عهد معاوية خمسة الاف الف ٠٠ ثم نقص في مدة عمر فاقترح والي مصر عليه الا يعفي الداخلين فى الاسلام من المصريين من الجزية ٠٠ فأبي عمر : وأرسل اليه يقول له قولته المشهورة :

« إن الله بعث محمدا ٠ هاديا ٠٠ ولم يبعثه جابيا !! » ٠٠

وكان هناك جماعة من البربر أسلموا من قبل على يد موسى بن نصير ، وتعلموا القرآن والفقه من العرب الذين كانوا مع موسى ٠٠ فلما تولى افريقية اسماعيل بن عبيد الله بن ابى المهاجر سنة مائة وكان على حربها وخراجها وصدقاتها وكان حسن السيرة فيهم : اسلم البربر جميعا ولم يبق أحد منهم الا أسلم ٠٠ وكان حتما مقضيا أن تدخل

أفـواج من النـاس فى دين الغـزاة الفـاتحـين حتى عـاملوا النـاس بالحسنى ٠٠ وكذلك استجاب كثير من امراء السند لدعوة عمر حـين دعاهم الي الاسلام وتسموا بأسماء العرب ٠٠ وأسلم ملك الهند نفسه سنة تسع وتسعين ، وأهدى إلى عمر هدية من المسك والعنبر والكافور وفيما وراء النهر دان كثير من الناس بالاسلام تلبية لدعوة عمر ٠

واستطرد بما عمل عمر ٠٠ اتساع رقعة الأرض التى ينتشر فيها الاسلام ، واستمر الصلاح يتسرب الى الأمة الاسلامية واتخذ العلم الديني والنبوى سبيله إلى الانتشار ، وسلمه إلي الارتقاء وسلمت الأمة من داخلهـا ، واستعدت نـواتها للبقـاء ٠٠ وللرقى ، اذ خصب لهـا الزمان ، وعمت العدالة وانطلقت أنفاس الحرية ٠٠ وأشعة الضياء ٠٠ ومات عمر فى أخريات رجب لسنة احدى ومائة ولخمس او ست أو عشر بقين من الشهر ٠٠ وتقدم للصلاة عليه الخليفة من بعده « يزيـد بن عبدالملك » ٠٠



داهية العرب
أبو جعفر المنصور
مؤسس دولة بني العباس

الدكتور عبد الجبار الجومرد

يصفه بحق مؤلف سيرته هذه الضخمة ، الدكتور الفاضل عبدالجبار الجومرد بأنه : داهية العرب : ومؤسس دولة بَنى العباس ، والواقع ان أبا جعفر المنصور هو المؤسس الفعلي للدولة العباسية ٠٠ ولئن كان اخوه السفاح ـ ابن الحارثية ـ هو أول خليفة عباسى فى عرف التاريخ فالمنصور ـ دون مراء ـ هو الذى أرسى دعائم هذه الدولة وأوجد فيها النظام ، وحد من نفوذ الشعوبية واستأصل جذور الفوضى وازال بحزمه ودهائه ومضاء عزيمته وبعبقريته السياسية ، كل عناصر الفتنة والاضطراب مما كان يثيره الشعوبيون وغيرهم من خصوم الدولة العباسية ٠

والمنصور فى هذا يشبه ـ تماما ـ عبدالملك بن مروان فى الخلفاء الامويين ٠٠ ويشبهه فى أن كلا منهما « مؤسس دولة » من طراز ممتاز ٠٠ ويشبهه فى الكثير من المزايا وفى الكثير من المؤهلات ٠ ! ولعل ما اتصف به كل منهما من غزارة العلم وعمق الثقافة الأدبية ، الى جانب الدهاء والعقل مع الشجاعة والخلق الكريم ، يضاف إلى ذلك الطموح الواسع لدى كل منهما إلى ماعرف عنهما من فراسة وخبرة تامة بالرجال ٠٠ كل هذه المواهب والخلال والصفات يكاد الرجلان

العملاقان : الأموى والعباسي يتفقان فيها تمام الاتفاق ، ولقد كانت الدولة التى أعاد لها عظمتها ورونقها « عبدالملك » مبعث حضارة ونهضة ومجد وعمران وتقدم إلى أبعد مدى فى أكثر من مجال ! ٠٠ وكذلك كانت الدولة التى انشأها المنصور ٠٠

والدكتور الجومرد ، العلامة المؤرخ العراقي المعروف ، هو أول باحث ـ فيما نعرف ـ يترجم لداهية العرب : مؤسس دولة بنى العباس ـ بتوسع وافاضة وشمول ! وقد اشتمل كتابه هذا على ستة فصول تحدث فيها فى سرد مرتب وتحليل دقيق عن أبي جعفر وأسرته ومولده ونشأته ، والأحداث التي واجهها عند قيام الدولة العباسية ثم عن خلافته وعمله فى توطيد أركان دولته فى الأعوام الأولي وعن شخصيته ٠٠ والطابع العربي لدولة المنصور ويتناول في آخر فصول الكتاب أنظمة الدولة وحضارتها فى خلافته ثم يتحدث عنه فى كلمة ختامية عن أيامه الأخيرة ٠٠ وسنعرض لبعض هذه الفصول من كتاب الدكتور الجومرد :

●●●

كان مولده فى قرية « الحميمة » فى شهر صفر من عام ٩٥ هـ وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ٠٠ تكنى فى شبابه بأبي جعفر ٠٠ ولقب فى خلافته بالمنصور فعرف من ذلك اليوم بأبي جعفر المنصور ، واشتهر به فى عالم التاريخ ٠

ولم نعثر على مصدر يخبرنا بالدقة ، كيف ربي هذا الطفل في أعوامه العشرة الأولى الا قياسا على أقرانه من أبناء الأسر العريقة عند العرب ، ويستنتج من أخباره فيما بعد أنه نشأ صحيح البنية ، نشيطا فى حركاته ، قوى العصب ، حاد الذكاء سريع الفهم للدرس ، واستيعاب المعاني ، ذلق اللسان قوى الحافظة ، ميالا إلى الجد فى طلب الفائدة العلمية ، مرهف الحس ، فيه أناة وصبر ٠٠ مع دعابة خفيفة ، تألفه

العين ويسترعي بجمال صوته وحلو حديثه الأسماع ، ويفرض على معارفه وذويه حبه وتقديره ٠

اندفع فى طلب العلم وتوسع فى دراسة اللغة والنحو واتسع فى علم التاريخ ، وباشر فى أخذ الفقه وكتابة الحديث وأحاط بما وقع فى يده من أقوال العرب وحكمهم وحفظ المهم من خطبهم البليغة ، واستظهر الكثير من اشعارهم وأراجيزهم ، وفهم معانيها واستوعب غريبها ، حتى قويت ملكته ، وصقلت سليقته فنظم الشعر ٠٠ وعذب بيانه فاجاد الخطابة وارتجلها ، وبلغ شأوا بعيدا فى ثقافته اللسانية ، ثم انصرف إلى الفقه والتشريع وجمع الحديث ورواه عن جده على بن عبدالله بن العباس كما تتبع علوم الفلك والنجوم فكان له نصيب فيها ، ومازال يدرس ويبحث عن الدرس حتى بلغ سن الكمال ، وقيل أنه واظب على طلب الفائدة العلمية حتى شغلته السياسة بأحداثها ٠

وبجانب نشاطه العلمي فى هذه المرحلة من حياته تلقى فنون الحرب والفروسية ٠٠ لقد تربى تربية عسكرية صارمة كمن كان يعد لأمر خطير شأنه فى ذلك شأن ابناء الأسر المرموقة فى المجتمع العربي ٠٠ ولاننسى هنا ما للبيئة والظروف المحيطة بالناشىء من أثر فى تكوين اخلاقه وتوجيه تصرفاته فى مستقبله وقد ورث أبوجعفر مزيجا من أخلاق امه وأبيه وهما من عصنرين مختلفين ٠٠ وعاش فى بيئة يغمرها الكثير من التناقض ٠٠ فالأم جارية متواضعة النسب ٠٠ ولم تكن حرة كأمهات بعض اخوته من هاشمية وحارثية من بني عبد المدان ٠٠ والأب سيد من سادات قريش ، وزعيم اسرة قريبة من مهبط الوحى ومنبع الرسالة ، فكان وضع امه يشعره بشىء من النقص بين إخوته وأقرانه ، فيحاول أن يسد ذلك النقص بما أوتي من همة وذكاء وعلم أو باندفاع غريب نحو المغامرات الجريئة ٠٠ وكان وضع والده يبعث فى نفسه الأمل والنشوة والاعتداد بالنفس ٠٠ ولم تكن الظروف التى أحاطت به وعصفت بجانبه أحداثها أقل تناقضا واختلافا من أصل منبته ٠

كل هذه المتناقضات وغيرها كانت تطوف فى مخيلة ابي جعفر فى صباه ونشأته ٠٠ فيفهم بعضها ويعجز عن فهم البعض الآخر ٠٠ ثم يسير فى طريقه ، وقد علق في نفسه منها ما علق حتى اذا كبر وشب عن الطوق لم يسلم من آثارها فى نفسه ٠٠ ولم يستطع ان يخفيها فى بعض تصرفاته فتراه قاسيا فى ناحية رحيما فى الأخرى ٠٠ سريع الغضب ٠٠ شديد البطش اذا استثير أو غمزت قناته ٠٠ سريع الرضا داني العفو اذا استرضى وارتاحت نفسه ٠٠ بخيلا الى حد الدانق فى بعض الأمور ، كريما جوادا فى بعضها الآخر ٠٠ هذا مع عقل ثابت ، ودهاء فطرى ، وعلم غزير ، وحزم بالغ مداه ، وصفات أخرى نتحدث عنها فى موضعها ٠٠

كان أبوجعفر سياسيا بعيد النظر ، من الطراز الرفيع كان على العكس من أخيه ابراهيم الامام ، وعندما قامت الثورة العباسية ٠٠ ضد الحكم الأموى ، كان من رأى أبي جعفر الا توسم ثورة العباسيين بالظلم والشعوبية ٠٠ فيكون أثرها سيئا على الحركة عندما تخرج من نطاق خراسان الضيق ٠٠ إلى حيز البلاد العربية الواسع ٠٠ ولكن : ماذا يستطيع ان يفعل من ليس فى يده امر ولايطاع له رأى ، وقد انطلقت الثورة على سجيتها ، وراح ابومسلم يأخذ المسيىء والبرىء بالظن والتهمة ويقتل بالمفرد والجملة ٠

●●●

وقد خص المؤلف الفاضل الفصل الأول من كتابه بالحديث عن اسرة المنصور ومولده ونشأته وتناول فى الفصل الثاني الأحداث فى فجر الدولة العباسية بصورة شاملة وما كان من دور لابي جعفر بالنسبة لكل حدث ٠٠ وفى الفصل الثالث يحدثنا عن خلافة أبي جعفر وعمله فى توطيد اركان الدولة فى الأعوام الأولى من توليه للخلافة ، كما يتحدث فى الفصل الرابع عن شخصية أبي جعفر وفى الفصل الخامس عن « الطابع العربي لدولة ابي جعفر المنصور » ٠

ويفيض المؤلف فى حديثه عن خلافة المنصور فى الفصل الثالث فيتحدث أولا عن « البداية الصعبة » التى واجهت أبا جعفر المنصور عندما تولى خلافة بني العباس عام ١٣٧ هـ فهناك ـ يقول المؤلف ـ :

فى ديار الجزيرة والشام ثورة عمه عبدالله بن على وقد وردته اخبارها جملة وتفصيلا ، فأقلقته الى حد بعيد ، وفي الحجاز حركة سرية علوية تدعو إلى « محمد النفس الزكية » بن عبدالله بن الحسن ، وقد سمع ابوجعفر فى مكة الشيء الكثير عنها ، فقيل له ان دعاتها يعملون لها فى مكة والمدينة والبصرة والأهواز وفارس حتى فى اقليم خراسان ذاته ووردته أنباء أخرى بان الخوارج بدأوا يتحركون فى نواحى الموصل وديار ربيعة مستغلين فرصة الانشقاق على الخلافة فهم يتربصون بالدولة الدوائر ٠٠ وهذا ابومسلم الخراساني عقدة العقد بايع مع الناس ، وربما كانت بيعته مراوغة منه ، ريثما يبلغ مأمنه فى خراسان ليفلت كما يفلت الوحش من شباك صائده ، فيتوغل فى مجاهل غابة ٠٠ ثم يستعرض ابوجعفر ، مالديه من الوسائل والقوى التي يمكن ان يتخذها سندا يدرأ به عوادى هذه الأخطار فلم يجد بين يديه ما يطمئنه ويريحه ٠٠ فخزينة الدولة تكاد تكون فارغة ٠٠ أو هي فارغة حقا بسبب اهمال الخليفة السفاح وعدم اهتمامه بجمع المال وادخاره للازمات الطارئة ٠٠ فضلا عما كان عليه من كرم وتبذير ، وبذل فى الصرف والعطاء ، اما الجيوش والسلاح ، فقذ ذهب ـ عبدالله بن على ـ بجانب منها فضمه تحت راية ثورته والذى بقي يسيطر ابومسلم عليه فى ولايته ، عدا مجموعات صغيرة مبعثرة فى المدن والأقاليم الأخرى وهي من القلة بحيث لو اجتمعت لما استطاعت الصمود أمام أحد الخصمين : عبدالله ، أو أبي مسلم ٠٠ فكيف اذا اتفقا غدا على الغدر معا ؟ !

ويفكر ابوجعفر مليا فى من يعتمد عليه من رجال الدولة ويستشيره ، فاذا بهؤلاء الرجال الذين كانوا بالأمس يملأون بلاط الخليفة السفاح ، ويحيطون به احاطة السوار بالمعصم أكثرهم لايركن

اليه ، وفيهم الفارسي المتعصب لقوميته مثل « خالد بن برمك » وهو من ذوى الرأى ، ولكنه يرتبط بأبي مسلم بحبل قديم من الصداقة والود والتفاهم ، ولم يرتبط بشخص أبي جعفر فى شىء من هذا ، وقل كذلك عن الآخرين من رجالات القصر ، الا حفنة من القادة العرب ونفر قليل ممن كانوا يعملون بجانب أبي جعفر قبل خلافته ··

كل هذه الحقائق والاحتمالات السيئة كانت تدور فى خلده فتقلقه وتمر أطيافها الثقيلة على أجفانه فتمسح عنها لذيذ النوم ولكنها لم تستطع ان تدفع به إلى اليأس والتخاذل ، اذ كان يشد نفسه بها إلى جانب الحزم والتدبير حتى ليصح القول فيه بان ليلته تلك ـ عندما قدم من مكة إلى الكوفة غرة محرم ١٣٧ وبويع له فيها بالخلافة ـ ليلته تلك ·· كانت أشبه بليلة الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » حين آلت اليه الخلافة ، وكل أقطار الدولة منتفضة ثائرة ·· كما هو معروف فى التاريخ ـ وكان ابوجعفر فى واقعه من ذلك الطراز من الرجال الذين تزيدهم المخاطر عزيمة ومضاء ··

●●●

ماذا يصنع ابوجعفر ـ اذن ـ امام هذه البداية الصعبة والصعبة جدا ـ ومن أين يبدأ ؟ وكيف يبدأ ؟

كان أول عمل بارع قام به المنصور ودل على عبقريته حقا ·· وعلى دهاء ومكر لابد منهما لمؤسس دولة : هو مواجهة عمه الثائر عليه « عبدالله بن على » ليتخلص منه أولا بالقضاء على ثورته التي قام بها فى الشام يومذاك ·· اما ابومسلم ·· فلا بأس من ارجاء امره إلى حين يتم القضاء على ثورة عبدالله بن علي بواسطة ابي مسلم نفسه : خصمه الجبار وفعلا كان للمنصور ما أراد عندما تم له القضاء على تلك الثورة وانتهى المطاف بعمه عبدالله إلى اللجوء إلى البصرة بحاشيته وقواده ومواليه حيث كان اخوه سليمان بن علي عاملها من قبل المنصور ··

ويجىء دور أبي مسلم إلى أن يلقى مصرعه على يد أبي جعفر فى خبر طويل أفاض فيه المؤلف ووصفه بأنه « كان عملا جريئا إلى أقصى حدود الجرأة ٠٠ ومجازفة ما بعدها مجازفة ٠٠ ذلك أنه - أى المنصور - حين غادر الهاشمية ونزل المدائن لم يصحب معه غير حاشيته وعدد جد قليل من الحرس الخاص به ، وكأنه ذاهب إلى نزهة قصيرة ٠٠ والظاهر انه لم يكن قد فكر بعد بقتل ابي مسلم ٠٠ فلما عزم على ذلك لم يرهبه ان يكون اعزل من الجند ، فى حين كان عدوه محاطا بثلاثة الاف من خيرة رجاله فى القتال من أخلصهم له واحبهم اليه ، من بينهم فرقة كاملة تدعى الراوندية من مجوس فارس وتعتقد بان روح الله حلت فى جسده وان الدين كل الدين فى طاعته ، وقد نزل هذا الجيش بكامل سلاحه فى الربض القريب من مقر الخليفة وهو على تلك الحالة » ٠

●●●

انتهي اذن ابومسلم ٠٠ وفي الحق لقد لقي هذا الرجل جزاءه العادل علي يد أبي جعفر بعد أن اسال الدماء انهارا ٠٠ وكان من أمره ما كان فى عهد السفاح الخليفة العباسي الأول مما هو ذائع ومعروف !

وفيما كان ابوجعفر - يقول المؤلف - يتأهب للعودة إلى مقره فى الأنبار وردته اخبار خراسان تشير إلى ثورة تتضرم هناك بزعامة رجل يدعى « سنباذ » ٠٠ وكان مجوسيا من اركان حزب ابي مسلم وصنائعه علم بمقتل سيده فى المدائن فجمع فلول العائدين من جيشه واستولي على خزائنه التى كان أودعها فى « الرى » حين أراد الحج وكانت شيئا كثيرا من الجواهر والسلاح ثم نادى بطلب الانتقام والأخذ بثأر أبي مسلم من قتلته وجمع اتباعه من أهل الجبال وتوافدت اليه من أنحاء البلاد جماهير غفيرة من المجوس والزنادقة والشعوبية ٠٠ ورفع راية الثورة واكتسح نيسابور ، والرى ، وقومس وقتل كل من وقع فى يده من العرب ، وسبى النساء ، العربيات ، ونهب الأموال ، وعاث فى الأرض فسادا فزادت قواه على مائة الف مقاتل ، وجاهر أخيرا بأنه يريد القضاء على دولة بنى

العباس والزحف على مكة ٠٠ وهدم الكعبة قبلة المسلمين ٠٠ فأرسل اليه ابوجعفر جيشا عربيا قـوامه عشـرة الاف فارس ٠٠ واستمـات الجيش العربي امام تلك الجموع الزاخرة من خيل المجوس والشعوبية ، حتى بعثروا صفوفها وهزموها شر هزيمة ، وأوقعوا السيوف فى رقاب جندها وقتلوهم كيف شاءوا وبلغ عدد القتلى فيهم نحوا من ستين الفا عدا الأسرى ٠٠ وهرب « سنباذ » فلحقته مفرزة من خيل العرب حتى أدركته فقتلته ٠٠ وكان بين خروج سنباذ وقتله سبعون ليلة ، كما كان بين خروج عبدالله بن علي وهزيمته ، ومقتل أبي مسلم ثمانية أشهر ٠٠

بهذه الجرأة النادرة ، وبتلك السرعة ، فى غضون بضعة أشهر هزم أبوجعفر عمه الثائر عليه ٠٠ وقضى بقتل أبي مسلم على أكبر عدو كان يهدد شخصه ، ويستهدف تمزيق رقعة دولته وبدد شمل أنصاره وصنائعه تحت راية مجوسية حملها « سنباذ » فارتاحت خراسان من تلك الدوامـة العارمـة المضطربـة ، واذعنت إلى حكمه ٠٠ وعـاد إلى الأنبار ٠٠ يتحفز لتصفية مشاكل أخرى كانت تنتظره وهو يردد :

اذا كـنـت ذا رأى فـكـن ذا عـزيـمـة
فـان فـسـاد الرأى ان تـتـرددا
ولاتـمـهـل الأعـداء يـومـا بـقـدرة
وبـادرهـمـو ان يـمـلـكوا مـثـلـهـا غـدا

● ● ●

ومن طريق ما يروى عند عودته انه سمع بأن صاحب بيت أمواله « الفرج بن فضالة التنوخي » وكان شيخا عاقلا انتقد الطريقة التي قتل فيها ابوجعفر عدوه ابا مسلم ٠٠ فأمر باحضاره وقال له : اني أعلم انك صاحب رأى ٠٠ وقد خدمت بني أمية زمنا ٠٠ فكيف تخطئني بقتل أبي مسلم فى قصرى ولم تخطىء صاحبك عبدالملك بن مروان فى قتل « عمرو ابن سعيد الأشدق الأموى » ومعالجته اياه فى قصره كما فعلت أنا ؟

فقال الفرج : « يا أمير المؤمنين ان عبدالملك كان محـاطا باثني

عشر الفا من جنده ومواليه ، حين قتل خصمه ٠٠ وقتلت انت ابا مسلم ، وانت فى خرق من الأرض ، وكل من حولك له ومنه واليه ٠٠ قال صدقت ، ولم اخطىء فى عملي ! » ٠

وانصرم العام الأول من خلافة ابي جعفر المنصور وكان مليئا بالأحداث الخطيرة ٠٠ واستهل العام الثاني ١٣٨ هـ ـ ٧٥٦ م ومازالت بعض المشاكل قائمة هنا وهناك ، كان أخطرها قيام الخوارج فى أرض الجزيرة بزعامة « ملبد بن حرملة الشيبانى » ٠٠ وانتهت حركتهم هذه بقتل زعيمه « ملبد بن حرملة » فى ثمانمائة رجل من أصحابه وهروب الباقين » ٠

ولم يكد ينتهي ابوجعفر من امر هذه الحركة حتى يفاجأ بحركة « جمهور بن مرار العجلي » في خراسان ٠٠ يقول المؤلف فأرسل اليه ابوجعفر جيشا بقيادة « محمد بن الأشعث » والتقى القائدان قرب أصبهان فاقتتلوا قتالا عظيما ، ومع جمهور نخبة فرسان العجم ، فهزمهم ابن الأشعث وقتل عددا كبيرا منهم وهرب جمهور إلى اذربيجان ، فقتل هناك وحمل رأسه إلى المنصور ٠٠ ولم يشأ الروم ، وهم اعداء الدولة الاسلامية منذ عهد بعيد أن يتركوا الفرصة تمر في حين كان المنصور يوطد اركان دولته ، ويخمد الفتن والثورات المتعاقبة فهاجموا حدوده الشرقية الشمالية وتوغلوا داخل البلاد فقتلوا وسبوا خلقا كثيرا ، فأوعز ابوجعفر إلي كل من عمه صالح بن على واخيه العباس بن محمد ان يزحفا بجيش من عرب الشام لتلافي ما أحدث الروم من تخريب فى البلاد ، فزحفا من مقريهما وعمرا ما خرب العدو في ـ ملاطية ـ وغيرها ، ثم توجها لقتال الروم فى بلادهم فتوغلا فى أراضيهم ٠

ويتابع المؤلف حديثه عن بقية ما ظل يواجه المنصور من المشاكل والفتن ، وليس من شك في انه يأتي فى طليعة هذه المشاكل والفتن ، حركة الراوندية المجوسية فى سنة ١٤١ وثورة العلويين بقيادة محمد النفس

الزكية فى سنة ١٤٥ هـ وقد كان الظفر حليف المنصور فى كل هاتين الحركتين ٠٠ شيء آخر حاول ان يحققه المنصور ٠٠ ولعله الشيء الوحيد الذى اخفق فيه ذلك هو ان يستولي على الأندلس ٠٠ حيث أقام هناك دولة أموية : عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ٠٠ ! لكن محاولة المنصور ان يستولي على الأندلس باءت بكل فشل أمام عزيمة فتى بنى امية عبدالرحمن الداخل ٠٠ يقول المؤلف : « وأسف ـ أى المنصور ـ على ما حدث ، ثم جلس مجلسه ، وسأل عن هذا الفتى الأموى الذى سمع به ولا يعرفه ؟ فحدثوه عنه ، فأعجبته جرأته وبطولاته ، وتحمله المشاق وبلوغه الغاية ، وهو فى حداثة الشباب ، وقلة التجربة ، فنسى المنصور عداوته ، وما صنع هذا الفتى بجيشه ٠٠ وقال فيه كلمته المشهورة « انه والله صقر قريش » فعلق هذا اللقب باسم عبدالرحمن الداخل ، كوسام من أكبر أعدائه ، وأعظم خليفة فى تاريخ بنى العباس » ٠

● ● ●

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن عمل آخر يعتبر من أعمال المنصور الخالدة وهو انشاؤه لمدينة بغداد ٠

أما الفصل الرابع وهو الفصل الذى يحدثنا فيه عن شخصية المنصور فيقول فيه : « أخبار أبي جعفر كثيرة في بطون كتب السير والتراجم وأسفار التاريخ ومراجع الأدب ولكنها مبعثرة غير منسقة حسب ظروفها وأوقاتها ومناسباتها فكان طبيعيا أن تظهر متناقضة أحيانا مع بعضها وفى هذا مجال واسع يدخل منه الخصوم للطعن ، كما يستفيد منه المؤيدون للدفاع وخصومه بسبب تاريخه السياسي كثيرون ٠٠ قتل ابا مسلم الخراساني فخاصمه انصاره من متعصبي الفرس الشعوبيين ، وقاتله العلويون فقتلهم ، فأعلن شيعتهم عليه حرب الأقلام ، وضرب الخوارج ، فنقموا عليه ، وقالوا فيه ما قالوا ، وبخل على شعراء فهجوه ، وجاد على بعضهم فحمدوه ، وذهب الرواة يجمعون

هذا وذاك ، واخذ التاريخ يدون ما جمعوا ، من اخضر مزهر ، وحطب يابس ٠٠ ومع ذلك كله فقد اجمعت المصادر على اكثر مزاياه ، واختلف فى امر واحد ، هو سياسته مع خصومه وبطشه الشديد بهم ، وكثرة من قتل منهم ، وهذا صحيح بسبب الوضع السياسي الدقيق ، والمراحل الخطيرة التى اجتازها ٠

وبعد ٠٠ فقد كان ابوجعفر داهية ، حازما وعاقلا ، عالما ومؤسس دولة من الطراز الأول ٠٠ يعرف ما يصنع ، ويهتم بصغائر الأمور اهتمامه بكبائرها ٠٠ وينظر إلى ابعد مما هو فيه ، ولا يترك امرا حان موعده ليفرغ من امر استعصى عليه ، ولا يملأ الهم صدره من حادث قبل وقوعه ٠٠ ولا يضيق به ذرعا اذا وقع رابط الجأش ، يقابل الأحداث بعزيمة ليس فيها خور ٠٠ ولاتخاذل ، فاذا عزم توكل وأقدم مهما كانت الوسيلة وكيفما جاءت النتيجة ٠٠

يقول صاحب الفخرى عنه : كان من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ٠٠

ويرى المسعودى : انه كان من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ووصفه ابن شاكر ٠٠ قال : كان فحل بنى العباس ، ومن أفراد الدهر حزما ودهاء وجبروتا ٠٠ وكان شجاعا مهيبا كامل العقل ، تاركا للهو واللعب وكان فيه عدل ، وله حظ من صلاة وعلم وفقه ٠

قال عنه الوزير ، الربيع بن يونس :

« كان للمنصور حمى من العقل ، لايسيطر به الجهل ، ويرى باطن الأمر ، من الرأى ، كما يرى ظاهره » ٠

وقال يزيد بن هبيرة :

« ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت فى سلم امكر ولا أبرع ولا أشد تيقظا من المنصور » ٠

وقال القائد ، عثمان بن عمارة :

« ان حشو ثياب هذا العباسي شجاعة ومكر ودهاء » ٠

ووصفه المؤرخ ابوجعفر الطبرى ، فقال : كان أديبا ، وخطيبا مفوها ، وفي مقدمة من يتكلم ، فيبلغ حاجته على البديهة » ٠

وقال السيوطي عن أبي جعفر المنصور :

« كان شاعرا وشعره قليل » ٠٠

القسم الثانى :

وفى هذا الفصل ٠٠ نمضى مع فصول أخرى من هذا الكتاب الشامل عن المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ٠

نمضى مع هذه الفصول لنرى كيف تميز عهد المنصور ـ منذ أصبح خليفة للمسلمين ـ بتحديه ذلك التحدى الكبير للشعوبية والشعوبيين !

ونمضى مع هذه الفصول لنرى من جانب آخر كيف كان عهد المنصور عهد قوة وازدهار بحق ٠٠ بل وكيف كان هذا العهد أيضا : الوحيد ـ فى العصر العباسى كله ـ فيما استوى له من مجد ، وقام له من عظمة ، وأتيح له من سموق !

نعم ٠٠ لقد كان عهد ابى جعفر ، وحيدا فيما بلغه من قوة وعظمة وازدهار بين كل ما مر بالدولة العباسية من عهود عاشتها هذه الدولة ٥٠٠ عام ، وهى أطول مدة عاشتها دولة اسلامية !

والحق أن أبا جعفر المنصور ، يعتبر ـ بلا شك ـ من الخلفاء العمالقة القلائل فى تاريخ الاسلام والمسلمين ٠٠

يقول الدكتور جومرد :

رأينا كيف انكمش الجانب العربى وذبلت سيادته على اثر انهيار الحكم الاموى تحت اعصار الثورة العباسية الجامح وقامت الشعوبية الحاقدة تعبث بسيوفها فى كل مكان ٠٠ رأينا كل هذا وعرفنا اسبابه فلما تناول أبوجعفر مقاليد الامور قطع رأس الافعى بقتل أبى مسلم ، وداس صلالها فى خراسان بالقضاء على ثورة « سنباذ » ورتق فتوق الدولة ، وجمع شملها ، ووحد كلمتها ، وبنى أسسها ، ووطد أركان دعائمها ، وقبض على أزمتها بيد صارمة ٠٠ وأخذ يوجهها بجدارة وحزم نحو طريقها السليم ٠٠ وقف أبوجعفر المنصور فى الليلة الأولى من خلافته أمام دولة مهلهلة الجوانب ، كان طابعها الاسلام شكلا ٠٠ ولكنها على مرجل يغلى ٠٠ من احقاد عنصرية ، وثأرات قبلية ، وطماح جامح الى الخلافة ، ونزعات إلى الاستقلال ، وتهالك على الرئاسات واستضعاف لسيادة الحكم ، وتجرؤ عليه ، فقضى على ثورة عمه عبدالله بن على ٠٠ وكان لابد من ذلك رغم القرابة ٠ وانقض على ابى مسلم الخراسانى ٠ وبدد شمل تلك الشعوبية الدامية التى كانت تستمد قوتها من روحه ، واطفأ ثورة العلويين التى أوقفته أمام طريقين : أما له أو عليه ٠٠ فأرادها له ٠٠

وكان أبوجعفر فى قرارة نفسه وبحكم نشأته ، ومستوى ثقافته ، عربى النزعة ، متين التمسك بها ٠٠ أكثر من أى عباسى آخر تقلد مسؤولية من مسؤوليات الدولة ٠٠ فهو مثلا لم يشترك فى حملة الابادة على المسالمين من الامويين بعد انهيار صرح حكمهم ، ولم نسمع عنه أنه قتل أمويا لارواء حقد فى نفسه ، كما فعل اخوه السفاح فى قصره ٠٠ أو كما فعل بعض أعمامه فى الشام وفلسطين ، والبصرة ، والحجاز ٠

وليس من الحق ان نتهمه بقتل يزيد بن هبيرة ، ومن معه والغدر بهم ، بعد اعطائهم الامان ٠٠ يوم حصار واسط ، لان المصادر الموثوقة تنص بصراحة على أنه عارض أخاه السفاح فى ذلك ٠٠ ولكنه لم يستطع

الصمود أمام اصراره ·· ولما تـولى الخلافـة وقف دون كل محـاولة للتنكيل بالعرب ·· فمنع أبا مسلم من قتل الهاربين من جيش عبدالله ابن على ·· وعنف ولى العهد عيسى بن موسى على قتله أحد أبناء نصر ابن سيار فى الكوفة وكاد يقوده به لولا ان ثبت له أن ذلك كان خطأ ، ومن غير عمد ، لكن نزعته العربية هذه كانت نزعة سياسى حكيم لم تجمح به إلى التعصب وكره غير العرب ، كما جمحت بالخلفاء الامـويين قبله ، ولم تجمح به إلى التطرف ·· فتعميه عن الواقع السياسى فى حظيرة الدولة وقد شاءت الصدف السيئة أن يكون واقع الدولة السيـاسى فى أوائل حكمه أعقد من ذنب الضب ·· إذ كان الرأى العام الغالب على المجتمع العـربى يكـره الحكم العبـاسى ويتخـوف منــه ، بسبب تلك المجـازر الشعوبية ، والاختلاطات فى عهد الخليفة السفاح ·

على ضوء هذا الواقع المضطرب وقف أبوجعفـر فى بدايـة امره يحاول قبل كل شىء توطيد اركان دولته ، وتثبيت اقدام عرشه من أن يطوح به ذلك الاعصار العنيف ·· فراح يعمـل على ضـرب الثورات العربية بجند من خراسان ، وأخذ يطفىء الفتن والانتفاضات الاعجمية بجيوش من العرب ·· حتى إذا استقرت الحال ، نوعا ما ، ووضعت السيوف فى اغمادها وبنيت بغداد عاصمة الدولة ، صار يوجه سياسة مملكته الواسعة على قاعدة من التوازن بين هذه التيارات المتعاكسة ، محتفظا لها بـالصبغة العـربية ، وبسيـادة الحكم العربى الممثـل فى شخصه كأمير للمؤمنين ·

● ● ●

ينتقل المؤلف إلى الفصـل السادس ، وفيـه يتحدث عن أنــظمة الدولة ، وحضارتها فى خلافة المنصور · فيقول :

كان أبوجعفر من أكثر الخلفاء المسلمين حبا للنظام ، فقام بتنظيم دولته وبناء حضارتها ، وعمل على تركيز قواعد الادارة فيهـا ، وطرق جباية الاموال ، ووجوه صرفها وتوطيد أسس القضاء والعدل ، وتنسيق

قوى الجيش ، وانعاش الحقل الاقتصادى وتوسيع المجال العمرانى ، وتغذية الحركة الفكرية ورفع المستوى الاجتماعى ٠

ويمضى المؤلف فى هذا الفصل ويشمل حديثه فيه الادارة والنظام الحربى ، ونظام القضاء ، والوضع المالى ، والرفاه الاقتصادى ، والحضارة الفكرية ، والنهضة العمرانية ، والحالة الاجتماعية ٠٠ فى عهد المنصور يقول عن « النظام القضائى » : تطور النظام القضائى فى العصر العباسى الاول تطورا كبيرا ، ذلك لان روح الاجتهاد بدأت تضعف بظهور اصحاب المذاهب الكبيرة الاربعة ٠٠ وكان قد ظهر فى عهد الخليفة المنصور مذهبان ، هما مذهب مالك الذى انتشر فى الحجاز والشام ثم المغرب ومذهب أبى حنيفة فى العراق وأخذ القضاة يتأثرون بهذين المذهبين وان لم يسيروا عليهما الزاما فى أيام أبى جعفر المنصور ٠

وقد كان أبوجعفر من أحرص الملوك على تطبيق العدل فى دولته ، ومن أشدهم اهتماما فى اختيار القضاة العدول للمدن الكبيرة ، وكان يبحث فى أمرهم قبل تعيينهم ، ويستقصى اخبارهم ويعرف نواقصهم ٠٠ ويختار اكثرهم بنفسه دون ان يترك ذلك الى ولاته ٠٠ ولم يكن يغضب فى سبيل الحكم بالحق ، ولم يتذمر منهم إذا جابهوه بصراحة او لم يلاينوه فى كلامهم أو تصرفاتهم أمامه ٠٠ وكان هناك تعاون قوى بين الخليفة والامراء من جهة وبين القضاة من جهة اخرى على القيام بمهمة تطبيق العدل واحقاق الحق ، وكان على القاضى أن يمارس الفقه الاسلامى ، ويعرف لدى العامة بالاستقامة ، وحسن الاخلاق ، ولمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير لذلك لايجرى عليه ما يجرى على العمال وربما بقى فى كثير من الاحيان يشغل منصبه فى عهد عدة ولاة ولم يكن اسرع من القاضى إلى تقديم استقالته إذا تدخل فى احكامه الشرعية متدخل ٠٠ وقصارى القول ـ يقول المؤلف : ان عهد المنصور امتاز باعطاء القضاء

مكانته اللائقة به ٠٠ إذ كان يعتبر نفسه الرئيس الاعلى له ٠٠ ولم يكن قد ظهر فى عهده بعد منصب « قاضى القضاة » ٠

● ● ●

وقد كان عهد المنصور نقطة بداية نشاط اقتصادى جديد بعد توقف دام زمنا اثناء الاضطرابات فى العهد الاموى والثورة العباسية التى اعقبته بفضل همة المنصور ، وبعد نظره فى النواحى الاقتصادية وتشجيعه للزراعة والتجارة والصناعة واقرار الامن ، أخذت الدولة تدر عليه بمواردها الضخمة ، حتى عم الرخاء ورخصت اسعار الحاجيات إلى حد بعيد ٠٠ يقول صاحب كتاب « تاريخ بغداد » : « سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخارى يقول : رأيت فى زمن أبى جعفر المنصور كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية ارطال بدرهم ثم ذكر العسل فقال عشرة ارطال بدرهم » وهذه صورة مقتضبة عن جهود المنصور فى الميدان الاقتصادى ٠

ويتحدث المؤلف عن اهتمام المنصور بالزراعة ٠٠ اما عن الصناعة فيقول : اشتهرت الصناعة فى العصر العباسى الأول وكانت حكومة المنصور تشجعها وتعتبرها احد المصادر الهامة التى تدر على خزينتها بالضرائب ٠٠ وكان الانتاج الصناعى على انواع ثلاثة : معدنية وحيوانية ونباتية ٠٠ وقد نبغ فى الصناعة المعدنية أناس فى كل اقليم ٠٠ وكذلك تفوق المسلمون فى صناعة الحرير والاطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد ٠٠ وامتازت دمشق بصناعة الاقمشة الحريرية التى لاتزال تسمى « الدمقس » ٠٠ واشتهرت مصر بصناعة السفن للتجارة والاساطيل للحروب ٠٠ ثم يقول المؤلف : وقد وصفت لنا بعض المصادر حضارة بغداد الصناعية فى العصر العباسى الاول وصفا يدل على عظمة تلك المدينة والحضارة

الخالدة التى بقيت طويلا كمشعل للتقدم ، والتى تم وضع لبنتها فى عهد أبى جعفر المنصور !

ويفيض المؤلف فى حديثه عن التجارة فى العصر العباسى الأول وما بلغته من تقدم وانتعاش وحسبنا ان نعلم ان المسلمين يومئذ كانوا يصدرون إلى البلاد الغربية اصنافا من الحاصلات والصناعات ·· ولقد كان عهد المنصور الجذوة الاولى لتلك الحركة التجارية الواسعة كما كان الجذوة الاولى ايضا لذلك الانتعاش الاقتصادى الذى ارتكزت عليه حضارة الدولة فى شتى نواحيها ·

وعلى نحو ما كانت عناية المنصور بالنواحى الاقتصادية فى مجالاتها المختلفة كانت عنايته بالنواحى الفكرية من علم وادب وثقافة وترجمة كما امتاز عهده بنهضته العمرانية بسبب اتساع رقعة الدولة ، وتدفق الثراء على بيت المال ، واختلاط العرب بالامم الاخرى الخاضعة لدولة المسلمين ·

● ● ●

ويختم المؤلف كتابه الرائع بالحديث عن المنصور فى أيامه الاخيرة فيقول فيما يقول : ناهز أبوجعفر الستين من عمره حين استقبل عام « ١٥٥ هـ ـ ٧٧١ م » وقد جال الشيب فى رأسه ، ورسمت الايام باحداثها الجسام غضونا بين عينيه ، وعلى أديم وجهه · فبدأ فى مظهره اكبر سنا مما هو فيه ·· وليس فى ذلك غرابة فقد كان الرجل عصاميا ، رغم وراثته الملك عن اخيه ، وكان مناضلا فى سبيل تأسيس دولته منذ تسلمها وهى اشبه بالهيكل المتداعى ·· فتعرقته الخطوب وعاركه الزمن فى سلسلة طويلة من الازمات والمشاكل ، حتى خلع فى تذليلها عذارى شبابه وكهولته ، فبلغ غايته بعد ان دفع الثمن غاليا من كدحه وجهاده ، ومن عصارة روحه واعصابه ، ومن قوله : « الملوك ثلاثة ، فمعاوية بن أبى سفيان وكفاه زياد ـ اى زياد ابن أبيه ـ وعبدالملك بن مروان وكفاه حجاجه ·· وانا ولا كاف لى » ·· وشاءت الظروف بعد الذى جرى بينه

وبينها ‥ ان تهادنه وتسالمه ، وهو يجتاز العتبة الاولى من شيخوخته ، وان تترك له الاعوام الاربعة الاولى الباقية من حياته فى دعة وأمن واستقرار ‥ كل شىء كان هادئا ، فى جوانب الدولة الواسعة والامور تسير على نظام والخراج يجبى على حد الدانق والدرهم وأموال خزينة الدولة فى تضخم ، والمنصور يشرف باهتمام على شؤون رعيته وتطبيق احكام الشريعة بينهم بالعدل ‥ وقد مشت به السنون فازداد خبرة ومراسا وأرهف حسه إلى حد بعيد ‥ فلم يعد يقبل جورا من عامل ‥ قيل ان أخاه « العباس بن محمد » كان واليا على الجزيرة ، فسمع عنه أنه يظلم الناس ويسىء الى بعض رجالات الدولة المخلصين فعزله واستدعاه ، ثم حاكمه فوجد ان ما اتهم به كان صحيحا فحبسه سنة ١٥٥ هـ وغرمه مالا وأبقاه زمنا فى محبسه حتى تكلم به عيسى بن موسى ، فرضى عنه على أن لايعود لمثلها ، وغضب على عمه « اسماعيل ابن على » لسبب اخر ، فعزله واستبقاه فى بيته ولم يطلق سراحه حتى اعتوره اهله وعمومته ونساؤهم يكلمونه فيه وضيقوا عليه ‥ وفى سنة ١٥٨ هـ اعتزم المنصور السفر إلى مكة ليموت ويدفن فيها ـ كما كان يردد ـ ويقول المؤلف فى ذلك : كان المنصور يعتقد بأن أجله قد اقترب ويقول ، أنى ولدت فى شهر ذى الحجة ، وتوليت الخلافة فى ذى الحجة واهجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة هذه السنة » وعلى ذلك قرر السفر إلى مكة ليموت ويدفن فيها ، فأوعز إلى وزيره « الربيع بن يونس » ان يهيىء الموكب ، ويتخذ له وسائل الراحة والامن ، وأشار إلى عدد من كهول بنى العباس وشبابهم أن يصحبوه فى حجته هذه ‥ وكان ابنه المهدى يومئذ فى مدينة ـ الرقة ـ فأرسل له كتابا فى شهر شعبان من تلك السنة « ١٥٨ هـ ـ ٧٧٤ م » يدعوه إلى بغداد ليكون نائبا عنه فى ادارة شؤون الخلافة اثناء غيبته ، فقدم فى شهر رمضان ، ودخل على ابيه فى قصر الخلد فوجده وقد أخذ المرض من نشاطه ورونقه وسأله اذا كان فى الامكان تأجيل السفر إلى عام اخر خوفا من متاعب الطريق وكلفة

الرحيل ، فقال له المنصور : « أريد ان ابادر الى حرم ربى وأمنه ! ثم أخذ يحادثه فيما يجب أن يصنع عند غيابه اذا عاد ، وعند موته إذا انتهى أجله ٠٠ وفى شوال كان موكب الحج على أهبة السفر فركب المنصور فى موكب عظيم ، وصحبه ابنه المهدى حتى نزل ـ قصر عبدويه ـ قبل الكوفة وأقام فيه اربعة ايام كان يجتمع فيها بابنه المهدى فيبصره بأمور دولته ، ويحدثه عن مشاكلها ، ويعرفه برجالها واحدا واحدا ، ويحذره من بعضهم ويطمنه عن البعض الآخر ٠٠ حتى إذا حان موعد السير قدم إليه نصيحته الاخيرة : وهى من أروع ما تكون النصيحة آنذاك قال فيها :

« انى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة ، وقد هجس فى نفسى أنى اموت فى ذى الحجة من هذه السنة ، وانما حدانى على الحج ذلك ، فانا لله وانا إليه راجعون ، يابنى اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل لك فيما كربك وحزنك فرجا ومخرجا ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لاتحتسب ٠٠ يابنى ، احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظك الله ، ويحفظ عليك أمورك ٠٠ واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم ، والزم الحدود فان فيها خلاصك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ، ولا تعتد فيها فتبور ، فان الله لو علم ان شيئا أصلح منها لدينه ، وأزجر عن معاصيه لامر به فى كتابه ٠٠ »

« واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه انه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا ، ان يقتلوا أو يصلبوا ٠٠ الآية ٠٠ يابنى : فالسلطان حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودينه القيم ، فاحفظه وحصنه ، وذد عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب ، ولاتتجاوز ما أمر الله به فى

محكم القرآن ٠٠ واحكم بالعدل ولا تشتط ، فان ذلك أقطع للشغب واحسم للعدو ، وانجع فى الدواء ، وعف عن الفىء ، فليس بك اليه حاجة مع خلف الله لك ٠٠ وافتتح عملك بصلة الرحم ، وبر القرابة ، واياك والاثرة والتبذير لاموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ، وأمن السبل وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم ، وأعد الاموال واخزنها ، واياك والتبذير فان النوائب غير مأمونة ، وهى من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت ، واياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع ، وجد فى احكام الامور النازلات لاوقاتها أولا فأولا ، واجتهد وشمر فيها ٠٠ وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ٠٠ ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ٠٠ وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن بربك ، واسىء الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من تثبت على بابك ، وسهل أذنك للناس ٠٠ وانظر فى أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ٠٠ ولا تنم ، واياك ان تنام ، فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه الغمض الا وقلبه مستيقظ » هذه وصيتى إليك ، والله خليفتى عليك ٠٠ »

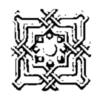
ثم ودعه وبكى كل واحد منهما إلى صاحبه ، وعاد المهدى إلى بغداد ٠٠ وسار المنصور إلى مكة ٠٠ يقول المؤلف : حتى إذا بلغ المرحلة الاخيرة من طريقه قال له الربيع : ياأمير المؤمنين ها قد وصلنا « بئر ميمون » وقد دخلنا الحرم ٠٠ فقال : الحمد لله فهل لك ان توصلنى إلى الكعبة ؟؟ ثم اغمى عليه فأمر الربيع بالنزول خوفا على حياته ولم يشأ أن يتم السير ثلاثة أميال اخرى ، ومنع أحدا من الناس الدخول عليه فى سرادقه وهو فى شبه غيبوبة طويلة ٠٠ وأقبل وجوه مكة فى استقباله ، وفى مقدمتهم أميرها « محمد بن ابراهيم الامام العباسى » ولكنهم لم يستطيعوا رؤيته ذلك اليوم ، ثم جن عليه الليل ٠٠ وفى هدأة الفجر من تلك الليلة يوم السبت فى السادس من شهر ذى الحجة عام

(١٥٨ هـ ـ ٧٧٠ م) خرجت روحه إلى بارئها ٠٠ ثم يقول المؤلف :

وهكذا انتهت حياة جد ملوك بنى العباس ، ومؤسس دولتهم التى دامت بعد موته نحوا من خمسمائة سنة (١٥٨ ـ ٦٥٦ هـ) واستخلف فيها بعده خمسة وثلاثون خليفة كلهم من ابنائه واحفاده وانطوت بموته صحيفة بطل من أبطال العرب ، وداهية من دهاتهم ، وسياسى قلما جاد الزمن بأمثاله علما وحزما وشجاعة وتدبيرا فكان أحد الافذاذ من الرجال الذين ملأوا كتب التاريخ العربى الاسلامى باخبارهم وروائعهم ٠ عاش ثلاثا وستين سنة ودامت خلافته اثنين وعشرين عاما ، فشمت به البعض وبكاه البعض الاخر ، ورثاه الشعراء ٠٠

● ● ●

ويمضى المؤلف فى حديثه مشيرا إلى ما خلفه المنصور من اموال فى خزائن الدولة عند وفاته٠٠لقد كانت ـ كما قيل ـ ثمانمائة الف الف درهم أى ما يعادل فى يومنا هذا (أربعة آلاف مليـون دينار) حسب قيمـة العملة ، ولعل أعظم من هذا كله ما ورثه المهدى عن ابيه من دولة موحدة لافتوق فيها ، يسودها الطابع العربى الاسلامى وقوة حربية جبارة فى مجموعة من خير القادة العرب ، وبلاط ضخم غنى برجال من أربـاب السيف والقلم والفكر ٠٠ وسمعة مشرقة بين تلك الامم المجاورة ، فقلما ورث ولى عهد مثل هذا ، وقلما ترك عاهـل وراءه دولة كهذه ٠٠ التى اتبعت التاريخ فى تدوين احداثها ، نحوا من خمسمائة عام ٠





الناصر صلاح الدين الأيوبي

الدكتور محمّد سامي الدهان

ما أشبه الليلة بالبارحة ، كما يقول المثل المشهور !

نعم ، ما أشبه الماضى بالحاضر ، فى دنيا العرب والمسلمين !

ما أشبه ذلك العدوان بالامس : عدوان الصليبيين الغاشم عندما احتلوا معظم ديار الشام ـ ومنها فلسطين ـ ما أشبه عدوانهم ذاك بعدوانهم الظالم الأثيم فى هذا القرن العشرين !

ولسنا نذكر هنا ، اسرائيل وانما نذكر فقط هؤلاء الصليبيين ! لسنا نذكر اسرائيل ٠٠ لان اسرائيل ما كانت لتوجد لولا الذين يقفون من ورائها ٠٠ لسنا نذكر اسرائيل وانما نذكر الخصوم الحقيقيين للعرب والمسلمين ٠

الخصوم الذين قهرهم صلاح الدين الايوبى ٠٠ الخصوم الذين أغاروا على معظم ديار الشام فى العصر الوسيط ومنها فلسطين وكان يدور فى نفوسهم يومذاك الاجهاز على بقية بلاد الشرق العربى لولا عناية الله ٠٠ ثم فحولة صلاح الدين الايوبى الذى استطاع فى عشرات من المعارك الفاصلة والمريعة ٠٠ ان يعطى المغيرين دروسا ٠٠ وان يسترد منهم فى نهاية مطافه معهم بيت المقدس ، وان يعيد الكرامة للعرب والمسلمين !

وسنمر ، فى هذا الكتاب النفيس للاديب المؤرخ الباحث الدكتور محمد سامى الدهان ـ بصفحة مشرقة من سيرة صلاح الدين ٠٠ صفحة مشرقة كل الاشراق ٠٠ نرجو ان تجلو ـ فى عرضها هذا السريع

الموجز جدا ـ بعض ملامح الصورة ٠٠ الصورة الرائعة كل الروعة : صورة البطولة ٠٠ والايمان ٠٠ والفداء ٠٠ التى حققها فى ظروف رهيبة قاسية ٠٠ ظروف لاتختلف عن ظروف اليوم فى كثير او قليل ٠٠ حققها فى اضخم معانيها ، وفى شجاعة منقطعة النظير ، واخلاص نادر المثال : البطل العظيم « صلاح الدين الايوبى » !

يقول المؤلف : شغل صلاح الدين الايوبى زمانه وغير زمانه وسالت فى رسمه صفحات وصفحات ٠٠ بعضها باقلام عربية ، واكثرها بأقلام غربية ٠٠

نظر إليه العرب والمسلمون نظرتهم إلى بطل من أبطال التاريخ ، وفارس من فرسان العصور ، وسياسى من ألمع السياسيين ، حتى غدا رمزا وشعارا من شعارات النضال والكفاح ٠

ونظر إليه الغربيون نظرتهم إلى فارس وقف فى وجه الدول الغربية ، وحارب كل عمره فى نصرة العرب والاسلام ، فانتصر مرة ٠٠ وانكسر مرة ٠٠ ولكنه كان صورة للتسامح والفروسية فأنشأوا فيه الكتب والدراسات كلما تحدثوا عن الحروب الصليبية ٠٠ وما نظن أن شرقيا شغل المؤرخين الغربيين وأذهانهم بعد النبى المعظم صلى الله عليه وسلم كما شغلهم صلاح الدين !

كانت حروبه أشبه بفتوحات جديدة شبيهة بفتوحات العرب الاولى ٠

● ● ●

اشتهر عصر صلاح الدين بانه عصر الحروب الصليبية ٠٠ فقد فتح عينيه والصليبيون فى ارجاء الوطن العربى الكبير ٠٠ وأغمض عينيه وهو يفكر فى مطاردة آخر حصونهم ٠٠ وقضى حياته كلها فى كفاح ضدهم ، وحرب على جيوشهم ، وقتال مع قوادهم ٠

ولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧م وفى مدينة دمشق وتحت

راية الملك العادل نور الدين زنكى عاش ، وترعرع وحضر مجالس نور الدين فأفاد من ذلك فائدة عظيمة ، وأخذ بأطراف العلم والفروسية ٠٠ واخذ عن ابيه أيوب انواع الرياضة ، كما أخذ عن العلماء دروس الفقه والحديث والنحو ، واستمع إلى الشعر والنثر ، وأعجب بالبيان الجميل وتعلم القرآن ٠٠ واستطاع صلاح الدين أن يفيد من اخلاق نور الدين ومن حبه للجهاد ، ومن سعيه فى جمع كلمة المسلمين ، فتعلق بذلك كله وغدا فيما بعد صورة عن هذا الملك العظيم ! بل اصبح أعظم سلطان بين المسلمين ، فى عصره وبعد عصره ٠٠ والفضل فى سموه ونبوغه ، وتفوقه ونجاحه يعود إلى ايامه بدمشق وإلى تربيته فى كنف نور الدين ، فقد كانت له مدرسة كبرى ، وكان له نور الدين الشهيد اماما وقائدا ومثلا أعلى ٠ وقديما قال ابن الاثير : « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ٠

ويتحدث المؤلف فى فصوله الاولى عن غزو نور الدين لمصر واستيلائه عليها بقيادة « شيركوه » « اسد الدين » عم صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ ثم وفاة اسد الدين وتولية صلاح الدين الوزارة بمصر فى نفس هذه السنة وتلقيبه بالملك الناصر من قبل الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ٠٠ ثم ما كان من أمر قضائه على الفاطميين وقطعه الخطبة على العاضد ٠٠ واقامتها باسم المستضىء بنور الله خليفة العباسيين فى بغداد ٠٠ يقول المؤلف : وأضحى صلاح الدين حاكم مصر وحده ، وسنه ٣٧ عاما فراح يبنى ويعمر وينشىء ويجرى الاصلاحات فيها ٠٠ وعمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة المستضىء فى المنابر ، وضرب النقود باسم نور الدين ٠

ويشير المؤلف هنا ٠٠ إلى خلاف بدأت بوادره بين كل من نور الدين وصلاح الدين وما كان من موقف نجم الدين ايوب والد صلاح الدين فى هذا الشأن ٠٠ الموقف الذى دل على حكمته وبعد نظره مما

كانت نتيجته عدم وقوع ما كان يخشى من احتكاك بين الرجلين العظيمين : نور الدين وصلاح الدين ·

وفرح صلاح الدين بهذه النتيجة وسكن باله بفضل الحكمة التى أبداها أبوه فقد صرف عنه بلاء عظيما ، ووفر عليه حربا لاطائل تحتها وجنب المسلمين حربا أهلية لايفيد منها الا العدو المتربص على السواحل وفى القدس ·· ولكن الاسف والاسى اصابا صلاح الدين بعد هذا فقد فاجأه موت ابيه بعد مرض قصير ·· وخسر صلاح الدين بوفاة ابيه ركنا ركينا ، ومستشارا معينا وبات خائفا يترقب هجوم نور الدين على مصر واستخلاصها منه فشرع فى ايجاد مملكة يقصدها ويملكها لتكون له عدة فى النائبات اذا ما اخرجه نور الدين من مصر فامضى « قراقوش » إلى المغرب فى طائفة من الترك فاستولى على طرابلس الغرب وكثير من بلاد افريقية حتى تونس وارسل أخاه توران شاه بن ايوب الى اليمن فتمكن من غزوها سنة ٥٦٩ هـ واقام بها الخطبة العباسية ·

واراد جماعة من الشيعة الوثوب بمصر واقامة الدعوة العلوية وردها إلى ما كانت عليه وكان فيهم عمارة اليمنى الشاعر وغيره ·· واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر وكان قصدهم ان الفرنج إذا هجموا على مصر خرج اليهم صلاح الدين بنفسه عند ذاك يثورون بالقاهرة ويعيدون الدعوة العلوية ·

غير ان صلاح الدين ضبط المؤامرة وأحبطها وقبض على الخونة ·· وأمر ان يصلب عمارة اليمنى مع الجماعة المغامرين وان يعدم الباقون وذلك سنة ٥٦٩ هـ وسير صلاح الدين الى نور الدين بدمشق كتابا يشرح فيه هذه القضية ويذكر فيه نصر الله وعونه عليهم ·

ووصل كتاب صلاح الدين فى اليوم الذى توفى فيه نور الدين بدمشق وقد عزم الرجل على قصد مصر فيما علمنا ، واستخلاصها من يد صلاح الدين ·

وقد خلف نور الدين سيرة عاطرة تذكرها الاجيال شاهدة على عدله وزهده وجهاده ، وصدقاته واحسانه ٠٠ فقد اجتمع له من الصفات النادرة مايرفعه إلى مصاف الملوك العظماء والساسة الدهاة ٠٠ فقد حفظ ملك الشام وانقذ سورية من خلاف وفوضى وحماها من هجمات الصليبيين ٠

واختلف الامراء والحكام فى الشام بعد موت نور الدين ٠٠ وسار صلاح الدين إلى دمشق فى مستهل صفر من سنة ٥٧٠ هـ ووصل إليها ، وادرك الامراء ان الشام غدت لصلاح الدين وان الدولة النورية قد انتهت ٠٠ وان عهدا جديدا قد بدأ هو عهد صلاح الدين ٠٠

ويعود صلاح الدين إلى مصر ـ بعد ان ينيب عنه اخاه توران شاه فى دمشق ـ وتبدأ معاركه مع الصليبيين ٠

وما يكاد صلاح الدين يفرغ من حرب الا ليباشر حربا اخرى فى الجنوب او فى الشمال فهو ضد الصليبيين حول الساحل فى الجنوب وهو فى بلاد الارمن لقمع ملكهم بالشمال ، يحرق القلاع ، ويأسر الفرسان ، ويحوى الغلات ، ويملك الآلات ، ويذل العتاة المعتدين ٠٠ ويعود مؤيدا مظفرا منصورا ٠٠ ويتابع صلاح الدين حروبه المظفرة متنقلا من بلد إلى بلد ٠٠ ومن معركة إلى معركة ٠٠ ولقد مهدت حروبه فى شمالى الشام للسلام والامن ٠٠ فخلصت الشام والجزيرة لحكمه ، وأصبح لايفكر إلا بطرد الفرنجة من البلاد الاسلامية جمعاء ، وذلك باعلان الجهاد المقدس !

ارسل إلى سائر الاطراف يطلب العساكر ، فجاءته من كل فج ٠٠ ولبث يفكر فى خطة لانتزاع البلاد المسلوبة ٠٠ وصادف ان اعتدى صاحب الكرك « ارنو » على قافلة عظيمة من المسلمين فأخذها بأسرها ، واسر الاجناد وحملهم إلى الكرك ، وسام المسلمين سوء العذاب والتنكيل ! وكانت بينه وبين صلاح الدين هدنة ٠٠ فغدر ونكث ٠٠ واصر على العصيان ، فنذر السلطان دمه واعطى الله عهدا ، ان ظفر به

ان يستبيح مهجته ، واقسم الايمان على ان يقبض على « ارنو » ويقتله ٠٠ سار إلى « الكرك » ونازلها ٠٠ ثم سار إلى الشوبك ووصلته بقية الجيوش الاسلامية وقد غص بها الفضاء وعرض العسكر فكان فى اثنى عشر الف مقاتل ثم رتب العسكر ، وسار يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر من سنة ٥٨٣ هـ واحاطت عساكره ببحيرة طبرية ففتحها فى ساعة من نهار ٠٠

واعد الفرنج جيوشهم وحشدوا جموعهم وجاءهم الامداد من سائر البلاد الساحلية فكانوا فى خمسين الفا ٠٠ وزحف الجانبان والتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى وحاز المسلمون ماء البحيرة ومنعوها عنهم ٠٠ واخذتهم سهام المسلمين فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من البلاء بعد ان انهزم منهم طائفة فلم ينج منهم احد !

وهرب بعضهم إلى « صور » ولكن المسلمين احاطوا بالباقين الذين احتموا بجبل حطين - وهى قرية عندها قبر شعيب النبى عليه السلام - وضايقوهم واشعلوا حولهم النار واشتد الطعن والضرب ودارت عليهم دائرة السوء وعلموا انه لاينجيهم من الموت الا الاقدام على الموت ، فحملوا على المسلمين ، ولكن الله ثبت اقدام المسلمين ونصرهم فاثخنوهم بالقتل والجراح والاسر ووهنوا وهنا عظيما وايقنوا بالبوار ٠٠ وبقى ملك القدس على التل فى ١٥٠ فارسا فحسب ، ومازال المسلمون يضربون الخيمة حتى سقطت وأسروا كلهم ٠

وهنا نزل السلطان عن فرسه وسجد لله شكرا ٠٠ وبكى من شدة فرحه ٠٠ لان البلاد الاسلامية لم تشهد يوما ٠٠ كيوم حطين ٠٠ منذ ملك الفرنج البلاد الساحلية ٠٠ ولم تعرف المعارك شدة وهولا ونصرا وظفرا كتلك المعركة التى ادارها الناصر صلاح الدين ٠٠ فقد كان الفرنج الوفا فلم ينج منهم إلا آحاد ٠٠ وامتلأت الارض بالاسرى والقتلى ٠

كانت موقعة حطين خيرا وبركة على صلاح الدين ·· إذ كانت مفتاح الفتوح الاسلامية · وبهذا تيسر فتح بيت المقدس وستظل هذه الموقعة بين سمع التاريخ وبصره تروى بطولة الشرق وعظمة العرب ·· وشدة الاسلام !! لقد هزت حطين اركان الفرنجة والصليبيين ·· فلم يكونوا ينتظرون انكسارا كهذا الانكسار ، يمحو الجيش ، ويذل المحاربين ، ويقضى على أكبر كتلة مهاجمة فى ذلك الزمان ·

وتتابعت الفتوح بعد يوم « حطين »

وكان اعظم فتح حققه صلاح الدين فتح القدس فى اليوم الثالث من رجب سنة ٥٨٣ هـ

يقول المؤلف : ودخل المسلمون المدينة ، وكبروا فرحا ، وطهروا المسجد الاقصى مما زرع فيه الفرنجة من خبث ·· وما احدثوا فيه من اقذار ·· ونصبوا المنبر ، واقاموا صلاة الجمعة فى الاسبوع التالى ، فامتلأت رحبات المسجد وصحونه بالخلائق واستعبرت العيون من شدة الفرح ، وخشعت الاصوات ، ووجلت القلوب ، وخطب القاضى « محيي الدين الزكى » وقد رقى المنبر بالاهبة السوداء العباسية خطبة بليغة تناقلتها كتب التاريخ ·

ومضى صلاح الدين يفتتح ما بقى من القلاع والحصون ·· وغدا مرهوب الجانب بعيد الصيت ، يخافه الفرنجة ، فى كل مكان ، ويخشون بأسه فى البر والبحر وتحت كل حصن ، وفوق كل قلعة ·· لانه قام بأمر الجهاد على حال شريفة ، فى حرب يدعمها الايمان ، وتسندها العزيمة ، ويغذيها الفداء والثبات ··

وهاجم الفرنج القدس مرة اخرى ·· ولكنهم باءوا بالفشل وجاء السلطان خبر بأن الفرنج رحلوا طالبين بيروت فى سنة ٥٨٨ هـ فبرز من

القدس وسار إلى الرملة وحاصر يافا ·· فطلب اهلها الامان وعقدت بعدها هدنة بين الفرنجة وصلاح الدين ·

وعاد صلاح الدين ·· اخيرا إلى دمشق بعد أن طاف بالقلاع والحصون فى الطريق ، فبلغ دمشق فى خمس بقين من شوال وفرح الناس به لان غيبته عنها كانت قد طالت مدة اربع سنين كانت تبلغهم خلالها انباء الانتصارات والانكسارات ، فيفرحون ويحزنون ·· واخيرا اتتهم انباء الهدنة ففرحوا بعودة البطل الناصر إليهم ·· وقد بذل من نفسه وصحته مابذل فى سبيل بقائهم ونصرهم ، وعزة العرب ، وبقاء الاسلام ·

● ● ●

قضى صلاح الدين شبابه فى غزو مصر ، تحت راية نور الدين ليجمعها الى الشام ، فلما مات نور الدين اصبح صلاح الدين يتردد بين القاهرة ودمشق لادارة هذا الملك العريض ·· ثم لبث فى الشام أواخر حياته يحارب الصليبيين ·· فطورا كان ينتصر ، وآنا ينكسر وفى كليهما كان يبذل جهده ونفسه فى سبيل الله والوطن ·· فماهان ولا لان ، ولا سكنت نفسه إلى اللذائذ والترف وإنما كانت الحياة فى نظره جهادا فى سبيل الله والوطن والعروبة والاسلام ·· فالجهاد كان سبيلا إلى الجنة ، والجنة هى الخلود بعينه ·· لذلك آثر الآخرة على الدنيا ، وكتب بأعماله ملاحم خالدة ، يصح ان ينظم فيها شاعر ما نظم « هومير » وما تخيل اليونان والرومان والفرس فهو رمز البطل والبطولة ·· لو رسمت له لوحة فنية لكان فيها داعية إلى الجهاد يحث على القتال وهو يصيح : « يا للاسلام » والخيول من حوله تسقط ، والفرسان يجندلون بالسهام والسيوف والنبال ·

لقد كان صلاح الدين جنديا عظيما من جنود الحرب فى سبيل الخير ، وفى الذود عن الحمى ، والدفاع عن الحدود ، وما تخلف عن معركة من المعارك الفاصلة ، فرأى الموت عيانا ، وأقبل على الاستشهاد

مرات ، فضرب المثل الرائع لجنوده وامرائــه وقواده ، وشجعهم عــلى الاستبسال والاستشهاد ٠

كانت مدة ملكه الديار المصرية ٢٤ سنة وملكه للشام قريبا من ١٩ سنة ، وحين قضى لم يكن فى خزانته سوى سبعة واربعــين درهما ولم يخلف مالا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية وانما ترك هذا الصيت الواسع والدوى الهائل ، والذكر الخالد ابد الدهر يكبره الغرب ويكبره الغربيون عــلى رغم وقوفــه امام جيــوشـهم ، وقتاله لرجــالهم ، فقــد قــال فيــه « ديورانت » وهو احدث من كتب عنه فى هذه السنين بالغرب ووصف معاركه : « وبعد فان اعتدال صلاح الدين ، وصبره وعدله قد غلبت بهاء « ريشرد » وشجاعته ومهارته الحربيــة ، كما غلب المسلمــون بفضل اخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الاقطاعيين المنقسمين على انفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والاخلاص فى المقصد ٠

وقد كان صلاح الدين مستمسكا بدينه إلى أبعد حد ، وكان شفيقا على الضعفاء ، رحيما بالمغلوبين يسمو على اعدائه فى وفائه بوعده سموا جعــل المــؤرخــين المسيحيــين يعجبــون كيف يخلق الدين الاســلامى - الخاطىء فى ظنهم - رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد ٠٠

وكان يعامل خدمــه ارق معاملة ، ويستمــع بنفسه إلى مــطالب الشعب وكانت قيمة المال عنده لاتزيد على قيمة التــراب ، ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا ، وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لاتسمو فوقها اية فلسفة مسيحية ، قال فيها : « اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فــانه سبب نجاتك ، واحذرك من الدماء والدخول فيها ، والتقلد بها ، فان الدم لاينام ٠٠ واوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنــظر فى احوالهم ، فــانت امينى وامين الله عليهم ، واوصيك بحفظ قلوب الامراء وارباب الدولة والاكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس ، ولا تحقد على احد ٠٠

فان الموت لايبقى على احد ·· واحذر مابينك وبين الناس ، فانه لايغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فانه كريم » ·

●●●

ونظر إليه القادة الغربيون نظرتهم إلى قائد وقف أمام قواتهم فحال دون تغلغلها فى ربوع العرب ، فكان انتصاره العسكرى عليهم رمز اندحارهم وتقهقرهم وانكسارهم ، فأكبروا فيه المهارة العسكرية ، والشجاعة الحربية ، وجعلوه رأس القادة الكبار فى الامم ، فقد كان وحده قائدا ·· وكانت امامه قوات وقيادات من أمم مختلفة فاستطاع ان يتغلب عليها وان يصمد لها ، فلما قدم الامبراطور غليوم إلى دمشق سنة ١٨٩٨م ومعه الامبراطورة خطب خطبة بليغة قال فيها : « ومما يزيد فى سرورى انى موجود فى بلد عاش بها من كان اعظم رجال عصره وفريد دهره شجاعة وبسالة ·· الا وهو البطل صلاح الدين الايوبى » ·

وارسلت الامبراطورة اكليلا بديعا من الزهر ليوضع باسم الامبراطور على ضريح البطل العظيم ، وكتب عليه بالعربية « ويلهلم الثانى قيصر المانيا وملك بروسيا تذكارا للبطل صلاح الدين الايوبى » !!

وهذه الواقعة اثارت مشاعر شعرائنا ، فقال شوقى يذكرها مخاطبا الامبراطور :

دعوت اجل اهل الارض حربا   واشرفهم اذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا   تعود ان يلاقوه قياما
وكم جمعتهم حرب فكانوا   حدائدها وكان هو الحساما

واذا كان هذا هو موقف غليوم ·· فقد وقف غيره من الضباط المستعمرين موقف القحة والدناءة ·· اذ قدم على قبره فقال : ها نحن اولاء يا صلاح الدين ، لكن صلاح الدين كان عظاما هامدة ولو كان هذا القائد الغربى الكسيح الهزيل فى عصر صلاح الدين لقضى رعبا قبل ان

يتشرف بالمثول بين يديه · ولكن الجرأة على الاموات « من صفة الجبناء ·· وليست من الشجاعة فى شيء وليست من الخلق فى امر ·· وان وقفته تدل على احساسه العميق بذل اجداده من قواد الفرنسيين الذين اطاح صلاح الدين برؤوسهم ، **وعبر** على جثثهم بروج الدفاع واسوار الحصار ، وتدل كذلك على شدة حنقه لتاريخ امته المقهورة فى بطاح الشام وفلسطين ، والعجيب ان هذا الخلق ما يزال ينتقل فى دماء قوادهم على مر ثمانية قرون لم ينسوا خلالها ذلهم العسكرى وانكسارهم الحربى على يدى بطلنا صلاح الدين ·





جمال الدين الأفغاني

الأستاذ محمود أبو رية

قال عنه « رينان » المفكر الفرنسى المشهور عندما التقى بـه فى باريس عام ١٨٨٣م انه ذكره ـ وهو يتحدث اليه ـ احد من عرفهم من القدماء ٠٠ وانه يرى وجها لوجه « ابن سينا » و « ابن رشد » اوواحدا من أولئك المفكرين العظام ٠٠ الذين ظلوا يعملون خمسة قـرون على تحرير الانسانية من الاسار » !

وقال « رينان ايضا » « لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين فوقع فى نفسى منه مالم يقع إلا من القليلين ، وأثر فى تأثيرا قويا ٠٠ وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكـون علاقـة العلم بالاسـلام ، موضوع محاضرة فى السربون ٠٠ »

ذلك ما قاله المفكر الناقـد « رينان » وهـو ينوه بـزعيم النهضة الحديثة فى الشرق ورائد البعث الجديد ، وأول من حمل بقلمه وبلسانه وبفكره راية النضال خفاقة ضد الاستعمار الغربى فى عصر كـان فيه الشرق جميعه ، وكان فيه العالم الاسلامى من ادناه إلى اقصاه يعيش فى تخلف مميت بعد ان ساد فى جماهيره الجهل لعدة قرون طويلة وجاءه الاستعمـار ـ فى الاخير ـ بجحـافله الجرارة وبسـلاحه الذى لم يكن للشرق به عهد ٠٠ يغزوه فى عقر داره ليثأر لنفسـه أولا من هزيمتـه الشنعاء فى فلسطين امام البطل « صلاح الدين » ٠٠ ثم لينهب ما شاء له ان ينهب من خيراته وثرواته ٠

وحقا لقد هــز النفوس الراكـدة جمال الدين الافغـانى ، وأيقظ الافكار ونبه العقول ، وابان للناس فى عصر مبكر جدا مدى خطر هذا الاستعمار ، ومدى ما يكمن وراءه من شر مستطير ، وكـان على رأس الداعين الى التحرر وإلى الأخذ باسباب القوة وإلى العمل الجاد المتواصل من اجل التقدم ، ومن اجل الحرية ، ومن أجل الاستقلال ٠

وكانت الوحدة الاسلامية من اهم الاهداف التى ظل يدعو اليها جمال الدين الافغانى !

ولقد انجب جمال الدين عشرات التلاميذ ممن ساروا بعده على نهجـه ، ومشوا فى طريقــه ، وكان منهم معـظم البارزين من العلمـاء والزعماء فى القرن العشرين ٠

هذا هو جمال الدين الافغانى ، وقد خصه مؤلف هذا الكتــاب بحديث شامل ، ولو انه جاء موجزا كل الايجاز ٠٠

● ● ●

يقول المؤلف :

كان الشرق وهو مهبط الاديان ـ كما يجب ان يكـون : مشرق النور ، ومبعث الهداية ، وكان يرسل نوره إلى كل ارض ، وينشر هدايته على كل قبيل ، وظل على ذلك قـرونا حتى حـاق به مـا حاق من العلل والنوائب ، واصاب اهله ما اصابهم من المحن والشدائد فانطفأ نوره وغربت شمس هدايته ، وسيطر عليــه الاوربيون فجعلوه بينهم نهبـا مقسما يستغلونه بعلمهم ويستأكلونه بقوتهم ٠٠

ولم تنحصر شهــوة الاستـعمــار الاوربــى فى الدول الكبــرى فحسب ٠٠ وانمــا تسابقت الدول الصغـرى ـ هى الاخرى ـ لتنــال نصيبها من الغنيمة الاسلامية فاستولت على الاقطار الصغيرة من بلاد الاسلام ولم يكن ذلك كله ليتهيأ للغرب إلا لان العالم الاسلامى كان قد بلغ من الضعف مبلغا افقده الحس والحركة ٠٠

ولم يكتف الغـرب باستعمــار الشــرق وتسخيـره وابتــزاز كــل

خيراته ·· بل اخذ يعامله معاملة قاسية لا رحمة فيها ولا عدل وغالى فى ايذائه واهانته كأن أهله لم يكونوا من البشر ··

واذا استقرى الباحث حالة الشرق الاجتماعية فى عصر السيد جمال الدين الافغانى يجد انها بلغت اقصى الغاية من التأخر والانحطاط ، وإذا ابعد النظر فى مطارح البحث عن الاسباب التى ادت به إلى هذه الحالة السيئة بان له ان مرد ذلك كله انما يرجع إلى داء الجهل الوبيل الذى اطبق ظلامه على بلاده جميعا ومن اجل ذلك كانت هذه البلاد مباءة للاوهام والخرافات المهلكة وقرارة للعادات والبدع الموبقة ·

وبهذه العلل الفتاكة سادت بين أهله الاساليب الضارة فى حياتهم ومعايشهم ونظمهم حتى اصبحوا فى ساقة الامم تأخرا وذلة ·

وبجانب هذه الادواء انتشر فيهم داء التفرق المهلك ، لابين الامم الشرقية وحدها بل بين افرادها ، فلا تجد رابطة اجتماعية تجمعهم على الاتحاد فيما يعود بالنفع عليهم ولا ترى صلة انسانية تربطهم ليتعاونوا على مافيه مصلحتهم ·· وبذلك اخذهم الفقر من كل اقطارهم على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ·

وناهيك بتوسل المسلمين بالقبور ·· ومن تركهم لاتخاذ الاسباب - مثلا إذا احدهم اصابه مرض لايلجأ إلى وسائل الطب المعروفة بل يعمد إلى الدجالين ليداووه بالتعاويذ ·· أو يذهب إلى أحد الأضرحة متوسلا بما فيها ليشفى مرضه ! وبذلك تذهب النفوس فريسة للامراض والعلل وقس على ذلك فى كل امورهم واحوالهم ·

ولان الاجنبى الذى تحكم فيهم واستعمر بلادهم يريد ان يدوم سلطانه عليهم ، ويستمر نفوذه فيهم فقد مد لهم فى حبل ضلالهم وزين لهم من خرافاتهم واعانهم على اوهامهم وحرمهم العلم النافع الذى يشفى من دائهم ، او يوقظهم من سباتهم ·

تلك كانت حالة الشرق الاجتماعية فى عصر جمال الدين ·· مبينة بايجاز ··

لما توالت ضربات سياط المظالم على الشرق ، وطال عليه وخز أسنة الطغيان استيقظ من غفلته ، واخذ يلتفت الى نفسه فيرى شقاء حاله ، وسوء ماله ، وما لبث ان اخذ قلبه يضطرب ويجيش ، ونشأ عن ذلك ان دبت الروح الاسلامية فى كل بقعة من بقاع العالم الاسلامى ، فظهرت دعوة محمد بن عبدالوهاب فى جزيرة العرب ، فى مطلع القرن التاسع عشر ، وقام السنوسى بدعوته ٠٠ وشبت ثورة المهدى فى السودان ٠٠ وانتشرت هذه اليقظة بزعامة رجالها وغايتها كلها مقاومة الغرب ، وصد سيطرته وقد اتخذ كل زعيم طريقا لسعيه ومقاومته وهنا برز الى الميدان السيد جمال الدين الافغانى ٠

من هو جمال الدين ؟

يتحدث المؤلف عن نشأته فى اسداباد حيث ولد بها سنة ١٢٥٤ هـ ثم عن تلقيه للعلم وما كان من امرارحلاته إلى الهند والحجاز حيث وافى مكة فى عام ١٢٧٣ هـ وادى فريضة الحج ثم عاد إلى بلاده افغانستان ومنها رحل إلى الهند مرة اخرى ثم الى مصر وإلى تركيا حيث عين بها عضوا بمجلس المعارف ثم رحل إلى باريس ولندن ومن باريس استدعى اليه الاستاذ محمد عبده وكان منفيا فى سورية فاقاما معا فى باريس ثلاث سنين اصدرا فى اثنائها جريدة « العروة الوثقى » ولقى وهو فى باريس الفيلسوف « رينان » ونشر افكاره السياسية التى كان يحارب بها تدخل الدول الغربية فى شؤون الامم الاسلامية ٠٠ وكان ذلك فى مقالات تداولتها الجرائد الكبرى وامتدت اليها اعناق الدوائر السياسية المشتغلة بشؤون الشرق ٠

وبقى ينتقل فى اوربا بين باريس ولندن يتصل بالعلماء والكتاب ورجال السياسة وجمع مستر بلانت بينه وبين اللورد سالسبرى واللورد تشرشل للمفاوضة فى امر ثورة المهدى فى السودان ٠

بعد ذلك سافر إلى البلاد الايرانية ثم غادرها إلى روسيا ومن روسيا سافر إلى باريس يزور معرضها الكبير سنة ١٨٨٩ م

فى سنة ١٨٩٠ م ذهب إلى لندن مرة اخرى وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية « اخبار الخافقين » التى كانت تصدر بالعربية والانكليزية ٠

فى اثناء وجوده بلندن استدعاه السلطان عبدالحميد الى الأستانة حيث بقى بها الى ان توفى فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ م ٠ وصف « لوثروب » السيد جمال الدين الافغانى فى كتابه « حاضر العالم الاسلامى » فقال ٠٠ « بلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل ان يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوابا طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى اوربة بلدا بلدا فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والامم علما راسخا واكتنه اسرارا خفية واستبطن غوامض كثيرة فأعانه ذلك على القيام بجلائل الاعمال التى قام بها ، وكان بعامل سجيته وطبعه وخلقه زعيما مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ٠٠

ولقد كان اول مسلم ايقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق وادرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهب جمال الدين يضحى نفسه ، ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير فلما اشتهر امره خشيت الحكومات الاستعمارية امره وحسب له الف حساب ، ولم تخف جمال الدين دولة وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية فسجنته فى الهند مرة ثم اطلقت سراحه ٠٠ وبعد ان تكلم لوثروب عن دعوته قال : هذه دعوة جمال الدين التى افنى حياته فى سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة ، والحجج الدامغة فكانت كالغيث الجون اصاب التربة الجرداء ، ولا

عجب ان يكون جمال الدين الرجل الموقظ الكبير وتكون كل نسمة نفختها فى المسلمين عاصفة زعزعا ٠

وابان مستر « بلانت » عن نبوغه ، فقال :

« اما نبوغ جمال الدين ففى اجتهاده فى حمل الممالك التى جال فيها على ان تعيد النظر فى الموقف الاسلامى كله ، وان تستبدل بالتمسك بالقديم التحرك إلى الامام بحركات ادبية منسجمة مع العلم العصرى ، وقد مكنه علمه بالكتاب والسنة من اقامة الحجة على انهما لو احسن تفسيرهما لكان الاسلام كفؤا لاحدث تطور راق عظيم ٠

●●●

ثم يقول المؤلف : « ولما اثمرت تعاليمه التى كان يبثها لتطهير العقائد وتحرير الافكار وتبصير الناس بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، وعظم نفوذ السيد فى البلاد ، واقبلت عليه الوجوه وانصرفت اليه الاذهان شق ذلك على اعدائه فلم يدعوه يسير فى طريقه لينشر دعوته فأرصدوا له الكيد والبغى وثارت عليه الحرب من كل ناحية ٠٠

الى ان يقول مما لا خلاف فيه ان دعوة جمال الدين الاصلاحية انما كانت دعوة عامة ليست خاصة بامة من الامم ، ولا شعب من الشعوب فقد ترك فى كل الممالك الشرقية وما اتصل بها من الامم الاوربية اثرا ٠٠ وبذر فى كل ارض بذرا ٠ وقال لوثرب ايضا :

« لقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الاسلامية كلها والممالك الاوربية ذات الصلات بها ، فافغانستان وفارس وتركيا ومصر والهند اتصلت به جميعا واحست بأثره القوى الذى هزها هزا عنيفا ٠

وقال الاستاذ « براون » ان استيفاء النظر فى تاريخ السيد جمال الدين هو احاطته بتاريخ المسألة الشرقية كلها فى الازمان الحديثة يدخل فى ذلك تاريخ الافغان والهند ، ويدخل فيها بوجه خاص تاريخ تركيا ومصر وايران ٠٠ ومن هذه البلاد الاسلامية الاخيرة لايزال تأثيره حيا ٠

عرف من تاريخ السيد جمال الدين انه فى سياحاته الى اوربا قضى فى باريس بضع سنين وانه قام وهو فى هذه المدينة بعملين جليلين ـ غير ما كان ينشره فى الصحف من احاديث ـ بقى اثرهما ظاهرا على وجه الدهر ٠

احدهما : مقابلته للفيلسوف الكبير « ارنست رينان » ومساجلته اياه ، وتعريفه بحقيقة الدين الاسلامى وانه دين ينصف العلم ويمقت الجمود ، لا كما يفهمه كثير من علماء اوربا وكان رينان منهم ـ من انه عدو العلم ، وحليف الجمود ٠

وثانيهما : انشاء صحيفة « العروة الوثقى »

وقد انشئت هذه الجريدة بباريس وصدر العدد الاول منها فى جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م

وكان مدير سياستها السيد جمال الدين ورئيس تحريرها الاستاذ الامام محمد عبده رحمهما الله وقد صدر منها ثمانية عشر عددا فى ثمانية اشهر ٠

وكان اخر عدد صدر منها فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨٤ م

تكلم « تشارلز ادمس » عن الغاية التى كان يرمى اليها جمال الدين فقال :

« لقد كانت الغاية التى يرمى اليها جمال الدين والغرض الاول فى جميع جهوده التى لاتعرف الكلل : توحيد كلمة الاسلام وجمع شمل المسلمين فى سائر اقطار العالم كما كانت الحال فى ايام الاسلام المجيدة ، وعصره الذهبى ، وقد ألمه اشد الالم ان يرى الامم الاسلامية يضعف امرها وكان يعتقد ان الامم الاسلامية لو نفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الاجنبى وتحررت من تدخل الدول الاجنبية فى شؤونها لاصبح المسلمون قادرين على تدبير امورهم تدبيرا حسنا دون ان يعتمدوا على الامم الاجنبية ويصطنعوا وسائلها وكان يعتقد ان الاسلام فى جميع

مسائله الجوهرية دين عام للعالم اجمع قادر بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة فى كل جيل ..

ويتحدث عنه المؤرخ الكبير « عبدالرحمن الرافعى » فيقول : « ان الامم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير السيد جمال الدين الافغانى .

ظل الشرق قرونا عديدة رازحا تحت نير الجمود الفكرى والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، وبقى فى سبات عميق إلى ان قيض الله له الحكيم الافغانى « جمال الدين » ففتح فيه روح اليقظة والحياة ، واهاب بالنفوس ان تنهض وتتحرك ، وبالعقول ان تستيقظ ، وبالامم والجماعات ان تتطلع إلى الحرية فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة .. وإذا اردنا ان نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين .. فلنذكر انه كان فى حياته « مصلحا دينيا » و « فيلسوفا حكيما » و « زعيما سياسيا » فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية واضطلع بها معا .

فأدى من الناحية الدينية مهمة الاصلاح والتجديد .. وأهاب بالامم الاسلامية أن تفهم الاسلام على حقيقته ، وترجع إلى مبادئه الصحيحة .. وفطرته الاولى ، وتطهره من الاوهام والخرافات التى افضت إلى تأخر المسلمين . ومن الناحية الفكرية : عمل على انارة البصائر .. وتوجيه الافكار إلى البحث عن الحقائق وتحرير العقول ..

ومن الوجهة السياسية : استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة وغرس بذور الحركات الوطنية ، فى مختلف بلاد المشرق ، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب كواشنطن ، وغاريبا لدى ومازينى وغيرهم .

● ● ●

من اقوال جمال الدين :

فى فصل بعنوان « الاعتدال فى اصول الاخلاق والفضائل انما

يكون بالدين » يقول : « يرشدنا رائدنا الحق إلى ان الاعتدال فى أصول الاخلاق ، والتحلى بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها ، انما يكون « بالدين » ولن يتم اثر الدين فى نفوس الآخذين به ، فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد اليه ، فيتمتعوا بحياة طيبة ، وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته باداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها فى العقول ٠٠ ودعوة الناس إلى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها ٠

اما إذا اهمل خدمة العلم وظائفهم ، او تهاونوا فى تأدية اعمالها ٠٠ ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية واظلمت البصائر بالغفلة ، وتحكمت الشهوات البهيمية ٠ وتسلطت الحاجات المعيشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ٠٠ فحشدت الى الانفس اوقاد الرذائل فيحق على الناس كلمة العذاب ، ويحل بهم الشقاء ٠

ويقول فى فصل آخر : « المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل فى ملكهم وولايتهم - من البلدان - وكلهم مأمور بذلك ، لافرق بين قريبهم وبعيدهم ٠٠ ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ٠٠ وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم - كان على الجميع اعظم الآثام ٠٠ ومن فروضهم فى سبيل الحماية ، وحفظ الولاية ، بذل الاموال والارواح ٠٠ وركوب كل صعب واقتحام كل خطب ٠٠ ولايباح لهم المسالمة مع من يغالبهم ، فى حال من الاحوال ٠٠ وسأله مرة من حوله عن معنى التمدن ، او العالم المتمدن ، واشاروا الى بعض امم الغرب بوصفهم انهم هم المتمدنون بأفرادهم ومجموعهم فأجاب : « لايقدر الفرد ولا تقدر الامة ، ولا تقدر الاشياء ، ولا تقدر المكتسبات العلمية الا بنسبة مايترتب على ذلك من الفائدة ٠

فلنأخذ من ذكرتم من الامم المتمدنة ، ومكتسباتهم العلمية وما

صنعوه وعملوه وكسبوه وربحوه وما ترتب على ذلك ، ومـا حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات والمدنية والثروة ، ثم نعدد ما رأينا هل رأينا غير مدن كبيرة وابنية شامخة ·· وقصور مزخـرفة ومعامل ومصانع ومعادن ومناجم ، واحتكار تجارات ·· اتت لهم بكنوز وثروات ؟

ثم هل غير التفنن فى اختراع المدافع المروعة والمدمرات والقذائف وبـاقى المخربـات القاتـلات للانسان التى تتبـارى تلك الأمم الراقية فيها ؟ ·

لو جمعنا كل مافى ذلك من المكتسبات العلمية ، وما فى مدنية تلك الامم من خير ووضعناه فى كفة ميزان ·· ووضعنا فى الاخرى الحروب وويلاتها ·· لاشك ان كفة « المكتسبات العلمية والمدنية والشرف » هى التى تنحط وتغور ·· وكفة الحروب وويلاتها هى التى تعلو وتفوز ··
فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو وفى تلك النتيجة ان هو الا جهل محض ·· وهمجية صرفة ·· وغاية التوحش ··

ثم قال : « وعندى ان الانسان اليوم هو احط درجة من انسان الجاهلية لانه ربما يكون للانسان فى دوره الاول ·· فى حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية معـذرة فى طلب الحاجـات للحياة : بسهم وقـوس ، وسيف ، وسمهرى ··

● ● ●

ولنستمع ـ اخيرا ـ فى ختـام هذا العـرض ·· الى رأى السيد جمال الدين فى المرأة وتنديده بالذين بدأوا ـ فى عهده ـ بترديـد دعوة مساواتها بالرجل فى كل شىء تقليدا للغرب ·· قال السيد جمال الدين :
« ليس من يحط من قدر المـرأة ، ويمتهن خلقها ، ويـدهورهـا لدركات الابتذال ، الا ذلك الذى يغريها على ترك مملكتها وبيتها ، وان

تزاحم الرجل فى شقائه بجلب العيش ـ الذى لو فرضنا انها افادت بعض الفائدة المادية فيه وعاونت به ـ لاشك ان الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره ، والطفل وتربيته ٠٠ اعظم بكثير من تلك المنفعة التى لاتبقى على الاخلاق ، ولاتفسد الا الانساب والاعراق ٠٠





رجال من التاريخ

الشيخ علي الطنطاوي

لمؤلف هذا الكتاب ، الشيخ على الطنطاوى الكاتب الاسلامى المعروف ، اكثر من عشرين كتابا قيما فى الادب والتاريخ والاجتماع ، وفى غيرها من الموضوعات ·

وليس الشيخ الطنطاوى فى حاجة إلى أى تعريف أو اشارة ، فشهرته فى العالم العربى كله ، تغنيه عن ذلك ·· فلنمض معه فى كتابه هذا الماتع : « رجال من التاريخ »

انه كتاب يضم بين دفتيه اكثر من ثلاثين حديثا اذاعيا اذاع الكاتب الفاضل قسما منها من اذاعتنا ، والقسم الآخر من الاذاعة السورية ·

يتحدث الشيخ الطنطاوى فى كتابه هذا ، عن رجال من التاريخ ·

أفذاذ بحق .. يسمو ويعتز بهم تاريخ الانسانية .. رجال من التاريخ .. كان كل واحد منهم مثلا أعلى للرجولة ، ولمكارم الأخلاق .

رجال من التاريخ ، يكفى ان سيد الرجال جميعا « محمد » يكون فى طليعتهم وعلى رأسهم صلوات الله عليه ·

ثم يكفى - بعد ذلك - ان يكون منهم خالد بن الوليد أعظم قائد عرفه التاريخ ، وان يكون منهم سعد بن أبى وقاص قاهر كسرى ، وأن يكون منهم قتيبة : فاتح المشرق ، وأن يكون منهم عمر بن عبدالعزيز ، ونور الدين زنكى ، وصلاح الدين الايوبى ولا أنسى ان أشير كذلك إلى

حديث الكاتب المتع عن « معلمة الرجال » أم المؤمنين عائشة ٠٠ وحديثه الآخر عن اختها اسماء ذات النطاقين ٠

ولنستمع ـ اولا ـ إليه فى حديثه عن محمد صلوات الله عليه فى يوم الهجرة ، إذ يقول :

« حين نقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نمر بخبر الحادث المدهش فلا نكاد من الفتنا اياه ، وتكرار سماعه ، نفكر فيه او ندهش منه ، ولو سمعنا الان أن رجلاً أميا ، لم يدخل مدرسة ، ولم يحضر حلقة علم ، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة وقام مع ذلك كله فى قرية منعزلة ٠٠ فى صحراء واسعة ، ليصلح وحده الدنيا كلها ، ويمنع الحروب منها ، وينزع سلاح الدول القوية العاتية ، ويكلفها بأن تترك دنياها وعتوها ، وان تتبعه ٠٠ لبلغت بنا الدهشة أبعد الغايات فكيف ان سمعنا بعده ، بأن هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء والمساكين ، وانه حمل هو وهؤلاء النفر أشد انواع الاذى الجسمى والنفسى ، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتا ليس له نظير فى تاريخ البشر ٠٠ وكيف لو سمعنا بأن هذا الرجل قد نجح ، وانه لم تمض على دعوته ثلاثون سنة حتى خضعت له أكبر دولتين فى الدنيا اليوم : روسيا وامريكا مثلا ، واتبعتا ما جاء به ، وقبل به وتحمس له شعباهما : حتى سبقا فى ذلك اتباعه الاولين ؟

وان هذا الرجل الامى الذى لم يتعلم ، قد جاء بكتاب هو دستور ، وهو قانون مدنى ، وهو قانون للاحوال الشخصية وهو قانون جزائى ، وهو قانون دولى ، وهو مذهب اخلاقى ، وفيه تاريخ ، وفيه لفتات علمية عجيبة وفيه رفع للنفس البشرية إلى أعلى اجواء الطهر والعبقرية ، وهو بعد ذلك مكتوب بأسلوب لايمكن أن يجاريه انسان ، أو يجىء بمثله لانه جاوز أرفع طبقات البلاغة البشرية ؟ ٠٠ وان هذه الدعوة لم يكن نجاحها فورة سريعة ، ولا كانت وثبة كنار القش تشب فى لحظة ، وتخمد فى لحظة ، بل كانت شيئا أخلد من الخلود وأبقى من الدهر وانها بعد مامر عليها اربعة عشر قرنا من الزمان وبعد مابلغت آفاق الدنيا لاتزال فى

نفوس اتباعها على القوة التى كانت عليها فى ابتدائهـا ، ولاتزال عـلى صفائها وطهرها ، كلما علقت بها أوضار الزمان ، انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت ٠

كم يكون عجبكم من هذا الرجل ، لو ظهر مثله من جديد ؟ هذا هو الذى صنعه محمد ٠٠ هذا هو بالضبط ٠

وعلى هذا النحو يمضى فى حديثه عن رسولنا الكريم ٠

● ● ●

وفى حديثه عن « معلمة الرجال » يبدأ الحديث بقوله « هذا الحديث عن السيدة التى اثبتت للدنيا منذ اربعة عشر قرنا ان المرأة يمكن ان تكون اعلم من الرجال حتى يتعلموا منها ٠

ثم يقول : لم تتخرج فى الجامعة ، ولم تكن فى أيامها الجامعات ولكنها كانت ، ولاتزال كما كانت ، تدرس آثارها فى كلية الآداب ، كما تدرس أبلغ النصوص الادبية ، وتقرأ فتاواها فى كليات الدين ، كما تقرأ الاحاديث النبوية ، ويبحث أعمالها كل مدرس لتاريخ العرب والاسلام !

امرأة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس ، على مر الدهور : ذلك لانه اتيح لها مالم يتح لاحد ، فلقد تولاها فى طفولتها شيخ المسلمين وأفضلهم أبوها الصديق ، ورعاها فى شبابها خاتم الرسل ، واكرم البشر زوجها رسول الله فجمعت من العلم والفضل والبيان ، مالم تجمع مثله امرأة أخرى ٠

كانت امرأة كاملة الانوثة ، تؤنس الزوج ، وترضى العشير ٠ وكانت عالمة ، واسعة العلم ، تعلم العلماء ، وتفتى المفتين ٠٠ وكانت بليغة بارعة البيان ، تبذ الخطباء ، وتزرى باللسن المقاويل ٠ وكانت لقوة شخصيتها زعيمة فى كل شىء ، فى العلم وفى المجتمع ، وفى السياسة وفى الحرب ٠

ثم يقول الكاتب الفاضل : اما علمها فقد بلغت فيه الغاية حتى قال ابوموسى الاشعرى : كنا أصحاب رسول الله إذا اشكل علينا أمر سألنا عائشة ٠

●●●

وفى حديث عن اختها اسماء ذات النطاقين ٠ يقول : « سيدة ذات مبدأ ٠٠ وفت له ، وثبتت عليه ، سيدة شاركت فى اجل الاحداث ، فى السلم وفى الحرب ، سيدة كانت ربة بيت صبرت على مـره ، ولم تبطر بحلوه ، سيدة كان لها من نبل القلب ، وكبر العقل ، وثبات الاعصاب مالم يكن مثله الا للقليل من عظماء الرجال ٠

وفى قصتهـا بعد ـ عبـرة للنساء وأمـل لمن ابتليت بـالفقـر من الزوجات ، واثبات لمن يحتقر النساء ان المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال ٠٠ هى اسماء ذات النطاقين أسماء العظيمة ٠٠ العجوز التى وقفت يوم مقتل ابنها موقفا لا تقوى عليه صناديد الرجال ٠

وعلى هذا النحو ، وفى تحليل رائع سديد ، يواصل الاستاذ الكاتب أحاديثه النابضة عن كل من سيف الله خالد وعن سعد بن أبى وقاص ، وعروة بن الزبير ، وعمر بن عبدالعـزيز وقتيبـة بن مسلم ، ثم الامام الاعظم أبى حنيفة وغيرهم وغيرهم من العظماء والابطال ٠

ونقف الان امام واحد منهم ٠٠ واحد من هؤلاء الرجال انه رجل له تاريخ ضخم ، ناصع مشرق ، رجل تأخر به الزمن ولكنه مع ذلك يقف جنبا إلى جنب مع رجالنا الاوائل من القادة والفاتحين ٠٠ انه المجاهد البطل « نور الدين زنكى » الرجل الذى مهد الطريق لصـلاح الدين ، ووضع له الاساس ، وشرع له المنهج ، وكان امامه وقدرته فى كل نصير !

« أحد الرجال الذين لم يعرف تاريخ البشرية كلها أطهر منهم نفوسا ، ولا اقوم سيرة ولا اعظم اثرا »

« اخذ البلاد وهى دول وامارات كل بلد دولة ، وكل قرية حكومة

وتركها وهى دولة واحدة ، تشمل الشام ومصر وأعالى الفرات ، وما ظلم احدا ، ولا قتل مسلما ، ولا أراق الدم الحرام »

« حقر الدنيا ، وزهد فى أبهة الحكم ، وبريق السلطان ونذر نفسه لله ·· للغايتين اللتين سعى اليهما : وحدة المسلمين وقهر الافرنج ·· وما حاد قط عن طريقهما ·

وكان قائدا منقطع النظير ، له قلب ملؤه الايمان ، فلا يعرف الجزع الطريق اليه ، وكان يقول لو كان معى ألف فارس لا أبالى بعدو ·· ووالله لا استظل بظل جدار ابدا ·

اعترضه مرة نهر الفرات فابتغى مخاضة دله عليها دليل تركمانى ، فخاضه والجيش كله من ورائه فانهزم الاعداء من الدهشة والرعب ، قبل أن يهزمهم وقع الحسام ·

وكان يأسف على انه لم يرزق الشهادة ، ويقول تعرضت لها غير مرة فلم تتفق لى ·· ولو كان فِىَّ خير ولى عند الله قيمة لرزقت الشهادة ·· ترك الأذان بـ « حى على خير العمل » وهى بدعة الفاطميين وعاد إلى الأذان الشرعى ·

وكان يتبع السنة ، ويقف عند حدود الشرع ، منع الخمر فى بلاده ، وازال المنكرات ورفع الضرائب والمغارم ، وكان فى عدله آية الآيات ، وقف مع خصمه امام القاضى الشهر زورى ، وانشأ فى دمشق دار العدل ، واقام البيمارستان النورى ·· وكان مستشفى كأرقى مستشفيات الحضارة اليوم وملأ البلاد بالمدارس ، ودور الحديث ومعاهد الخير ولبناء المستشفى قصة طريفة : اسر مرة ملكا من ملوك الافرنج ، فسأل ان يفتدى نفسه ، فقبل منه الفداء ، واخذ منه ثلاثمائة الف دينار خصها للمستشفى ولدار الحديث النورية ·

ثم يتحدث عن صلاح الدين : صلاح الدين الأيوبي : فاتح القدس ، وبطل حطين !

هذا الذى أخذ الدنيا بسيف الظفر ، ثم جاد بها بيد الكرم ، هذا

الذى ردع أوروبا مرتين : مرة حين قهر جيوشها بسيفه ، ومرة حين شد نفوسها بنبله ، هذا الذى كان النموذج الأتم للقائد المنصور وكان ، المثل الأعلى للحاكم المسلم ، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل والمسلم الصادق ، وكان المحرر الأعظم ، حرر الشام وفلسطين من استعمار الأوربيين بعدما استمر نحوا من مئة سنة !

هذا الذى انتزع من أصدقائه ومن أعدائه ، أعظم الاعجاب وأصدق الحب ، وترك فى تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد وأعظم السجايا ، وكان اسمه من أضخم الأسماء التى رنت فى سمع الزمان ، ودوت فى أرجاء التاريخ وخلدت على وجه الدهر : « صلاح الدين الأيوبي » !

سقطت على أقدامه الدول ، ودانت له الرقاب ، وانقادت اليه الخزائن ، ومات ولم يخلف الا سبعة وأربعين درهما ودينارا ذهبيا واحدا ، ولم يترك دارا ولا عقارا ، فجهز ، واخرجت جنازته ـ كما يقسم القاضى ابن شداد ـ بالدين !

ثم يقول الأستاذ على الطنطاوى : « لقد قرأت سيرة صلاح الدين مرارا ولكنى عدت أنظر فيها قبل أن أكتب هذا الفصل فقرأت فى سيرته وحروبه أكثر من الف مرة ألف صفحة ، فكان من أعجب ما وجدت أن ينبغ هذا الرجل العظيم « جدا »و فى ذلك الزمان الفاسد « جدا » وأن يتغلب على العدد القوى « جدا » ٠

●●●

كان المسلمون قبل نور الدين وصلاح الدين ، على شر حال من الانقسام ٠٠ على حال لايمكن أن يصل إلى توهمها وهم واحد مهما بالغ فى تصور الشر ، كان فى هذه البقعة الضيقة من الوطن الاسلامى من الدول بمقدار ما كان فيها من البلدان !

وكانت قد داهمت الشام قبل صلاح الدين حملتان صليبيتان ٠٠ جاءتا كموج البحر ٠٠ لهما أول وليس لهما آخر ساقهما الطامعون فى

هذه البلاد باسم الغيرة على النصرانية وانقاذ أرض المسيح من أيدى الوحوش الضوارى ، ذوات الأنياب والمخالب : « المسلمين » !! وكانت لهم دول ، دول لا دولة واحدة ·· فلهم فى القدس مملكة ، وفى أنطاكية إمارة ، وفي طرابلس وفى الرها حكومة ، ولهم فى يافا « كونتية » ·· دول وامارات طالت جذورها ، وبسقت فروعها ، وعششت بومها ، وباضت وفرخت ·· وحسب أهلها ، وحسب المسلمون أنها امتلكت الشام إلى الأبد !

فكيف استطاع صلاح الدين أن يصنع من ضعف المسلمين قوة ·· حتى واجه بهم أوروبا كلها ، وأزال ـ ما امكن ـ من بقايا الحملتين الماضيتين ، ورد الحملة الثالثة الهائلة التى رمته بها أوربا ؟
أتدرون كيف ؟ ··

انه مارد العدو بعدد المسلمين ولا بعددهم ، ولكن بالسلاح الوحيد الذى لاينفع فى هذا المقام غيره ·· « بالايمان » !

غير ما كان بنفسه من الفساد فغير الله على يديه ماكان فى قومه من الضعف والتخاذل ·· كان يلهو ويعطى نفسه هواها ، فتاب وأناب !
استمد أخلاقه وسيرته من ارث محمد صلى الله عليه وسلم فى التقوى والصلاح فأعطاه الله ارث محمد فى الغلبة والظفر ·
تمسك بالدين ، وأقام دولته على أساس من الاسلام متين فاستطاع بهذه الدول المتفرقة الجاهلة الهزيلة ·· ان يحارب أوربا كلها ، أوروبا الحانقة المتعصبة ، التى اجتمع ملوكها جميعا على حرب فلسطين ! إلى أن يقول : استرد القدس بعد ما ملكها الأفرنج احدى وتسعين سنة ، أفتشكون فى استردادها اليوم ·· استردها وحولها يحامى عنها دول أوربا كلها وملوكها أفلا نستردها اليوم وحولها حفنة من شذاذ الآفاق ؟

لقد كانت للصليبيين دول ، استمرت أكثر من مئة سنة فأين تلك الدول ؟ ولم نكن على مثل انتباهنا اليوم ؟

ان الأمـة التى أخرجت صـلاح الدين ، وهى أسوأ من حـالنا اليوم ، وأشد انقساما وأكثر عيوبا ، لاتعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين .



نحـــن والقـــرآن

الأستاذ محمد عبد الله السمان *

مشكلة العالم الاسلامى الأساسية ، مشكلة تخلفه المشاهد فى العصر الحاضر ، والذى هو دون شك · ثمرة عهود طويلة موغلة فى القدم ·· هذه المشكلة لن تعدو فى حقيقتها أن تكون سوى مشكلة انحراف المسلمين أنفسهم ، عن تعاليم الاسلام ··

انحرافهم عن تعاليم دين سمح قويم ، أراده الله أن يكون خاتمة أديان السماء ، وأوفاها جميعا بمطالب الانسان فى دنياه وأخراه ! ·

والانحراف عن تعاليم الاسلام هو الانحراف عن تعاليم القرآن ·· لقد جاءنا هذا القرآن المعجز ، جاءنا به من عند الله رسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ليكون لنا نورا يهدينا سواء السبيل ويكون لنا هدى ورحمة ، وتبيانا لكل شىء ··

لقد أكرمنا به الله لا من أجل أن نكتفى بتلاوته وحفظه فحسب وانما من أجل أن نتدبر معانيه ، وأن نعمل به ، وأن نجعل منه فى كل حركاتنا وسكناتنا « دستورنا الدائم » فى الحياة !

وواضح انه منذ أن كان المسلمون الاوائل يطبقون هذا الدستور السماوى الكريم ويعملون به كاملا غير منقوص ، كانوا خير الأمم وكانوا سادة الأمم وكانوا أعظم الناس !

جاءت بعد ذلك عصور ، تراجع فيها المسلمون ·· جاءت عصور ، تخلفوا فيها عن غيرهم ، وتواروا عن الأنظار ، واستطال بهم حثالات من البشر ·· وأحاط بهم غزاة حاقدون ، تكالبوا عليهم من كل

جانب ٠٠ ولم يكن سر كل هذا التبدل ، أو هذا الانقلاب الخطير فى حياة الشعوب الاسلامية ، وما أصابهم ـ من جرائه ـ من تخلف مريع ، ومن تخاذل وضعف سوى انحرافهم عن تعاليم اسلامهم وتعاليم قرآنهم ٠٠٠

●●●

كل هذه الخواطر خطرت فى ذهني وأنا اطالع كتابا قيما فى هذا الموضوع : موضوع المسلمين فى هذا العصر وموقفهم من القرآن ..

ولقد قرأت الكتاب فى عناية واهتمام ، وفى حسرة وأسف أيضا ٠٠ اذ رأيت الموضوع قد وصل حقا ـ كما يشير إلى ذلك الأستاذ السمان مؤلف هذا الكتاب « نحن والقرآن » ٠٠ إلى درجة من الخطورة لم يعد يجدى فيها صياح ٠٠ أو مجرد الكتابة ، ومجرد الكلام !

وفى الحق ٠ لقد رأيتها مناسبة ـ وما أجلها مناسبة ـ أن أعرض لجوانب رئيسية من هذا الكتاب فى هذا الوقت بالذات حيث ينعقد مؤتمرنا الاسلامي الكبير فى مهد الاسلام ٠٠ بعد أن دعت اليه الرابطة الاسلامية ولبى دعوتها اليه علماء كرام ورجال فكر ممتازون من خيرة رجالات الاسلام ، لعل فى عرض هذه الجوانب ما « يبلور » المشكلة ٠٠ أو ما قد يلفت الأنظار بصورة أخص إلى أصل المشكلة ، والي مصدر الداء ، وليس فى رجالاتنا المجتمعين فى هذا المؤتمر من لم يعرف ذلك حق المعرفة من قبل ٠٠ فكل منهم له سابقته المشرفة فى مجال الدعوة الاسلامية ٠٠

اننا نأمل ونرجو ٠٠ نأمل ونرجو أن يكون هذا المؤتمر فاتحة طيبة لتحقيق ما يدعو اليه مؤلف هذا الكتاب من اجراءات لاتقف عند مجرد القرارات ٠٠

يبدأ المؤلف حديثه فيقول : الذين يكتفون بتلاوة القرآن آناء الليل واطراف النهار ٠٠ والذين يكتفون بحفظ القرآن عن ظهر قلب ٠٠

والذين يكتفون بأنهم حين يسمعون القرآن يتلى ، يتأوهون ويتحمسون بجلال الخشية ٠٠

هؤلاء جميعا لم يقدر لهم بعد أن يفقهوا القرآن ، ولو قدر لهم أن يفقهوه لايقنوا أن تلاوة القرآن دون تدبر لامعنى لها ٠٠ وان حفظ القرآن دون فقه لاقيمة له ٠٠ وأن اقتناء المصاحف الفخمة لمجرد الهواية امتهان لكتاب الله عز وجل ، ولأيقنوا بعد ذلك أن التأوه والتمسح بجلال الخشية حين يتلى القرآن ضرب من النفاق والخداع المزريين ٠

وقد يسأل سائل : متى نفقه القرآن ؟ وكيف نفهمه ؟

ومثل هذا السؤال لايحتاج إلى عناء أو مشقة ٠٠

فنحن نفقه القرآن حين نحدد مهمته الأصلية أولا ٠

ونحن نفقه القرآن اذا نحن تدبرنا آياته ٠٠

وتحديد مهمة القرآن أولا واضح كل الوضوح من آيات القرآن نفسه ، وأولى عناصر هذه المهمة تدبر الآيات نفسها ، وهذا التدبر بمثابة نافذة إلى أعماق القرآن ٠٠

« كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »

تدبر الآيات وحده لايكفى ، بل لابد من أن يتعظ وينتفع بهذا التدبر ذوو العقول ٠

وخصت الآية ذوى العقول لأن غيرهم لايمكنه أن ينتفع ، ولا يكون موقفه من تلاوة القرآن الا كموقف البوق الذى يردد مالايفقه ٠٠

والذين فقدوا حاسة التدبر أثبتوا أن قلوبهم مغلقة ، باعتبار القلوب مصادر لاشعاعات الفكر ، وانارة العقل ، والقرآن يخاطب الذين فقدوا حاسة التدبر فحرموا نور الهداية بقوله :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ٠

« والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى » ٠

العنصر الثانى من عناصر مهمة القرآن هو الهداية التى هى نتيجة حتمية للتدبر والتذكر ، الهداية إلى أقوم حياة فى الدنيا ، وأكرم حياة فى الآخرة ٠٠

ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ٠٠ فى الدنيا ٠

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ٠٠ فى الآخرة ٠٠

وهداية القرآن نوعان :

هداية من ظلمات إلى نور ٠٠ ومن جهالة إلى معرفة ٠٠ وهي تختص بالذين ينقلهم القرآن من الشك إلى اليقين ، ومن الكفر والشك إلى الايمان والوحدانية ٠٠ « كتاب **أنزلناه** اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ٠ « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ٠٠

وهداية إلى أسرار القرآن نفسه وهي تختص بالمؤمنين العارفين الذين شرح الله صدورهم للقرآن ، وهيأ عقولهم لفقه عظمة التنزيل ٠٠ فهداية القرآن لهم تزيدهم ايمانا على ايمانهم ويقينا على يقينهم : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » ٠

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين » ٠

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ٠

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من **نشاء** من عبادنا » ٠

● ● ●

العنصر الثالث من عناصر المهمة القرآنية هو أن يكون القرآن مرجعا لسلوكنا ومرجعا لنظمنا أى دستورا للحياة ، يهذب سلوك الفرد والجماعة ، وينظم العلاقة بين الناس من جهة ٠٠ ومن جهة أخرى

يهيمن على العلاقة بين الدولة والجماعة ومن جهة ثالثة يهيمن على العلاقة بين الدولة وغيرها من الدول ٠

فالقرآن الذى أنزل ليكون تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين لابد أن يكون صالحا كأساس للنظم والتشريعات التى ترقى بأمته ٠

٠٠ والقرآن الذى أنزل على رسوله بالحق لابد أن تكون له مهمة أصيلة ٠٠ هي اقرار العدالة فى الأرض ٠٠ ولن يتمكن من أداء رسالته اذا لم يكن مرجعا فى الحكم ومصدرا للتشريع وأساسا فى التنظيم ٠٠

● ● ●

العنصر الرابع : تيسير الحياة على الناس ٠٠ عن طريق تيسير شريعته ومرونتها ٠٠

وعلى الرغم من أن أوامر القرآن ، ونواهيه قد تبلغ من الشدة منتهاها الا أن الرحمة تجد طريقها خلال هذه الشدة منتهاها ، ولا تكاد تعثر على حكم قراني قطعى دون أن تجد الرحمة منفذا اليه ٠٠

ويكفى أن يعلن القرآن : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ٠٠ فبينما تقرأ قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » تقرأ أيضا قوله تعالي : « فاتقوا الله ما استطعتم » وبينما نرى التحريم نهائيا للميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به تلمس منفذ رحمة لمن اضطر غير باغ ولا عاد ٠٠

والمرونة والتسامح فى التشريع القرانى كله ٠٠ فى تشريع العبادات والمعاملات على السواء ٠٠ والا لما قارن القرآن فى كثير من آياته أنه هدى ورحمة ٠٠ والا لما كان الرسول الذى أنزل عليه القرآن رحمة مهداة ! ٠

● ● ●

الواضح الذى لالبس فيه أن هناك مجالين للقرآن يجب على المسلمين أن يعملوا فيهما ٠٠

المجال الأول : مجال البحث والنظر المبنيين على التدبر فى آيات القرآن نفسها للوقوف على سر أسرارها ·· واستيعاب أوجه الاعجاز فيها ، ومواضع العبرة والعظة منها ··

والمجال الآخر : هو مجال التطبيق العملي ··

ومجال التطبيق ملزم به الأفراد والحكومات للدول المسلمة ·· أما الأفراد ، فالتطبيق العملي انما يقع على سلوكهم ولا أظن أن لمسلم عذرا فى الا يطبق القرآن على سلوكه الشخصى ولو كان هذا المسلم أميا أو نصف مثقف لأن المطلوب من المسلم أن يفقه دينه ولا يتيسر له فقه دينه دون أن يفقه كتاب الله عز وجل ·

وأما الحكومات فى الدول المسلمة فالتطبيق العملي للقرآن يكون فى تنظيمات الدولة الدستورية والقانونية والتوجيهية ولا عذر لحكومة دولة مسلمة أن تضع القرآن جانبا لتطبق نظما وافدة من الغرب آنا ·· ومن الشرق آنا ·· ولا أظن حكومة دولة مسلمة تتحرى شيئا من المنطق أو العدل ·· اذا زعمت أن في التشريع الاسلامي قصورا يعجز بـه عن ايجاد حياة طيبة أو أن هناك عقبات لم تزل على الطريق ·· اللهم الا اذا كانت هذه الحكومة فى دولة تحيا فى كنف الاستعمار ·· أو هي أداة من أدواته ··

ويمكن أن نتسـاءل ـ يقول المـؤلف الفاضـل ـ : أين نحن من القرآن فى مجال النظر والتطبيق ؟ ·

● ● ●

ثم يتساءل المؤلف : هل نحن فى حاجة إلى تفسير جديد للقرآن ؟ ويجيب : لاريب فى أننا فى كل زمان ومكان فى حاجة إلى تفسير للقرآن ·· لأن الجدة يجب أن تلازم القرآن فى كل عصر · وسيظل القرآن بكرا إلى أن تقوم الساعة ·· ولكن التفسير الجديد الذى نريده يجب الا يكون موسوعة ·· أو دائرة معارف ·· فلدينا من هذا اللون ـ والحمد لله ـ الكثير ·· ولا أعتقد أن عصر السرعة هذا سيجود فى يوم من الأيام من

العلماء بأمثال : الطبرى ، والقرطبى ، والفخر الرازى ، والألوسي وابن كثير ، والزمخشرى ، ورشيد رضا ·· وانما يجب أن يقدم المعاني القرآنية التى تحدد مقاصد القرآن وتستوعب توجيهاته وتبرز أسرار آياته ، دون أن يكون للمفسر مذهب عقيدى أو فكرى لأننا يجب أن نضع القرآن ـ كما أراده الله ـ فوق مذاهبنا وأهوائنا ··

● ● ●

أما فى مجال التطبيق العملي فيقول المؤلف :

ان مجال التطبيق العملي يتجه اتجاهين :

اتجاه نملكه ولا عذر لنا اذا تخلفنا أو تنكبنا طريقه ، هذا الاتجاه يتمثل فى سلوكنا نحن ، ولا أظن أن أية عقبة يمكن أن تعترض المسلم اذا أراد أن يطبق القرآن على سلوكه الخاص فى نفسه ، وفي بيته على السواء ··

ولا أقصد بالطبع أن نتظاهر بالتمسك بآية أو أكثر من آيات القرآن فى مجال التربية والتوجيه بل أقصد أن يكون القرآن كله منهاج حياة المسلم فى كل شأن من شؤونه باعتباره لبنة فى بناء المجتمع واذا استقام الفرد استقام المجموع ! ·· وحدود القرآن لاتقف عند آيات الحدود المعروفة من السرقة والزنا وغيرها ، لأن كل آية من كتاب الله أخلاقية كانت أم تشريعية هي حدود من حدود الله سبحانه ، وكل آية فيها أمر أو نهي هي حد أيضا من حدود الله عز وجل ·

هذا هو الاتجاه الأول الذى نملكه ·· وهو الذى يتصل بسلوكنا ·· أما الاتجاه الآخر الذى نملكه فى التطبيق العملي بسلوكنا ·· فهو التشريع القرآني ، لأن ولاة أمور المسلمين هم الذين يتوقف عليهم تنظيم الدولة المسلمة على أساس من التشريع القرآنى فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ··

ومجرد الكتابة عن حكم القرآن يثير الأعصاب ، والمشلكة لاتتعدى واحدا من ثلاثة :

أما أن يكون تشريع القـرآن غير صـالح لتنظيم الدولة ، ولذلك لاتثريب علينا ، اذا نحن استوردنا تشريعات الشرق والغرب وتشريعات مضى عليها عشرات القرون !

وأما ان يكون تشريع القرآن صالحا لتنظيم الدولة ولكنه لم يجد العلماء الذين لهم القدرة على تهيئة أذهان ولاة الأمور للأخذ به فى تنظيم الدولة ، وعنـدئذ يكـون بعض العذر لولاة الأمـور أن يستـوردوا من التشريعات ما شاءوا لدولهم ٠

وامـا أن يكون ولاة الأمـور فى بلاد المسلمـين يضيقون ذرعـا بالتشريع القرآنى ٠٠ اذ يجدون انفسهم مرتبطين بنصوص دستـور ومواد قانون لاتقبل المناقشة ٠٠ ولم تجرؤ حكومة دولة اسلامية بعد على القول بعدم صلاحية التشريع القرآنى لتنظيم الدولة ٠٠ ولم يوجد بعد كذلك علماء الدين الذين فكروا جديا فى أن يهيئوا أذهان ولاة الأمور فى بلادهم بضرورة اعتبار تشريع القرآن مصدرا أساسيا لتشريع الدولة الدستورى والقانوني ٠

بقى الأمر الثالث وهو أن معظم ولاة الأمور فى الدول الاسلامية يضيقون بتشريع القرآن حقيقة واضحة ، وان كانوا لايجهرون بذلك مراعاة لعواطف الشعوب المسلمة ٠٠ وليس خوفا من شعوبهم بالذات ولذلك فهم يتمسكون بالتشريعات المستوردة ٠٠

ويتابع المؤلف كلامه فى هذه الناحية ٠٠ ثم يضيف قائلا : ٠٠ ومن المؤلم حقا أن لدينا كتابا اسلاميين ٠٠ وعلماء دينيـين لم يزالوا يخطبون ويحاضرون ويكتبون ٠٠ ليؤكدوا ان تشريع القرآن من أجل التشريعات القديمة والحديثة معا ٠٠ وانه كفيل باسعاد الفرد والمجتمع والدولة ٠

وكأن الذى ينقصنا فقط هو الاقناع بصلاحية التشريع القرآنى أما الخطوات الايجابية نحو تحقيق غاية القرآن ، وهو تطبيق تشريعه على حياة المسلمين فهذا شىء لايطرأ على ذهن بل هناك أمـر أيسر من

ذلك ، فابعاد التشريع القرآني عن حياة المسلمين مضى عليه عشرات السنين ·· فهل فكر العلماء والمفكرون والاسلاميون فى عمل ايجابي لاتعقيد فيه ؟

هل فكروا فى أن يعقدوا مؤتمرا اسلاميا ليطالبوا على أساسه ولاة الأمور بالأخذ به ؟

عشرات المحاضرات ألقيت لمناقشة صلاحية القرآن كأساس لتشريع يحقق للشعوب المسلمة حياة أفضل ··

وعشرات الألوف من الصفحات كتبت فى هذا المجال بأقلام كبار علماء الدين وفقهاء القوانين الوضعية المتدينين ·

وألوف البحوث المقارنة سجلت أيضا من التشريع والتشريعات الوضعية منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا ·· وأثبتت تميز التشريع السماوى على غيره من التشريعات غير السماوية ··

كل هذا جميل ·· ولكن أين : صيغة الدستور القرآني الذى يطالبون به ؟

لماذا لايتفق علماء المسلمين جميعا فى سائر البلاد الاسلامية على وضع صيغة لدستور قرآنى ، ويقومون بالدعوة اليه ؟

● ● ●

·· لسنا هنا بصدد الحديث عن صلاحية التشريع القرآنى لحياة المسلمين ·· لأننا منذ أن أبعد هذا التشريع عن حياتنا ، ونحن لم نتوقف عن هذا الحديث ، ولم يدل علماء الشريعة وحدهم بدلوهم فى هذا المجال ، بل أسهم معهم كبار رجالات القانون الوضعى ، وفقهاء غير متعصبين من علماء الغرب ، وما من مؤتمر دولي قانوني انعقد فى الشرق أو في الغرب دون أن يشيد بصلاحية التشريع القرآني ·· ولكننا هنا بصدد الحديث عما هو أهم ·· عن هذه الحقائق المرة التى لاجدال فيها :

الحقيقة الأولى : ان التشريع القرآني فى معزل عن حياة الشعوب

المسلمة اللهم الا في حيز ضيق يتناول بعض الحدود فى بعض البلاد الاسلامية ، ويتناول الأحوال الشخصية فى معظمها ·· وحتى الأحوال الشخصية لم يرض لها أن تكون فى مأمن من تهريج بعض العقليات المنخرطة فى تلك التبعية الاستعمارية شرقيها وغربيها يعينها شذاذ العلماء الدينيين بدافع من حب الظهور ، والاستهتار بالتحرر ··

الحقيقة الثانية : أن لمعظم علماء الدين فى بلاد المسلمين موقفا سلبيا تجاه هذه النكسة ، ويظهر أن حل المشكلة عندهم هو أن يؤلفوا فى سمو التشريع القرآنى وتفوقه على سائر التشريعات الوضعية قديمها وحديثها أما ضرورة اعتراف الدولة بهذا التشريع ، والسماح له بأن يأخذ فى مجال التطبيق العملي فشىء آخر تماما ··

الحقيقة الثالثة : ان الشعوب المسلمة أصبحت عريقة فى السلبية ولا يكاد يطرأ على أذهانها هذه النكسة التى أصابت العالم الاسلامي منذ أوائل هذا القرن ، وذلك لأن قطاعا من هذه الشعوب المسلمة يتوهم أن الاسلام هو أن يؤدى المسلم ما عليه من فرائض مكتوبة وحسبه أن يكون بذلك مسلما ·· أما القطاع الآخر فلا يكترث بدينه مطلقا ، ولا يشغل باله الا أن يعيش ·· ولو فى عالم اللامبالاة بدينه وعقيدته ··

فأين الطريق إذن ؟

الطريق واضح لايحتاج إلى مشاعل تسلط الأضواء عليه بشرط أن تصدق نياتنا ، وتخلص عزائمنا ··

إن أول معالم هذا الطريق ـ إلى تشريع قرآنى ـ هو بروز هذه الفكرة إلى الحياة من جديد ، ولا أظن أنه يكفي لهذه المهمة أن تذاع الفكرة من فوق المنابر فى أيام الجمع ، أو أن تنشر فى الصحف الدينية المحدودة ، أو تثار فى المحاضرات التي يحضرها العشرات من الناس ، بل لابد أن تكون الدعوة إليها قوية ، بحيث تتسلل إلى أمهات الصحف اليومية والاذاعة وأروقة المجالس النيابية والشعبية ·

ثانيا : يجب أن ينعقد مؤتمر على مستوى العالم الاسلامى لمناقشة هذه الفكرة ولا يقصر هذا المؤتمر على علماء الدين وحدهم ، بل يجب أن يتألف من علماء الدين والمفكرين ورجالات القانون والمشتغلين بالحركات الاسلامية ٠٠ ولن تكون مهمة المؤتمر قاصرة على اصدار القرارات والتوصيات ، ثم ينصرف الأعضاء ٠٠ إلى العام القادم ، بل لابد أن تكون هناك لجان لمتابعة سير العمل ٠٠الخ ٠٠ الخ ٠

هذا هو الطريق أما أن نظل نخطب ، ونحاضر ونكتب كأفراد ، لنبين للناس أن التشريع القرآني هو خير تشريع وأن المسلمين لو أخذوا به لسعدوا فى الدنيا والآخرة ، فاننا لن نكون الا كمن يصرخ فى واد ، وينفخ فى قربة مقطوعة — كما يقولون .





بين الدين والعلم
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الصراع فى أوروبا بين الدين والعلم لعب هنالك كما هو معروف ـ دوره الملحوظ ·· والواقع أنه ما كان لأى صراع يحدث بين الدين والعلم لولا تعصب الكنيسة من ناحية ·· ثم تطرف بعض رجال العلم من ناحية أخرى : فالعلم لايناقض الدين أصلا والدين لايرفض العلم ·· حينما يكون العلم ، علما بمعناه الأصيل ، مستندا إلى أصح الحقائق ، ومبنيا على أصدق النظريات ·· الدين والعلم كلاهما ينبع من مصدر واحد ·· فكيف يتعارضان ؟ وقد شغل هذا الصراع المزعوم بين الدين والعلم أفكار الناس لأمد طويل ، واستقر فى بعض الأذهان ، أن هناك خلافا بالفعل بين العلم والدين ! ومن هنا توالت البحوث فى هذا الصدد ، وتتابعت المناقشات ، وصدرت الكتب الواحد تلو الآخر فى هذا الموضوع ·· وكان من نتيجة ذلك أن تراجع معظم القائلين بمعارضة الدين للعلم ·· بل أعلن الكثيرون من أقطاب العلماء الغربيين ـ في كل من أوربا وأمريكا ـ انهم مؤمنون بالدين مؤمنون بوجود الله عز وجل ·· وان القول بوجود أى خلاف أو خصومة بين الدين والعلم قول خاطىء ليس له أى سند وليس له أى دليل ! ·· والحق أن الأستاذ عبد الرزاق نوفل ، صاحب المؤلفات الاسلامية العديدة ومؤلف هذا الكتاب القيم الذى نعرض له اليوم ـ من خير من تناولوا هذا الموضوع بالبحث والتحليل ! ·

إنه فى كتابه هذا « بين الدين والعلم » يستعرض الموضوع

بـأسلوب علمي رصين فيـه سهولة وامتـاع ·· مثبتـا فسـاد القـول بمعارضـة العلم للدين !

فالدين والعلم لايمكن أن يتخاصما ·· وكما أن الدين إنما يهدف إلى خير الانسان وسعادة الانسان ·· فكذلك العلم لابد أن يستهدف بـدوره هذا الهـدف والا ما استحق هـذه التسميـة ومـا استحق أى تكريم ! ·· والاسلام وهو خاتمة الأديان السماوية ·· لامشاحة فى أنه تبوأ مكانا عليا فى تكريمه للعلماء ، واحلاله العلم مكانه المرموق ··

يقول الأستاذ نوفل في تقديمه للكتاب :

المتدبر لأغـراض الدين والعلم يجد أنهمـا متحدان فى الهـدف متماثلان فى الغاية ·· أما مصدرهمـا فهو الواحـد الأحد ·· الفـرد الصمد سبحانه وتعالى ·· فاذا كان الدين والعلم هـدفهما واحـدا ، ومصدرهما واحدا ·· فكيف ولماذا يتردد القول على فترات من الزمن بمعارضة العلم للدين ، واختلاف الرأى بينهما ·

لقد أثبت البحث أن هذه الأقوال ان هي الا أباطيل مغرضة تهدف إلى محاربة الدين ، وأنها حلقة من سلسلة تتضمن وسائل أخرى تحاول هدم الدين بالتشكيك فى معتقداته ، واظهار معارضة العلم لاياته ·· كما عرف أن هناك من الأسباب ما قد يؤدى إلي اشاعة مثل هذه الأراء ·· منها قصور العلم عن ادراك بعض حقائق الدين لاسيما ما يختص منها بالحياة الآخرة والحساب والعقاب والثواب والقيامة اذ أن ذلك لايمكن أن يكون موضع دراسة تجريبية يتناولها العلم فى ميادين أبحاثه ويجرى عليها الاختبارات في بواتقه وأنابيبه ·· ومنهـا سبق الدين فى ميادين العلم بايراد حقائق لم يصل اليها العلم بعد ، فيظهر الدين وكأنه يعارض العلم ·· لذلك نجد أن الازمنة التي تروج فيها شائعات معارضة العلم للدين انما هي ازمنة الجدب العلمي ·· وانخفاض مستوياتـه بعكس الأونة التي تتميز بايمان عميق ، وتتمسك بالعلم والدين ، وأصبح بذلك

من المعروف الذى لاشك فيه أن الالحاد والعلم نقيضان لايجتمعان وخصمان لايتفقان ٠

وفى هذه الفترة من تاريخ البشرية التى وثب فيها العلم وثبته العالية ، والتي وصل بها الانسان إلى ما يصل غيره اليه فى تاريخه فى مختلف ميادينه ، بل وصل إلي ميدان لم يكن يرجوه فى حلم أو رجاء من قبل ، فخرج من رحاب الأرض إلى أجواز الفضاء ، وهو الآن فى طريقه إلى زيارة كواكب السماء ، في هذه الفترة التي تعتبر قمة فى تاريخ علم الانسان هل يعارض العلم الدين ويحاربه ، ويجافيه ويصارعه ؟ أم ترى يوافقه ويؤيده ويعارضه ويسانده ؟ ٠٠ فى هذه الفترة دعوت الله جل شأنه ان يصاحبنى توفيقه الذى لازمني فاخرجت بفضل منه ورحمته كتبي السابقة ، لاخرج كتابا يربط بين العلم والدين ، فكان كتابي هذا الذى أقدمه إلى هؤلاء الذين قد تكون أقلقتهم كتابات الملحدين ، وأباطيل المغرضين ، بدعاويهم الباطلة عن معارضة العلم للدين ٠٠ ليتأكدوا ان لاخلاف بين العلم والدين ٠

والي جيل شبابنا الذى تميز عصره بالعلم والمعرفة ليشهد أن حقائق العلم انما هي آيات الدين ٠٠ وليكن كتابي هذا دعوة لهم للاستزادة من علمهم والتمسك بدينهم ٠٠

وإلى الباحثين الذين يريدون أن يدرسوا الأديان بعد أن قضوا زمنا في الالحاد ثم تحقق لهم عن طريق التقدم العلمي وجوب الايمان ٠٠ أقدم كتابي « بين الدين والعلم » ليعرفوا أن الاسلام دعوة إلي العلم والدين ، وانه الدين الذى لايناقضه العلم ولايعارضه العلماء ٠٠ بل يؤيده العلم ، ويدعو اليه العلماء !

●●●

يتناول المؤلف فى خمسة فصول مستفيضة موضوع البحث ... فيتحدث فى الفصل الأول عن متى بدأ العلم ، ومتى بدأ الدين ؟ وهو فى هذا البحث ينتهي إلى تقرير أن الدين بدأ ببداية الانسان ، واننا إذا رجعنا

الي الوراء وجدنا الانسان الأول وقد أمن بالله ايمانا كاملا ٠٠ اذ قد تلقى منه سبحانه وتعالي الالهام ٠٠ ورأى الآيات ٠٠ كما أثبتت الدراسات على اختلاف وسائلها أن العلم بدأ ببداية الانسان ـ كما بدأ الدين والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فى آيات خلق الله لادم إذ خلقه الله وعلمه كل شيء ، وكما تلقى ادم من ربه العلم تلقى الدين بما أمره الله به ونهاه عنه وكما تلقى كلمات التوبة كذلك ٠

وهكذا ـ يقول المؤلف ـ لم يعد الأمر فى حاجة إلي دليل بعد أن اتفقت الدراسات والأبحاث مع ما جاءت به آيات القرآن الكريم على أن العلم بدأ مع الدين ٠٠ ومع بداية الانسان ٠٠ فيا ترى هل يتعارضان بعد ذلك ويتناقضان ؟ أم ترى لابد يتفقان ؟

ويتحدث فى الفصل الثانى عن « أهداف العلم وأهداف الدين » فيقول : « كان المعتقد سابقا أن أهداف العلم لاتلتقي وأهداف الدين اذ أن العلم يسلك سبيل الحس والمشاهدة ، وانه يعنى فقط بالحقيقة الموضوعية ، ويقوم أساسا على التجريب المادي بينما الدين يسلك سبيل التسليم بالمقدمات ، وأنه يعنى فقط بالحياة التي تصل إلى الناس عن طريق الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالي ولذلك فلا يمكن أن يكون موضوع التجريب المادى كما أن سبيله ليس سبيل العلم من حيث الحس والمشاهدة بل سبيله التسليم والتصديق ، ولكن اذا كان العلم في كل ميادينه انما يهدف أساسا إلي سعادة الانسان ، أفلا يتفق في ذلك مع الدين ، اذ أن الدين لايهدف الا الي سعادة الانسان ؟

فالعلم من أول أهدافه ، بل هدفه الأساسي توفير الحياة الكريمة السليمة السعيدة للانسان ومن أهم أهداف العلم تنمية العقل وهو وسيلة السعادة عند الانسان ، ثم يفيض المؤلف فيما أداه العلم من خدمات فى مختلف الميادين ٠٠ وما يهدف اليه من خير الفرد ٠٠ وصالح المجتمع ، وسعادة البشرية بأجمعها ثم يتساءل : هل تهدف الأديان الا الي ذلك ؟ ثم يقول : إن أول ما دعت إليه الرسل كافة هو الايمان بالله

وحده وعبادته وهذا هو أصل الأديان فان أساس الدين ـ أى دين وكل دين ـ هو الايمان بالله وعبادته ، وبهذا نادت الرسل والأنبياء فى مختلف العصور ٠٠ فهل ذكر الانسان منا كيف تكون حالة العالم لو انتشر الالحاد وساد ؟ ٠٠ ان اى انسان حرم مقومات الأخلاق لينشر في الأرض الفساد ٠٠ ويصبح وهو الفرد الأعزل قوة هدامة مخربة ، تتجمع الجموع ، وتحشد القوى لمحاربته ٠٠ فما بالنا لو ان مجتمعنا بأسره حرم الأخلاق ؟ ويا ترى هل كانت تدوم الحياة لو أن أهل الأرض كانوا ملاحدة لايردعهم دين ولايمنعهم عن الشر ايمان ، ان علماء الاجتماع قد وصلوا الي حقائق عن طريق أبحاثهم ودراساتهم ٠٠ وقرروا أن الالحاد كارثة تصاب بها بعض الأمم الضالة ٠٠ أو الأفراد غير الكاملي الادراك ، وأن الالحاد حيث يتفرع يؤدى إلي اضمحلال الأخلاق وفقدان الحرية ٠٠ وانهيار الحياة الاجتماعية من الوجهتين الخاصة والعامة ، وحجب مقومات السعادة عن الأفراد والجماعات ٠٠

والايمان بالله قد أثبتت الدراسات التربوية ، والأبحاث النفسية ، انه يحقق للانسان ما لايستطيعه غيره فهو وقاية وعلاج من كافة الأمراض النفسية ، والاضطرابات العصبية والعلل الجسمية التي تنشأ من عوامل القلق والتوتر العصبي والخوف ، وقد أثبتت الدراسات الطبية ان من أهم أسباب الأمراض العضوية : الحالة العامة للانسان والتي يسيطر عليها الجهاز العصبي والحالة النفسية للانسان وقد أصبحت حقيقة العلاج النفسي عن طريق الايمان بالله ٠٠ من وسائل الطب ، فنجد أن علماء النفس وأطباءها قد تضمنت أقوالهم هذه الحكم بلا لبس أو غموض ، فمثلا يقول « وليم جيمس » استاذ الفلسفة بجامعة هارفاد ٠٠ ومن علماء النفس : « انما أعظم علاج للقلق ولاشك هو الايمان » ويقول الدكتور « بريل » من كبار علماء النفس : « ان المرء المتدين حقا لايعاني قط مرضا نفسيا » ، ويقول : ديل كار ينجي » اخصائى النفس المعروف : « ان أطباء النفس يدركون أن الايمان

القوى والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي ، وان يشفيا هذه الأمراض » وهذا يقرره علماء النفس في كل مكان ٠٠

والايمان بالله ـ يقول المؤلف ـ « يسبغ على نفس المؤمن الاطمئنان إلى رزقه فلا يطغيه اذا زاد ٠٠ ولا يشقيه اذا نقص ٠٠ ولذلك فان المؤمن بالله نجده لايطمع فى حق غيره ولا يحقد على من وسع الله عليه رزقه ، ولا يحسد من وهبه الله أكثر مما أعطاه ٠٠ وعلاوة على ذلك يضفى على النفس سكينة وطمأنينة ، فانه سبيل اشاعة العدالة والحق والمحبة بين أفراد المجتمع بل كل المجتمعات في أنحاء العالم !

ويتابع المؤلف حديثه فى هذا الفصل وينتهي منه ـ بعد حديث شامل عن تكاليف العبادات التي يوجبها الدين وما تهدف اليه من خير للانسان وتأكيد لسعادته فى دنياه وأخراه إلى أن الدين يرسم للناس الطريق الذى يؤدى بهم إلى السعادة الكاملة المطلقة وبهذا يتفق العلم فى أغراضه مع الدين وأهدافه ٠٠ فلا يتعارضان ـ بعد ذلك ـ أو يتناقضان ! ٠٠ ثم ينتقل إلى الفصل الثالث ٠٠ ليتحدث الينا فيه عن « مصدر العلم ومصدر الدين » ويقول فى ذلك : لاشك أن مصدر الأديان كلها هو الله سبحانه وتعالى الذى يصطفي من عباده رسلا وأنبياء فيوحي اليهم ليكونوا دعاة لعبادة الله وحده ومبشرين ومنذرين ٠٠ ولقد أنزل جل شأنه على الرسل كتبا سماوية تحوي شرائع الحياة وعقائد الدين ، ولايعرف عدد هؤلاء الرسل والنبيين حتى ولو على وجه تقريبي ٠٠ ثم يتحدث عن الأديان الكبرى : دينا دينا ٠٠ ثم يتحدث عن العلم ويستعرض حياة كثيرين من العلماء والمخترعين ويقول : لقد دامت أبحاث العلماء عشرات السنين وهم يدرسون مصدر العلم ٠٠ وهل هناك علاقة بين العلم والذكاء أو بين العلم والصفات التشريحية للانسان ؟ ويقول فيما يقوله : ان الملاحظات التى أثبتها العلماء على الأطفال الذين لايمكن أن يكون لديهم أى قدر من العلم أو المعرفة وتصرفاتهم تطابق أعلى درجات العلم ، بل تسبق العلم انما تؤكد أن الله

وحده هو مصدر العلم ، ويشير الي ما تذكره كتب العلم عن أطفال كثيرين أثاروا دهشة البحاث وأكدوا أن العلم انما هو فيض يتلقاه الانسان من خارجه بل يقرر العلماء والبحاث - أيضا - أن الحيوانات والطيور قد وصلت إلي درجة من العلم سبقت به الانسان ، أفيكون عقلها وتجاربها هو مصدر علمها ؟

ان مصدر العلم لاشك هو الله وحده جل شأنه الذى يقول : « واتقوا الله ويعلمكم الله » فاذا كان مصدر العلم هو مصدر الدين ٠٠ فهل يعارض العلم الدين ويناقضه ؟ أم لابد يتفق معه ويؤيده ؟ ٠٠ ويشير فى الفصل الرابع بأنه « لاتعارض بين العلم والدين » ، ويقول « اذا كان العلم يتفق مع الدين فى الهدف ، ويرتبط معه فى المصدر ، فكيف اذن ٠٠ تتردد الأقوال أحيانا بأن العلم والدين لايتفقان ، ولماذا يظهر العلم أحيانا وكأنه يعارض الدين ؟ ٠٠ اننا اذا تتبعنا تلك الأقوال التي تشير إلى معارضة الدين للعلم ، وعدم تأييد العلم للدين ، نجد أنها تروج وتنتشر فى أزمنة الالحاد ٠٠ بل انها تعتبر القمة التي ينطلق منها دعاة الالحاد في نشر معتقداتهم اذ ليس هناك من دليل واحد يمكن للملحدين ان يستندوا اليه فى اثبات رأيهم ولا يوجد برهان يؤكدون به أقوالهم ، وقد ينشر البعض هذه الأقوال دفاعا عن خطأ فى رأيهم يظنونه صوابا ٠٠ فيتخذون من ترديد الأقوال التي تثير الشبهة حول موقف العلم من الدين ذريعة لتبرير موقفهم من سوء ما يعتقدون !

وكذلك من الأسباب التي تدفعهم الى ترديد هذه الأقوال رغبة البعض فى اكتساب شهرة على حساب مخالفة الاجماع حتى ولو كان ذلك باعتناق آراء يعتقدون فى سريرتهم بفسادها ٠٠

كما أن بعض الدول تدعو إلى تشجيع مثل هذه الآراء لاثارة الشك فى الدين ٠٠ اذ تعتمد هذه الدول فى سياستها على هدم الدين ٠٠ باعتبار أن الدين عموما سيتنافى مع ما رسمته هذه الدول لنفسها من سياسة فى الحكم ٠٠ فالدكتاتورية ٠٠ وحكم الفرد المطلق ٠٠

واستغلال الطبقات الكادحة ٠٠ والتفـرقة الطائفيـة ٠٠ والخلافـات العنصـرية ٠٠ كـل هذا ومثله يعـارضـه الدين ٠٠ فـلا يمكن لدولة سياستها تنافى الدين أن تقوم الا اذا هدمت الدين تماما ، وأول خطوة فى سبيل ذلك هو اثارة الشك فى نفوس الناس فى الدين ٠٠ ولايجدون الا اشاعة معارضة العلم للدين ٠٠ وحرب الدين للعلم والعلماء ٠٠

وقد تنتشر هذه الآراء لقصور العلم عن ادراك بعض الحقائق التي جاءت بها الأديان ومحاولة الانسان عرض غيبيات الأديان على مقاييس العلم ٠٠ ومحـاولته كـذلك فهم غـير المحسـوس والملمـوس بـالعقـل البشرى ٠٠ وكذلك فان من أسباب انتشار هذه الأقوال ظهور نظريات عن الخلق والحياة ٠٠ تعارض ما تقول به الأديان ، وبـالرغم من أن أصحاب هذه النظريات يعترفون بخطئها تصريحا أو تلميحا ، ويعلنون بعدها مخالفتهم لها ، أو على الأقل عدم قيام الدليل على صحتها ، فان البعض سعيا وراء الجديد ٠٠ حتى ولو كان خطأ يرددون ويناقشون ويؤيدون مثل تلك النظريات التى تبرأ أصحابها منها ٠٠ أو على الأقل صحح تلاميذهم من بعدهم آراءهم ٠٠ فهذا مثلا « تشارلس دارون » وجد أثناء رحلة بحرية أن الأنواع الحية ـ وبخاصة الحيوانية منها ـ تتشابه تشابها عميقا من حيث بنية الجسم وتتفرع إلى أصناف متفرقة على حسب بيئتها ، فافترض ان كل الأنواع الحالية من الأحياء يمكن أن تكون ذات أصل واحد ، أو بضعة أصول تتنوع طبقا لقانون الانتخاب الطبيعى ، أو بقاء الأصلح ٠٠ إلي آخر ما شرحه في هذا الصدد ٠٠ ثم قال بوجود عقل للحيوان وانه امتداد للحس ، وعندما شاع أن نظرية داروين انما هي نظرية مادية الحادية وقد كان داروين مؤمنا بالله ٠٠ أعلن بصراحة العلماء أن الحياة لغز من الألغاز وأن مافي العالم من نظام يشهد بعناية الهية ٠٠ وكان آخر ما كتبه يستحيل على العقل الرشيد ان تمر به ذرة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة قد صدر عن مصادفة ٠٠ لأن المصادفة لاتخلق نظاما ولاتبدع حكما

وذلك عندى أكبر دليل على وجود الله وقد أعلنت معظم الجامعات العلمية فى سويسرا وأمريكا وغيرها انه قد ثبت خطأ نظريـة داروين فى أصل الأنواع وبالرغم من ذلك فقد ظلت نظرية داروين تتردد بين الناس طويلا وهذا « توماس هكسلى » الذى أثار أكبر ضجة ومهاتـرة ، وحمل لواء الحرب بين العلم والدين لفترة طويلة وهو الذى سبق داروين بـالقول بنظرية التطور وتطبيقها على الانسان ٠٠ أعلن أسفه لأنه كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته ، واستشهدوا به فى تأييد التـولد الذاتي ، وللأسف ـ يقول المؤلف ـ : مازال البعض في سبيل الظهـور أمام الناس بمظهر الباحث العالم يردد بعض ما كـان قد ورد فى كتب هكسلى التى تعتبر نظريات خاطئة أعلن صاحبها ذلك ، ونظرية التولد هذه انما تعارض الدين ! ٠

وأما ما يشاع عن معارضة العلم للاسلام فانه قول باطل يردده خصوم الاسلام لاثارة الشك فيه ٠٠ بعد أن فشلت كـل جهودهم فى مهاجمتهم لعقائـده ٠٠ ولعل هـؤلاء الخصوم قـد استندوا فى بـاطل دعواهم هذه على الاسرائيليات التى دسها المغرضون فى بعض تفاسير القرآن ونقلها البعض عنهم بعد ذلك ٠٠ فقد كـان من حرب اليهـود للمسلمين أن يعتنق البعض منهم الاسلام حتى يمكنه بذلك أن يدس على المسلمين أحاديث غير صحيحة ٠٠ ويضع تفاسير لآيات كريمة لاتطابق الحقيقة وانما لتباعد بين الآية وما قصدت اليه ٠٠

ويمضي المؤلف فى حديثه إلي أن يقول : « إن الشواهد لتؤكد ان مـوجة الالحـاد التى كانت منتشـرة فى بعض الجهات فى طريقهـا الى الانحسار بل الى العدم ٠٠ فقد تتابع ايمان العلماء الذين ظلوا يحاربون الدين أمدا طويلا ٠٠ ونسمع الآن فى كل مكـان من العالم النـداءات الصادقة التي تطالب بمزيد من المعرفة عن الأديان ٠٠ ولقد أدهش كبار الأطباء فى دول مختلفة ماوصل الى علمهم من أن القرآن الكريم أورد حقائق الخلق وقرر تطورات الجنين فى مختلف أدواره قبل أن يصل العلم

اليها بعشرات المئات من السنين ، وقبل استعمال الأجهـزة والأشعة والمجاهر ٠٠ وأدهشهم أكثر الا يعتنى المسلمون باظهار هذه الحقائق العلمية الكفيلة وحدها بنشر هذا الدين ، بين الأوساط العلمية وجمهرة المتعلمين فى أنحاء العالم وهؤلاء هم أغلبية سكان الأرض حاليا ، وان هؤلاء الذين يعتنقون الاسلام كل يوم بل كل ساعة من علماء روسيـا ومهندسي المانيا وقادة الفكر بانجلترا ورجال الأعمال بأمـريكا ، انمـا اهتدوا إلى الحق بأبحاثهم التى قاموا بها منفردين ٠٠ دون ضغط من أى من المسلمين ٠٠ فيا تـرى كيف لو قام المسلمـون بواجبهم الذى فرضه عليهم الاسلام فرضا ٠٠ فان الدعوة الاسلامية ليست للعرب وحدهم انما هى للجميع ٠٠ اذن فقد وجب على المسلمين تبليغ الدعوة الى كافة جهات العالم ، واذا كان هذا هو الذى يفرضه الاسلام عـلى المسلمين فى كل وقت ٠٠ فانه فى الوقت الحاضر لأكثر وجوبا من أى وقت آخر ٠٠ اذ أن العالم الآن يمـر بفترة مشـرقة من الايمـان بالله ٠٠ ولايحتاج أمر التبليغ شيئا ٠٠ ولا يستلزم منا جهدا ٠٠ اذ لم ينتشر الاسلام بحروب أعلنت أو أموال انفقت ، أو أكاذيب رددت ، انما هي حقائقه وقد أوضحت وعقائده وقد أفهمت ٠٠ فآمن بها كل من تأملها ، واعتنقها كل من تدبرها ، فعلى المسلمين أداء ما يفرضه عليهم الاسلام من وجوب نشر حقائق الاسلام ، واظهار أوجه اعجاز القرآن بالطريقة التى تلائم العصر ٠٠ وتناسب الوقت ٠٠

ثم يقول المؤلف وهو ينهي هذا الفصل ، بعد أن يشرح لنا ما يراه من وسائل للقيام بنشر الحقائق عن الاسلام : « ان هذه لهي وسائل أداء الأمانة : أمانة تبليغ الدعوة الاسلامية إلى العالم ٠٠ لاسيما فى هـذا الوقت الذى قارب العالم أن يصل فيه إلي قمة العلم ٠٠ وتشير الأدلة إلى اشراق عهد جديد أهم ما يميزه رجوع الناس جميعا الى الله ٠٠ والعودة الى الدين ٠٠

وأخيرا ، وفي الفصل الخامس والأخير من الكتاب وتحت عنوان « الاسلام يدعو إلى العلم ٠٠ ويدعو اليه العلماء » ٠٠ يقول ضمن مايقول : « إن دعوة الاسلام إلى العلم لم تعد فى حاجة إلي دليل لاثباتها بعد أن قررتها الحقائق القاطعة التى لاتحتاج الى مزيد من البيان ٠٠ » ٠

ويقول : « وتدعو آيات القرآن الكريم إلى النظر فى كل ما يحيط بالانسان بل وفي نفسه ٠٠ وليست الدعوة الى النظر والتى وردت في آيات كثيرة هي دعوة للرؤية السطحية العابرة بل ان النظر يقصد به الدراسة العميقة ، والبحث المستمر » ٠

« بل ان القرآن الكريم قد سبق العصر الحديث فى تقريره لوسائل الدراسة الحديثة » ٠

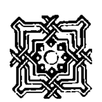
« ومن وسائل الدراسة العلمية التي سبق بها الاسلام قيام البعثات الكشفية التي تجوب أنحاء العالم تبحث فى الحفريات والآثار عن أصل الخلق ٠٠ هذه البعثات التى نراها الآن تذهب الي كافة البلاد وتعيش مددا طويلة تبحث فى الأحجار ٠٠ وتحت المحيطات ، وفي الوديان والجبال ٠٠ تقدر أعمال ما تراه وتحاول أن تصل بدراسة ماتراه من آثار على عمر الوجود ، وعلى حياة الانسان ٠٠ وأين عاش ، وكيف كان ٠٠ ؟ الا يسبق القرآن الكريم العلم عندما قرر هذه الوسيلة فى الآية الشريفة : « قل سيروا فى الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق » ٠

« ولما كان العقل هو ميدان العلم فان الاسلام طالب الناس بالتعقل ، وتنمية العقل لاتكون الا بالعلم ، فمطالبة الاسلام اذن بالتعقل انما هو بطلب العلم ، وقد تردد ذلك فى القرآن الكريم حوالى ٤٩ مرة ٠٠ » ٠

« ولايقتصر الأمر على الدعوة الى العلم ولكن يسير القرآن الكريم بالناس فى ميدان العلم الي أكثر من ذلك ٠٠ انه أورد حقائق العلوم على اختلافها بلا لبس أو غموض ، والقرآن عندما يقرر الحقيقة العلمية

لايورد تفاصيلها ، ولايحدد تطوراتها انما يسبق العلم بأن يقرر الحقيقة ويترك للمسلمين وسائل البحث والدراسة التي تؤدى الي الوصول الى هذه الحقيقة ·· وبذلك يكون القرآن قد أورد وجها من اعجازه ، يتجلى فى هذه الحقائق العلمية ، وسبقه العلم فى ميادينها ، ويكون أيضا قد دفع المسلمين إلي البحث والدراسة « ··ولا يتسع المجال الي بيـان الآيات العلمية فى القرآن الكريم ، والتى سبقت العلوم فى كافة قطاعاتها ، حتى ولو كان ايراد آية واحدة فى كل فرع من العلوم ، وقد أصبح الاعجاز العلمي للقرآن الكريم مما لايحتاج الي دليل على بيـانه ، فقـد اجتهد العلماء فى ميدانه ، وفي كل يوم يضيفون الي هـذا الاعجاز اشـراقات جديدة ، تؤكد انه وحى الله سبحانه وتعالى اوحى بـه الى خاتم رسله وأنبيائه ليكون معجزة أبدية يؤمن بها كافة الناس فى كافـة الأزمنة ، ومختلف الأجيال ! ولايتقصر اعجاز القرآن العلمي على العلوم التى قد تسمى بالعلوم الطبيعية ، بل انه باعتراف الخصوم وشهادة الأعداء قد حوى كل أسباب قيام المجتمع الصالح الذى يتعاون أفراده وتتحـاب جماعاته وتتساند هيآته ، ويطيع ناسه ولاته ويعدل ولاته بين أبنائه ، ولذا فان القرآن لم يترك علاقة تقوم بين فرد وآخر : الزوج وزوجه ·· الابن ووالده ، الجار وجاره البائع والمشترى ·· المقرض والمقترض ·· الحاكم والمحكوم ، الا واورد أساسها ·· حدد معالمها ·· وبذلك فقد سبق كافة التشريعات والقوانين فى تقرير حقوق الأفراد وواجبـاتهم ، ووضع القرآن الكريم نظاماً ماليا محكما ، يحقق صالح المجتمع وسعادة الفرد ، ولا يمكن لأى نظام وضعى أن يرقى ـ ولن يستطيع ـ الى النظام الاسلامي ففيه كل مزايا الأنظمة الوضعية دون مبالغتها التي تفقدها صلاحيتها للجميع ودون عيوبهـا فهو نـظام شامـل في عدله ، محقق لسعادة كافة أفراده لايعـادى رأس المال ولايشجـع علي طغيـانه ·· ولايهدم الفردية ، ولا يوافق على سيطرة فرد على مجموعة تسبب احتكارا

او استغلالا ·· يشجع على العمل والثراء عن طريق الكسب الحلال مع مراعاة الفقير والمحتاج فله حق ثابت ·· ونسبة محدودة ·· وعليه بعد ذلك الصدقة ما أمكنه إلى ذلك السبيل ·· وهكذا انهى الاسلام عهد الخرافة التى كانت تقول بمعارضة العلم للدين ··





لاشيوعيَّة .. ولااستعمَار

الأستاذ عباس محمود العقاد

لاشيوعية ولا استعمار ! هو ذا شعار كل أمة فى هذا العصر خارج حدود المعسكرين الكبيرين الشرقى والغربى ، أو الشيوعية والاستعمار ..

والواقع أنه شعار ليس منه بد ، بل ليس لأمة من الأمم خيار فيه ، وعلى الأخص الأمم حديثة الاستقلال فى كل من الشرقين : الأدنى والأوسط والقارة السمراء ! ..

وفى هذا الكتاب القيم يتحدث الأستاذ العقاد عن كل من الشيوعية والاستعمار بأسلوبه الرصين حديثا مستوعبا كله موضوعية ، وكله استقراء وبذلك يعطى القارىء العربى بالنسبة لهذا الموضوع الدقيق صورة أقرب إلى الشمول .

ولم يكن من غرض المرحوم العقاد فى كتابه هذا ـ كما يقرر ـ أن يوازن بين الخطرين : الخطر الشيوعى والخطر الاستعمارى ، فكلاهما خطر ـ كما يؤكد ـ وكلاهما حقيق بالحذر والاجتناب .

ولا حيدة بين مصيبتين .. ولا انصاف فى الموازنة بين شرين فان الحيدة والانصاف عمل القضاء ، الذى يتساوى لديه الطرفان ، وأما المهدد بالمصاب فلا حيلة له غير العداء والمقاومة ، فان فعل غير ذلك فهو واقف من الشر موقف الغريب بل هو واقف موقف الغريب من نفسه ومن وجوده ، كأنه ينظر إلى وجود لايعنيه ..

وفى القسم الأول من الكتاب يتحدث المؤلف عن الشيوعية من أكثر من ناحية من نواحيها المتشابكة ، وفى حديثه عنها من ناحيتها العلمية أو المادية ينتهى الى القول انها بالايجاز « أفيون الشعوب » الرخيص وخمرتها المبذولة ، يبلغ من سخفها انها تصم الدين بهذه الوصمة ، وتذهل عن حقيقتها هي ، عن غباء مفرط ، أو عن لجاجة فى المكابرة والانكار .. ثم يقول : انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جيمع نواحيه لأنه يرفع عن الضمير شعوره بالمسؤولية ، ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوى الأقدار والعظماء ، انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسؤولية لأنه يلقى بالمسؤوليات كلها على المجتمع ، ويقول ويعيد للعجزة وذوى الجرائم والآثام انهم ضحاياه المظلومون وان التبعة كلها فى عجزهم واجرامهم واقعة عليه .

.. ومن الخطأ المتواتر أن يقال ان الشيوعية مذهب الطبقة العاملة ، أو الطبقة الفقيرة ، لأنها فى لبابها مذهب طباع وأخلاق ، يقبله كل من تلوثت طبائعه بلوثة اللؤم والأنانية وأسقط عن نفسه تبعة العمل ، ومؤونة التكليف ، وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس ، ولا يتقبل الشيوعية فقير محروم برئت نفسه من هذه اللوثة ، واستقر فى طبعه صدق الايمان بالجد والكفاية ، وانما يتقبلها المحروم اذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل ، وسولت له الأنانية أن يطمع فى جميع الحقوق ، ويسقط عن كاهله جميع الفروض والتكاليف ومن كان كذلك من الأغنياء فهو شيوعى ، وان لم يكن من العاملين باليد ، أو من ضحايا الحرمان .

وقد أسس الشيوعية اثنان لم يكونا من أبناء الطبقة العاملة ولا الطبقة الفقيرة ، فكارل ماركس من الطبقة الوسطى ، وفردريك انجلز من الطبقة الغنية ، ولكنهما من المستعدين للشيوعية بالطباع والأخلاق ، وكلاهما نموذج للطبع الممسوخ فى اتجاهين متقابلين .

وباب النجاة من وباء الشيوعية فيما يقرر المؤلف انها مذهب

لايقوم على آرائه ولا على أخلاقه مجتمع صالح للبقاء والتعمير ، اذ كانت فى صميمها « سلبية » هادمة لايقام عليها بناء من مادتها ، ولا تصلح مادتها بحال من الأحوال للبناء ٠

ويمضى المؤلف الى الفصل الثانى ليتحدث عن الروح القيصرية فى النظام الشيوعى ، ويقول فى ذلك : وتوصف « روسيا الحمراء » بأنها دولة قيصرية لاتزال كما كانت فى أيام القياصرة على سبيل المشابهة بين العهدين فى جميع الخلال ولكن التشبه أحرى أن ينقلب عند المقارنة بين القيصرية والشيوعية فلا تكون القيصرية مضرب المثل فى مظاهر التسلط وتوسيع الملك واستبداد الحاكم بل تكون الشيوعية هي مضرب المثل فى جميع هذه الخلال ٠

ذلك أن الدولة القيصرية لم تبلغ فى عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية فى كثرة البلاد التى تحكمها ورهبة الجبروت على محكوميها واستطاعة الحاكم فيها أن يصنع بالأرواح والأموال ما بدا له متسترا بنصوص القوانين ، أو مستبدا بالرأى جهرة غير مكترث لنص أو لقانون ٠

أما عن موقف الشيوعية مع العالم ، ففى الفصل الذى عقده المؤلف حول هذا الموضوع يقول : الشيوعية دولة ومذهب أو دولة ودعوة ، ولا تبرأ سياسة الدولة ـ ذات الدعوة ـ من دسائس النفاق والمراوغة ٠

فهى اذا كفت عن الدعوة فى الأمم الأخرى ، خانت مبادئها ، وتنكرت لرسالتها ، وتراءت فى ظاهرها بغير ما تضمره فى باطنها ، وهى اذا نشرت دعوتها لتشجيع الفتنة بين شعوب الدول الأخرى خانت قضية السلام ، واصطنعت الغش فى قواعد المعاملة الخارجية بينها وبين حلفائها واعدائها ٠

ولابد من باطن غير الظاهر فى الحالتين ، ولابد من فقدان الثقة فى

سياسة الداخل والخارج ·· وهى أساس كل علاقة صالحة ·

وسياسة الأمس ·· وسياسة اليوم فى الدولة الروسية على اتفاق فى الوجهة العامة ، وتزيد سياسة اليوم بالدعوة الى مذهب الدولة ، والاتجاه بها إلى اشاعة القلق والخراب فى كل مكان ولاسيما بلاد المشرق التى يتطلع اليها « الرفقاء » الحمر كما تطلع اليها من قبلهم أصحاب التيجان ·

ثم يقول المؤلف : اذا صح فى أمر الشيوعية مع الأمم جميعا أنها لاتقبل التوسط على سلام فهو أصح من ذلك بين الشيوعية والاسلام ، فلا بقاء للشيوعية فى بلاد تدين بالاسلام ولا بقاء للاسلام فى بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسة تقوم على دعوة السلام ، والوفاق بين الشعوب الشيوعية وأصحاب العقائد المخالفة لها فهى دعوة قائمة على نفاق وعلى تربص كمين كالتربص بين الأعداء المتسترين ·

وقيام الشيوعية على هدم المجتمعات التى تخالفها ، وايمانها بأن الخير كل الخير فى تفكيك أوصالها ، وتعجيل زوالها حقيقتان لاتقبلان المغالطة ، ولايكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداءة ، وهو يدارى الغرض متشيعا جد التشيع تحت سريان العدل والمساواة ·

واذا قال الشيوعى انه يؤمن بالتعايش السلمي فمعنى ذلك أنه يكف عن تنفيذ مذهبه ، أو أنه يرتاب فى صدقه ، ولايؤمن ضربة لازب بانهدام المجتمعات العالمية فى وقت قريب ، ولا أمل له فى نجاح الدولة من قبله مالم يكن قد عدل حقا عن الكيد لمن يعايشهم معاملة سلمية ، والتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، ويعامله على هذا الأساس ، وما هو بأساس صالح للمعايشة السلمية بل هو أساس المعاملة بين من يعيش ومن يموت ·· أو بين الوارث والموروث المطموع فيه ·

وفى هذا القسم الأول من الكتاب الخاص بالشيوعية أكثر من ناحية من نواحى هذا الموضوع أفاض فيها المؤلف فى شمول وتركيز ·

ثم ينتقل بنا الى القسم الثانى من الكتاب وهو الخاص بالاستعمار ..

يقول المؤلف : لقد كانت دعوى الاستعمار قائمة على « رسالة الرجل الأبيض » أو على الأمانة التى اضطلعت بها الحضارة الأوربية لاصلاح أمم العالم ..

وما كان فى وسع القوم أن يخترعوا هذه الدعوى لو لم تسبقها دعوى مثلها من القارة الاوربية ، ترمى الى غاية كهذه الغاية فى زمانها ، ونعنى بها دعوى الحروب الصليبية .

ولقد مضى اليوم على آخر الحملات الصليبية نحو خمسة قرون ، ولايمكن أن يقال انها اختفت من ميادين السياسة أو الدعاية ، ولاتزال لها رجعات تتردد طوعا أو كرها فى تصريحات الساسة وتعليقات المؤرخين ، كما تتردد حينا بعد حين فى مساعى الجماعات والآحاد .

ويتابع المؤلف الكبير حديثه المفصل عن أسباب الاستعمار ثم عن سباق الاستعمار ، ثم عن أنواع المستعمرات ، وفى فصل من فصول الكتاب يتحدث عن آداب الاستعمار ، فيقول : تعود الناس من الاستعمار قلة الصدق ، وكثرة الكذب ، وألفوا منه نقض المواثيق ، وخلف المواعيد ، وتسايرت الأمثال بهذه الخلة فيه حتى شهد بها زبانية الاستعمار ، كما شهد بها ضحاياه ، ولكنهم يشهدون بها اضطرارا ليقولوا انها وسيلة تبرر الغاية وانها حيلة معيبة فى سبيل مصلحة محمودة .. وربما غلا بعضهم فى دعواه فزعم أنها مصلحة للمغلوبين ، ومصلحة للغالبين ، وانها فى أمر المغلوبين كمصلحة الطفل القاصر الذى يساق الى نفعه ، ولايقدر على ادراكه ..

والاستعمار على اتفاق الأقوال كذوب ، الا أن الكذب خليقة نفسية يوصف بها الانسان ، ولا توصف بها الحركات الاجتماعية ، أو حركات الامم والحكومات ، وأصح من ذلك أن يقال ان الاستعمار مستغل يقوم

على الاثرة ، وان آدابه كسياسته فى هذه الخلة ، فما تواضع عليه من اداب فهو آداب استغلال ، وما تواضع عليه من سياسة فهو سياسة استغلال ٠

انه يستغل الرذيلة ، كما يستغل الفضيلة ، يستغل الجبن والخسة ، والحرص على المنفعة العاجلة ، كما يستغل المبادىء الكريمة ، والخلائق المحبوبة ، فلو جمع ما قيل فى الدعوة الى الحرية والسلام والرقى والحضارة ، لوقعت حصته الكبرى فى جعبة المستعمرين وما انقضت فترة قط فى العصور الأخيرة على غير « رسالة انسانية » جميلة يترنم بها دعاة الاستعمار من أصحاب السيف والنار ، الى أصحاب الأقلام والأفكار ٠

الا أننا - يقول المؤلف - نتبرع للاستعمار بالشرف الأكبر اذا قلنا مع القائلين انه يخلق ثلث الدعوات ، ويخترع رسالتها اختراعا من عنده ليدرك بها مأربه ، ويخدم بها قضاياه ٠

وفى بعض المفسرين الماديين للتاريخ ولع باسناد الرسالات الانسانية منذ القدم الى سماسرة الاستغلال من الساسة وأصحاب الأموال ، فلا غيرة فى رأيهم على حرية الارقاء ، ولا على قضية السلام ، ولا على أمثالها من القضايا لولا المآرب التى يعمل لها المستعمرون والمستغلون ، ويحاربون من أجلها من يحاربون ٠٠ أو يسالمون من يسالمون ٠٠ عدو جاهل ولا مراء ولو قال هؤلاء الماديون ان آداب الاستعمار زائفة وأن نياته غير خالصة ، وأنه يستغل المبادىء بعد وجودها ، واصطلاح الناس على اكبارها وتأييد العاملين لها لصدقوا وبلغوا ما يريدون من كشف النيات والتحذير من الخدع والأضاليل ، ولكنهم يصيبون الانسانية بكذب أقتل لها من كذب الاستعمار فى أخبث دخائله حين يجحدون على الانسانية قدرتها على التقدم ، وينوطون فضائل التقدم كلها بأكاذيب المنافقين وأباطيل المكرة الخادعين ٠

المستعمر واستغلال قضايا السلام

وقضية السلام من القضايا العالمية التى نرى فيها نوعا من الاستغلال لكل نوع من الاستعمار ٠٠ ولا نرى لها صورة من **الصور** يكون فيها دور الاستعمار دور اختراع وابتكار ٠

فالمستعمرون الذين شبعوا من الاستعمار ينصرون السلام لان الحرب اما أن تكون ثورة عليهم من المغلوبين المطالبين بحقوقهم ، أو منازعة لهم من الاقوياء الطامعين فى تراثهم ، وفى كلتا الحالتين يغنمون من السلم مالا يغنمونه من القتال ٠

ثم يقول المؤلف فى الفصل الذى عقده حول نهاية الاستعمار : أخذ الاستعمار فى الزوال لانه مرحلة من مراحل التاريخ التى لاتوجد للدوام ولابد أن تنتهى بانتهاء دورها عند زوال أسبابها ووصولها الى غاية مداها ٠

ومن أسباب زوال هذه الادوار انها تجربة من تجارب الأمم فى عالم المجهول ، وأنها تنطوى على كثير من الأغلاط والمساوىء كماتنطوى على كثير من الخطأ فى التقدير ومن سوء الحساب عند القائمين بها والعاملين عليها ٠

الا ان هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار ـ كانت بدعة بين المراحل التاريخية بكثرة ما فيها من مزالق الاقتحام ومفاجئات المجهول وكانت اشواطها كلها كأنها خطوات مقتبسة يبتدىء بها السالك طريقه ويتوسطه قبل أن يعلم انه قد ضل الطريق ثم يقف بين الخيرة والعناد ، ويصر على العناد لانه لايستطيع الرجوع ولا يستطيع التسليم بالضلال ٠

وقد قيل بحق ان مرحلة الاستعمار الحديث قد بدأت فى وقت واحد مع عصر الاكتشاف ، أو عصر البحث عن الطريق المجهول ٠

صورتان فيهما ملامح واضحة ـ وان تكن موجزة ـ لكل من الاستعمار والشيوعية فى وضعهما الصحيح من تاريخ العصر الحاضر

فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولى بلغت نهايتها ، وفقدت حجة وجودها ..

واذا كان الاستعمار قد فقد مبدأه عند أصحابه ، فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ يستند اليه عند ضحاياه ، فلم يوجد من قبل - ولن يوجد اليوم - انسان ينتمي الى بلد مغلوب ، ينادى بمبدأ بالاستعمار ، ويتردد فى وصف العاملين على خدمته فى بلادهم بصفة الخيانة والاجرام . حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها ، وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذى يتراجع أمام واقع أعظم منه ، وأجدر بالثبات فى مجرى الحوادث ، فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه ، وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعى عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه .

هذا هو وضع الاستعمار فى التاريخ الحديث ،

أما الشيوعية فهى استعمار وشىء آخر غير الاستعمار .

ومصير الشيوعية المستعمرة كمصير الحركة كلها فى مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا فى أخطارها لأنها لاتأتى بأخطار خالصة من أخطار الدعوة التى تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم على السواء .

فاذا علمنا أن الاستعمار قد فقد حجته ، وضيع مبدأه الذى يستند اليه - فالشيوعية تدعو الى مبدأ غيره بعد حين ، وحجتها اذا حبطت فى الحاضر انها تعمل للمستقبل وترجو من النجاح فيه ما فاتها أن تدركه فى خطواتها الأولى .

والخطر من الشيوعية أنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة لأنها لاتبقى لهم تلك الكرامة القومية التى تجمعت ومازالت تتجمع بين أبناء الأمم المحكومة ، حتى اقتلعت الاستعمار من جذوره ، وتكاد تقتلع تلك الجذور من كل أرض نبت فيها .

والكلمـة الأخيرة فى هـذه العجالة : اننـا اذا عرفنـا مساوىء الشيوعية والاستعمار ، فلا محـل عندنـا للشيوعيـة والاستعمار ٠٠ فانـهما شران لاتبقى منـهما بقية ، ويبقى معهما خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق فهو الفارق فى الجهود التى تلزمنا للتيقظ له والحيطة منه والسعى الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه ٠





الاستعمار والمذاهب الاستعمارية

دكتور محمَّد عوض محمَّد

هل هى من أسماء الاضداد كلمة « استعمار » ؟ أم أنه النفاق السياسى الحديث ، أحال هذه الكلمة من معناها الحقيقي إلى معناهـا الامبريالي التحكمي فى عصرنا الراهن ؟

الواقــع هو هــذا ٠٠ دون أى جدل أو أى افتــراء ! والا فأين « الاستصلاح » أو أين « التعمير » ٠٠ ذلك الذى نفهمه بكل وضوح عندما نسمع كلمة استعمار ؟٠٠ لاشىء سوى التسلط ٠٠ اذن لاشىء سوى الاستغلال ٠٠ هــذا الذى أصبحت تؤديــه هذه الكلمــة فى ظل الحضارة الغربية !

من أجل ذلك أصبحت هذه الكلمة بغيضة كـل البغض فى دنيا اليوم ٠٠ بعد أن أحالتها تصرفات السياسيين الاستعماريين من معنى إلى آخر ، ومن مدلول إلي مدلول !

وليس من شك فى أن الاستعمار اليوم غيره بالأمس القريب ، بعد أن تيقـظت الشعوب ، وبعــد أن تتابعت الحــركات الاستقـلالية هنــا وهناك ٠٠ انه الآن يعانى « حشرجة » ٠٠ انه فى طريقــه إلى زوال ٠ مهما حاول أن يتماسك ٠٠ وهذا مالايمكن أن نشك فيه !

ولكن هل هذا ينسينا ماذا كـان يخطط ، أو مــاذا كان يصنــع ـ ويصنع الى اليوم ـ فى جزء ليس باليسير على أى حال من أجزاء الكرة الأرضية ؟٠٠ هل هذا ينسينا أيضا أننا أمام قضية فلسطين وأمام خطر

استعمارى جديد ·· أكثر ضراوة ووحشية من سواه ·· وهو الخطر الاستعمارى الصهيونى ؟·

ذلك الخطر الذى يشير إليه مؤلف هذا الكتاب بتوسع أكثر على أساس أنه موجه إلي قلب البلاد العربية باصرار عنيد ·· فجدير بأبناء البلاد العربية إذن أن يزدادوا وعيا بخطره ، وتفهما لأبعاده وأساليبه وحاضره وماضيه ·· وأن يعملوا ـ بالتالى ـ وهذا هو الأهم ! على دفع هذا الخطر عن بلادهم بكل ما يستطيعونه من قوة ··

ان أكثر فصول هذا الكتاب أهمية هو هذا الفصل الذى تناول فيه المؤلف الاستعمار الصهيونى !··

وسنجد ونحن نعرض لهذا الفصل مع بقية فصول الكتاب الأخرى الكثير من أعاجيب الاستعمار بنوعيه : القديم والجديد والغربى والصهيونى ··

يمهد المؤلف لفصول كتابه هذا بكلمة يقول فيها : « الهدف المنشود من نشر هذه الفصول هو التعريف بالاستعمار ·· من حيث هو ظاهرة سياسية تسود العالم ، وتخلق علاقات بين الأمم والشعوب ، لاتنطوى على المساواة والعدل ·· بل على القوة والبغى !··

·· وقد هدى البحث إلى أن للاستعمار مذاهب وطرائق ، بعضها ينحو ناحية القهر والغلبة وبعضها يرمي إلى الاستغلال المالى ، وبعضها يقال انه املته الضرورة العسكرية ، لذلك لم يكن بد بعد أن نحاول شرح هذه المذاهب ، ان نعرض إلي تلك الأنواع ، وأن نضرب أمثلة مستقاة من حوادث التاريخ لكى تكون معالجتنا مبنية على الواقع المشاهد الملموس ··

وقد استقينا هذه الأمثلة يقول المؤلف من جهات شتى ·· وأكثرها مما يتعذر على القارىء أن يعثر عليه فى كتب التاريخ المتداولة ·· كذلك لم نستق أمثلتنا عن الاستعمار من أحداث الشرق الأوسط أو البلاد العربية إلا نادرا لأن معظم الأحداث التى تعرضت لها

هـذه البـلاد معـروفـة للجميـع ، ولم نستثن من ذلك سـوى مشكلة الاستعمار الصهيونى ٠٠ لأن أبناء البلاد العربية مع الأسف لاتكاد حتى اليوم تدرك تمام الادراك خطر هذا الاستعمار مع أنه أشد وأضخم من أي خـطر آخر تتعـرض له البلاد العـربيـة اليـوم ٠٠ وذلك لأن الاستعمار الأوربى يهددنا من الخارج ، أمـا الاستعمار الصهيـوني فقابع في قلب البلاد العربية كالداء الوبيل الكامن فى الجسم ، والدول الاستعمارية تتناول سياستها ومشاريعها أقطار عديدة ، ولها خصوم أشداء يناصبونها العداء أما **الصهيونيون** فان مشاريعهم كلها منصبة على البلاد العربية وليس لهم خصم أو عدو سوى الشعوب العربية فكل جهودهم موجهة إلي الوطن العربي ، وكل شرورهم مكرسة لالحاق الأذى البالغ بأبناء ذلك الوطن ٠٠

● ● ●

يشتمل الكتاب على مقدمة وسبعة فصـول ٠٠ ويخص المقدمـة بالحديث عن « عالم نصفه عبد ونصفه حر » يقول فيـه : « فى جميع أرجاء الأرض أقطار يصفها الناس بأنها ممتلكات ولن يكون من الصعب عليك أن تتعرف عليها فهى مصبوغة فى الخرائط الجغرافيـة بمختلف الألوان من حمراء وزرقاء وخضـراء هذه ممتلكـات بريـطانية ، وتلك فرنسية والأخرى بلجيكية ، وليست هذه الممتلكات قـطعا صغيـرة أو أقطارا محدودة المساحة بل كثيرا مـا تشمل قـارة من أكبر القـارات وأضخمها ، كقارة افريقيا كلها التى ليس فيها قطر واحد ، بل ولا شبر واحد من الأرض لم يرزح هو وسكانه في وقت من الأوقات تحت نير الحكم الأجنبى فى مختلف صوره وأشكاله »٠٠

فعالمنا اليوم منقسم إلي قسمين مـالك ومملوك ـ والمالكـون فئة صغيرة من سكان هذا الكوكب والمملوكون أقطار واسعة فسيحة وشعوب

كبيرة العدد ، متنوعة الأجناس والألوان ٠٠ هذه هى أعظم الظاهرات السياسية فى عصرنا هذا ، وأحقها بالدراسة والبحث ، ومهما حاولنا أن نلطف من هذه الظاهرة فاننا لن نستطيع أن نصفها إلا أنها عبارة عن استعباد سياسى ٠

ويقول المؤلف فى مقدمته هذه : « وليس الاستعمار بالأمر الحديث فقد شهد العالم القديم انشاء دول ضخمة مثل امبراطورية بابل واشور وايران ، ومثل الدولة الرومانية ٠٠

لكن هنالك فروقا واضحة بين الاستعمار القديم والحديث وسنحاول اظهارها ، ومنها سيتبين أن الاستعمار الحديث فى ظروفه وملابساته التى نشاهدها اليوم ، هو اثم من أكبر الآثام واجرام بشرى ليس له نظير فى التاريخ كله ٠٠

٠٠ ومهما حاول المؤرخون أن يجدوا أسبابا مختلفة للحروب العالمية الأولى والثانية فليس هناك أدنى شك فى أن أهم تلك الأسباب التنافس الشديد فى الميدان الاستعمارى ٠

وهكذا نرى شهوة الاستعمار تسمم العلاقات الدولية ، وتوغر صدور الأمم ، وتوقد نيران حروب تلتهم الأخضر واليابس ، وتزداد فتكا وتخريبا على مدى الاجيال ٠٠

كذلك نرى الاستعمار قد أفسد الاخلاق السياسية ، وانحط بها إلي الدرك الأسفل من الكذب ، والرياء والتضليل ، واخلاف العهود ٠٠ والحنث بالايمان والمواثيق ٠٠ وقد تناولت شهوة الاستعمار الأوربي بلاد العالم العربى كما تناولت غيره من الأقطار ، وبيتت له شر النيات ، واضمرت له خططا كلها ظلم وارهاق ، مع أن العالم العربي وارث حضارات مجيدة ، وطالما رفع لواء العلم والعرفان ، واستظل العالم بفضله ظل الأمن والعدل دهرا طويلا ٠٠ فلم تتورع المخالب الاستعمارية من أن تنشب أظفارها فى قلبه ، وأن تكيد له أمر الكيد ، واشتد غيظ الاستعمار حين رأى الشعوب العربية تأبى الضيم ،

وتحرص أشد الحرص على أن تنعم أوطانها بكامل حريتها واستقلالها وزاد فى غيظه أن رأى أبناء هذه الشعوب لايقلون عن المستعمرين ذكاء وفهما ، ويستطيعون أن يجاروهم في ميدان التقدم والرقي فاضطر الاستعمار لأن يسفر عن حقيقته البشعة ، فأخذ يرتكب الاثم والمنكر جهارا ، فلا يتورع عن الالتجاء إلي أسلحة التخريب والتدمير ، ويصب على الأمم البريئة جام غضبه ، لأنها لم تخضع ولم تهن ، وحاول أن يغرر بها باتخاذ أسماء جديدة مثل الانتداب والوصاية والحماية ، فلم تؤثر فيها الخديعة ولا الرياء بل مضت فى جهادها لنيل حقها الشرعى في الحرية والحياة الكاملة ..

ثم يتحدث المؤلف فى أول فصول كتابه عن المسرح الجديد للسياسة الدولية ثم ينتقل منه إلي الفصل الثانى ليتحدث عن الاستعمار قديما وحديثا ، وفى هذا الفصل يقول :

« ليس فى ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار التى بات من نتائجها أن قسمت الأرض إلى بلاد مالكة .. وبلاد مملوكة .. وبلاد مستقلة .. ليست بمالكة ولا مملوكة .. وربما أضيف اليها نوع رابع ليس بمالك ولا مملوك فى حالة وسط .. وهو على الارجح من الأمثلة القليلة التى يمكن أن يقال فيها « شر الأمور الوسط »

وجدير بنا ـ ونحن في سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة ـ ان نبدأ بتعريفها وتحديد معناها ، ولقد يخطر لاحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم ، أو كتب اللغة ، أو دوائر المعارف ، ولكن الباحث فى هذه الأسفار لن يؤوب حتى بخفى حنين .. فان في لسان العرب مثلا عشر صفحات فى مادة « عمر » بتشديد الميم .. ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار .. ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة « امبريالزم » كمادة مستقلة ، ومن أية مادة أخرى فى هذا المعنى .. وقد اشتقت الكلمة العربية فى شيء من التفاؤل من مادة

« العمر » و « العمران » ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران إلى شر أنواع التخريب والتدمير ·

وبديهي أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة فى تعريف معنى الاستعمار لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ·· وان لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقررا محددا لدى جميع الكتاب ·

ويمضى المؤلف فى كلامه إلى أن يقول : « وصفوة القول اننا فى حاجة لأن نعرف لفظ الاستعمار تعريفا سهلا واضحا ، يتيسر لدراستنا هذه ، فالاستعمار المقصود هنا هو « العمل » أو مجموعة الأعمال التى من شأنها السيطرة ، أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان فى آن واحد ، وهذا التعريف كاف فيما يخيل لي ، لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ·· ثم يتحدث المؤلف عن الاستعمار القديم والحديث مقارنا بينهما مشيرا إلي مايلاحظ من الفروق بينهما وما يصاحب كلا منهما من الصفات ·· ومما يقوله فى هذا الصدد :

« من الظاهرات الغريبة فى الاستعمار الحديث انه ليس من الضرورى أن تقوم به الدولة نفسها ·· بل كثيرا ما تولى الأفراد ـ فى صورة شركة ـ جميع أعمال الاستعمار ··

·· وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطارا عظيمة الأهمية في القرن السابع عشر منها الهند ، وجنوب افريقيا وجزر الهند الشرقية ·· وفى القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الافريقية ··

·· وكان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية بدلا من أن تضطلع بها الدولة نفسها عملا ملائما للحكومات كل الملاءمة فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفضائح من أجل الاستيلاء ·· ومهما اقترفوا من الاثم والوحشية فهم على كل حال

أشخاص غير مسؤولين ، وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة ـ بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة ـ وتتولى ادارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضا كريما فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال ، وهكذا تجيء الدولة في صورة المنقذ المخلص للشعب الافريقي من مخالب الشركة التى سمحت بانشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والارشاد ٠٠

● ● ●

ومن أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتابا وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه ٠٠

فهم يقولون مثلا ان الدولة لن يكون لها شأن له خطر إلا بالتوسع والاستعمار ٠٠

ويقول آخرون : ان الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لابد أن تنشرها وتبثها بين الشعوب ٠٠ الا وهى رسالة المدنية والحضارة ٠٠ رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب وليس الفتح غاية ٠٠ بل وسيلة لاعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية !!

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء » يحمله الجنس الأبيض ٠٠ وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية التى جعلت هدفها : « رفع شأن بنى الانسان فى كل مكان » !!

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب قد نسخر من هذه الأقوال ، أو نراها ضربا من الهذيان ، أو النفاق ٠٠

ويتابع المؤلف اشارته إلى أنواع عديدة من الاستعمار فى العصور الحديثة ٠٠ إلى أن يقول : « وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ان لم يكن السبب المباشر فى الحربين ٠٠ فانه على الأقل هو السبب فى افساد العلاقات الدولية وفقدان الشعور الانساني ، وبذلك

كان على الأقل سببا غير مباشر فى هذه الحروب العالمية وفى النكبات الهائلة التى أنزلتها بجميع الشعوب !

ثم يتحدث فى الفصل الثالث عن الانتداب والوصاية والاستعمار ·· وفى الفصل الرابع يحدثنا عن الاستعمار العسكرى · كما يخص الفصل الخامس بحديث مستفيض عن حرب الافيون التى شنها الاستعمار على الصين لسنوات عديدة من أجل أن يرغم سكانها وحكوماتها على قبول الأفيون كسلعة تجارية مشروعة من أجل مايجنيه تجارها من الأرباح الطائلة وما يحصلونه من الثروات الضخمة من المتاجرة فى هذه السموم !

أما الفصل السادس فيخصه المؤلف بالحديث عن « مأساة » وقعت فى العصر الحديث ، مثل فيها الاستعمار أفظع ادواره العدوانية !

وتلك هى المأساة التى أوقعها الاستعمار فى الهند أثناء ثورتها الاستقلالية فى عام ١٩١٩ م واشتهرت بمأساة « امرتسار » ! احدى المدن الهندية المشهورة · لقد كانت مأساة امرتسار مثالا مخزيا للعدوان الاستعمارى ذهب ضحيتها الكثير من الهنود الوطنيين فى ثورتهم على المستعمر !

ونمضى مع المؤلف في آخر فصول كتابه فى حديثه عن الاستعمار الصهيوني ·· وفيه يقول :

« ·· لقد أصبح الاستعمار الصهيوني أكبر خطر يتهدد الدول العربية ، لذلك كان جديرا بنا أن ننعم الفكر فى أمره ، وأن ندرسه ونطيل دراسته ··

بدأت الصهيونية أعمالها المنظمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، واتجهت فى جهودها إلى وجهتين :

الأولى ·· الجماعة التى كانت تحركها نزعة دينية ثقافية وغرضها ان ترى فى فلسطين مركزا محدودا تقام فيه الشعائر الدينية اليهودية بكامل الحرية ، وتحيي فيه اللغة العبرية وتنشأ فيه مؤسسات

ثقافية واجتماعية يهودية مع تمتع اليهود بكافة الحقوق التى لجميع سكان فلسطين دون أن تكون لهم أية نزعة استقلالية ٠٠

أما الطائفة الثانية التى لم تلبث أن طغت على الأولى فهى الصهيونية السياسية التى ترمي إلى انشاء دولة يهودية فى فلسطين يحتشد فيها المهاجرون من الأقطار الأوربية التى يكثر فيها اليهود مثل روسيا وبولندا وتجمع لها الأموال من سراة اليهود ٠ فى جميع أنحاء العالم ٠٠ هذه الطائفة التى أخذ أمرها يستفحل فى نهاية القرن الماضى لم تلبث أن نظمت تنظيما دقيقا وأصبح لها هيئات فى كثير من الأقطار الأوربية والأمريكية ، ومؤتمر صهيوني عام يعقد مرة فى كل عامين وقد عقد لأول مرة فى مدينة « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ م ٠

فى ذلك الوقت كان بعض الأغنياء من اليهود قد ساعد فعلا على انشاء عدد صغير من المستعمرات الصهيونية التى تشتغل بالزراعة ، ولكن مثل هذه المستعمرات لم تكن تطفىء غليل هذه الصهيونية ٠٠ ولذلك تقدم رؤساؤها إلى السلطان عبدالحميد يلتمسون منه أن يسمح بانشاء « جمهورية » يهودية فى فلسطين فى مقابل اعانات مالية ضخمة ٠٠ فرفض السلطان فأعادوا الكرة ٠٠ فأعاد الرفض ، ولم يكتف بالرفض بل أمر أن يسمح لجماعات صغيرة من اليهود اذا شاءت أن تنزل فى أية بقعة من الدولة العثمانية ما عدا فلسطين !

أمام هذا الرفض الحازم حاول الصهيونيون أن يسمح لهم باحتلال قبرص فرفضت الحكومة البريطانية طلبهم ثم طلبوا أن يسمح لهم باحتلال منطقة العريش من أرض مصر ٠٠ وهي على كل حال متاخمة لفلسطين ـ فأذنت لهم السلطات المختصة بأن يرسلوا بعثة صهيونية إلى العريش للبحث والتنقيب ، فانتهت تلك البعثة إلى أن الاقليم صالح للاستعمار على شرط أن يسمح لهم بجلب الماء من نهر النيل ، فأبى اللورد كرومر الموافقة على هذا المشروع فأهمل ٠٠ اكتفى الصهيونيون فى السنوات التالية بتقوية المستعمرات التى سبق انشاؤها

فى فلسطين وبتوحيد صفوف اتباعهم فى مختلف الأقطار ، وترقب أول فرصة سانحة لتحقيق أطماعهم وقد أتيحت هذه الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى ·· ومن الممكن أن نعتبر هذه الحرب بمثابة نهاية المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيوني ··

·· جاءت الحرب العالمية الأولى فرأت الهيئة الصهيونية العالمية أن تتبع سياسة الحياد الرسمي ، ولكن فروعها فى ألمانيا من جهة ، وفى بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى لم تكف عن السعى والجد ، فلم تلق توفيقا يستحق الذكر فى الأولى ·· ولكنها نجحت نجاحا عظيما فى بريطانيا وأراد الصهيونيون فى بريطانيا أن يحققوا برنامجهم الكامل بانشاء دولة فلسطين وعارضهم معارضة شديدة يهود انكلترا فترتب على ذلك تلك السياسة الوسط التى قالت بأن بريطانيا « تنظر بعين الرضا إلى انشاء وطن قومي لليهود فى فلسطين على الا يكون فى هذا مايمس حقوق اليهود فى سائر الأقطار ، أو حقوق الجماعات غير اليهودية التى تعيش فى الأرض المقدسة » ··

وقد اندفعت بريطانيا فى هذه السياسة لأنها وجدت فيها وسيلة لتثبيت قدمها فى أرض تزيد فى مقدرتها على الدفاع عن مواصلاتها الامبراطورية عامة ، وعن قناة السويس بوجه خاص عدا ماتجنيه من المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة ، اذ تصبح هي الدولة المهيمنة على البلاد المقدسة التى نشأ فيها الدين المسيحي ، بعد أن حاول الصليبيون عبثا انتزاعها من أيدى سكانها ·

قبل الصهيونيون ـ مؤقتا ـ تصريح بلفور ، وبذلوا مجهودا جبارا حتى صيغت وثيقة الانتداب على فلسطين صيغة تساعدهم على تحقيق أغراضهم ، وتذهب فى تفسير ذلك التصريح إلى أبعد مدى يلائمهم ، فضمنت لهم أن تتخذ جميع الاجراءات اللازمة لتيسير الهجرة وتشجيعها وتمكين المهاجرين من شراء الأرض واستثمارها واحتلالها بواسطة جماعات متراصة متلاصقة ، ومن اقامة المشروعات

لاستغلال الموارد الطبيعية في مختلف أنحائها ، وفوق هذا كله اعترفت وثيقة الانتداب بحق الهيئات الصهيونية فى أن تنشىء وكالة يهودية لكى « تتعاون » مع حكومة فلسطين من أجل تنفيذ جميع شروط الانتداب ، فلم تلبث هذه الوكالة أن أضحت حكومة داخل الحكومة !

وبعد أن تم للصهيونيين هذا النصر الباهر فى وثيقة الانتداب ، أحرزوا نصرا آخر لايقل خطرا بأن اختارت حكومة الانتداب يهوديا صميما ، وصهيونيا عريقا وهو السير هربرت صموئيل ، لكى يكون الحاكم الأول على فلسطين فاستطاع الاستعمار الصهيوني فى هذه المرحلة الثانية ـ فى الفترة بين الحربين العالميتين ـ أن يثبت أركانه على قواعد متينة ، وأسس ضخمة ، وأن يزيد عدد المستعمرين حتى ارتقى من نحو ٥٠,٠٠٠ فى عام ١٩٢٠ م حتى بلغ ٦٦٠,٠٠٠ فى عام ١٩٤٠ ، وازداد العرب فى اثناء هذه الفترة زيادة طبيعية حتى صار عددهم يقارب المليون ·

ويتابع المؤلف كلامه حول النشاط الصهيوني فى هذه المرحلة ·· إلى أن يقول : ورأت بريطانيا ـ بعد لأي ـ أن الاستعمار الصهيوني يوشك أن يصبح خطرا عليها ·· وبدلا من أن تكون السياسة الصهيونية وسيلة لتثبيت أقدام بريطانيا فى فلسطين رأت نفسها تتخذ أداة لتنفيذ الاطماع الصهيونية ، وأدركت أن الخطر على النفوذ البريطاني لايقل عن الخطر الذى يهدد « الشعب العربى » ولذلك سنت سياسة جديدة ضمنتها « الكتاب الأبيض » الذى صدر فى ربيع عام ١٩٣٩ والذى تقرر بمقتضاه الحد من الهجرة الصنهيونية ، ووقف بيع الأراضى لليهود فى جزء كبير من فلسطين ، واتخاذ بعض الاجراءات نحو اعداد البلاد للحكم الذاتى ، وقد نفذت شروط هذا الكتاب فى أثناء الحرب ، ثم خولفت صراحة بعد انتهائها مباشرة ··

ثم يقول المؤلف : ·· وقد رأى الصهيونيون حتى فى أثناء الحرب أن بريطانيا لن تمكنهم من التوسع الاستعمارى فى فلسطين إلى أبعد من

المدى الذى وصلوا إليه لأن ازدياد النفوذ الصهيوني أضعف النفوذ البريطاني ، أو بعبارة أخرى : ان الاستعمار الصهيوني لفلسطين أصبح خطرا على الاستعمار البريطاني فى هذا الركن الخطير من العالم !

وقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن ضعف الانكليز فى الميدان الدولى فأصبحوا دولة من المرتبة الثانية تسير فى ركاب الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد عليها كل الاعتماد ٠٠ ولعل الصهيونيين كانوا يتوقعون ذلك ، فأعدوا للأمر عدته ٠٠ وفى امريكا ستة ملايين من اليهود لهم نفوذ واسع ، وسلطان كبير فصناعة السينما كلها فى أيديهم ، وكثير من شركات الاذاعة والصحافة خاضعة لهم ٠٠ ولذلك كان لهم فى أمريكا نفوذ أكبر مما يبدو من نسبتهم العددية لجميع سكان الولايات المتحدة فكان لديهم من وسائل الاغراء ما امكنهم من تسخير كثير من رجال الدولة ٠٠ لقضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم ٠٠

٠٠ وقد وجد يهود أمريكا فى الرئيس الأسبق ترومان أداة طيعة لايرد لهم طلبا ويشكل سياسته طبقا لما يمليه دعاتهم ٠٠

ولسنا هنا ـ يقول المؤلف ـ فى مقام سرد حوادث الحروب الفلسطينية وحسبنا أن نذكر أن الصهيونيين أمكنهم أن يؤسسوا دولة سموها « اسرائيل » ٠٠ وأخذوا يشجعون المهاجرة اليها من الأقطار ، ويجبون لها المال بجميع الوسائل ، ويبدون همة فائقة فى توطيد أركانها وتدعيم بنيانها ، ويسيرون على خطة محكمة وسياسة واضحة الأهداف ٠ وهكذا حقق الاستعمار الصهيونى هدفه الذى رمى اليه وأمكنه أن يبلغ مأربه الذى يتمثل فى المرحلة الثالثة وهي انشاء دولة صهيونية فى فلسطين ٠٠ فهل يقف الاستعمار الصهيوني عند هذا الحد ؟ أم هنالك مرحلة رابعة ؟

ان تاريخ الصهيونية كفيل بأن يوضح لكل ذى عقل انها لن تقف عند حد ، فان التوراة اشارت إلي وطن يمتد من الفرات إلى النيل ٠٠ وهيهات أن تقعد الصهيونية عن السعى لتحقيق هذا الهدف !!٠

بعـد ذلك يختتم المؤلف كتـابه بحـديث مستفيض عن دعـاوى الصهيونية العريضة فى أن اليهـود فى جميع أنحـاء العالم من أصـل فلسطينى ، وانهم حين يطالبون بفلسطين ، فانما يطالبون ببلادهم التى نشأوا فيها ٠٠ ثم اخرجوا منها ٠٠

ثم ينتهي بعد مناقشة عميقة للمزاعم الصهيونية المضللة فى هذا الصدد مستندا فى ذلك إلي أقوال ثقات علماء الاجناس وفطاحل المؤرخين العالميين إلي اثبـات بطلان كـل هذه المـزاعم ٠٠ ويقول فيمـا يقول : « وهكذا يبدولنا في وضوح وجلاء أن يهود أوربا ـ وهم عماد الصهيونية ودعاتها ـ هم من أصل أوربى ، كما أن يهود اليمن من أصل يمني ، ويهود الحبش من أصل حبشى ، ومن الافتراء على الحقيقة أن يقال ان اليهود شعب لا وطن له ٠٠ بل هم أعضاء فى شعوب كثيرة ، ولهم أوطان عديدة ، وان اختلفوا فى الدين عن سائر السكان فيها ٠

« ان صوت العلم في هذا الموضوع الخطير صريح لا لبس فيه ولا ابهام ولا خفاء فيه ولا غموض وان الزعم بـأن يهود أوربـا من أصل فلسطيني زعم باطل قد فنده العلم وأثبت بطلانه في صورة لا تدع مجالا للشك » ٠٠ ويتساءل المؤلف هنا : هل خفيت هذه الحقيقة عن الساسة البريطانيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، حتى اندفعـوا إلي تأييـد السياسة الصهيونية بكل ماتملكه الدولة البريطانية من القوة والسلطان وضحوا في سبيل تحقيق هذه السياسة بشرف وعودهم التى ارتبطوا بها ارتباطا مقدسا بأن يؤيدوا القضية العربية في جميع الأقطار العربية ؟

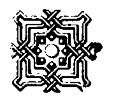
هل كان ساسة بريطانيا يجهلون أنهم بزعمهم هذا يكذبون على العلم والتاريخ ، أوكانوا يدركون أنهم يجارون الدعاية الصهيونية وهم يعلمون علم اليقين انها دعاية باطلة ؟

ان العلم يفند الدعوة الصهيونية ويحكم بزيفها وبطلانها كمـا يقضى بأن تصريح بلفور وصك الانتداب وثيقتان لا تستندان إلي حق ولابد للعرب أن يعملوا على نقضهما والغائهما ٠٠

وليست السياسة الصهيونية سوى سياسة استعمارية عدوانية وهي تشبه في كثير من صفاتها السياسة النازية والجرمانية ·· وليس في هذا وجه غرابة ، لأن قوامها يهود جرمانيون ولذلك لم تختلف أساليبهم الهتلرية في شيء ·· فقد كان النازيون أيضا يمسخون علم الأجناس ، ويصبغونه بالصبغة التى تتفق مع شهواتهم ، فابتكروا شيئا سموه (الجنس الآرى) زعموا أنه أفضل الأجناس وان من الواجب أن تكون له الزعامة على جميع الأجناس ··

والعلم ينكر وجود شيء اسمه « الجنس الآرى » بل الآرية ثقافة ولغة ·· تتمثل في تلك اللغات المنتشرة في الهند وايران وأوربا ، وليس لها أساس في جنس أو سلالة ، كذلك اليهود اخترعوا شيئا سموه « الجنس اليهودى » وحشروا فيه سلالات مختلفة متباينة مع أن اليهودية دين انتشر بين عدد كبير من الأجناس والسلالات التي لاتمت إلى فلسطين بأدنى صلة ··

ولئن كانت الدعاية النازية قد انتهت بالنازيين إلى اشهار حرب عالمية ، فان الدعوة الصهيونية موجهة إلى قلب البلاد العربية ·· فجدير بأبناء هذه البلاد أن ينتبهوا إلي ماتقوم عليه الدعوة من زيف وبهتان ·



الاستعمار : أحقاد وأطماع

الشيخ محمَّد الغزالي

أحقاد وأطماع ٠٠ تلك هي المشكلة أو تلك هي العقدة فى تاريخ الاستعمار !

أحقاد وأطماع دائما ٠٠ يمضى فى طريقها قدما ، بلا مبالاة ، وربما بلا وعى ٠٠ كلما أحس أنه بامكانه أن يغزو غيره من البشر ، وأن يمارس فيهم صناعة العدوان !

ويا للهول ! عندما نستعرض الفيلم الرهيب : فيلم الاستعمار !

ياللهول ! عندما نتأمل تاريخه فى القديم والحديث ٠

تاريخ كله حقد أسود ٠٠ وأطماع ليس لها حد !

تاريخ مفعم بكل ماهو مثير ، من ألوان المهازل ، وألوان المآسى ٠٠

تاريخ يحكى ٠٠ وماذا يحكى غير أقسى أنواع الظلم والاستغلال ٠

تاريخ ٠٠ ليس هذا الكتاب فى الواقع سوى تسجيل رائع لصفحة من صفحاته أو ناحية من نواحيه ٠

والاستاذ الكبير محمد الغزالي ٠٠ هو بلا شك خير من يقدم لنا مثل هذه الصورة الأمينة الصادقة بأسلوبه القوى وتحليله الرصين ٠

ولسنا ننكر أننا تجاوزنا عن الكثير من موضوعات الكتاب ٠٠ اذ الصفحة هنا لاتتسع لأكثر من هذه الالمامة البسيطة جدا من كتاب يشتمل على ٣٠٠ صفحة أو تزيد ولنستمع للمؤلف لنراه يقول :

أحسب تاريخ العالم لايعرف فى سجله الطويل أسوأ من مـدنية الغرب فى معاملة الآخرين ، وتجاهل مصالحهم ، ومصادرة حقوقهم · بل أنه لايعرف أسوأ من هذه المدنية فى اراقة الدماء بغزارة ، والتهام الحرمات بنهم ، وتجسيم الاثرة الباغية تجسيما يحجب كل ماوراءه من خير وعدل ·

فالخير ما عاد عليها وحدها بالنفـع ، وان كسر قلوب الآخرين ! والعدل ما سوغ حيفها ، وان شاه وجه الحق ، واستخفت معالمه تحت ركام من الأقذار ·

الطابع الغالب على أبناء أوربا أنهم قساة القلوب ،·وأن بطشهم باعدائهم - أعنى من يرونهم اعداءهم - يتسم بالجبروت والفظاظة وان تـدمير المـدن ، وازهاق الأرواح ، واهـلاك الحرث والنسـل ، أعمـال ترتكب ، وكأنها مسلاة هينة ، أو عبث مأمون الجزاء ·

عندما غزا الانكليز استراليا أخـذوا ينزلون بـالبقاع الخصبـة منها ، ورسموا سياسة دقيقـة لمنع سكـانها الاصـلاء أن يشركـوهم فيها ·· وكلما تكاثر الغزاة اشتد دفع الاهلين عن الموارد العامرة الى الصحارى المتلفة كي ينقرضوا فى صمت ·

والذى فعلتـه انكلتـرا فى استـراليـا فعلت مثله ايـطاليـا فى طرابلس ·· ولاشك أن في الأمم من يسخط هذا المصير ··

وهنا تقع الطامة ، فان اطفـاء ثورات التحـرر تلقى اسلوبا من القمع والتمزيق يثير الرعب ، اسلوبا انفرد به الاستعمـار الغربى عن اعصار التاريخ كلها !

·· والاستعمار الغربي يستبد به جنون القتل كلما كان المسلمون هم ضحاياه ، وكلما كانت بلادهم هي هدفه ··

انـه فى هذه الأحـوال يستمـرىء العـدوان ·· وينتشى بـالدم المسفوك ··

ان حضارة الغرب لا ضمير لها ولا قلب ، انها حضارة قطعان ٠٠ استغلت تفوقها العسكرى لتملأ الحياة فسادا ٠٠

٠٠ ولا جدال فى أن الدين الذى يملي هذا السلوك ليس النصرانية أو غيرها من شرائع الله ٠٠ انما هو دين الهوى وحده ٠٠ الهوى الذى قال الله فى عبيده : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » « الجاثية : ٢٣ »

« أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » « الفرقان : ٤٣ و ٤٤ » ٠

هذا الهوى الجامح الظلوم هو سر المآسى ، التى قارفتها أوربا عندما مال ميزان القوى الى جانبها ، وملكها زمام الغزو والفتح فى آفاق العالمين ٠

لكن الغرب مع ذلك لا يزعم انه مسيحي فحسب ، بل انه ليحتضن هذه المسيحية ، ويستصحب رجال الكنيسة معه ، وهو يخترق أعماق القارات المظلمة ، فما مبعث تلك الهمجية التى تقارن زحف الصليبيين حيث كان ؟

مبعث ذلك أن الدين لدى الأوربيين عصبية محركة لا عقيدة واعية ٠ والدين عندما يكون عصبية يكون أول شىء يتحمس له الانسان ، وآخر شىء يعمل به ٠٠

ولا قيمة لعاطفة التدين ـ ولو كانت بارقى الأديان وأصحها ـ اذا قامت فى النفس على هذا النحو المبهم ٠

ان الدين علاقة بين الانسان والرحمن ، تزكو بها النفس وتستنير وهو لذلك علاقة بين الانسان والانسان ، أساسها التآخى والتراحم علاقة ان لم تصل إلى قمة الفضل ٠٠ فلا يجوز أن تهبط عن مستوى العدل !

واذا قام دين ما ٠٠ بعيدا فى حقيقته عن معانى العدل والفضل جميعا فهو ليس بدين ٠٠ واتباعه لن يكونوا رسل رحمة ، بل زبانية عذاب ٠

والصليبية للأسف ـ كانت محور عصبيات غاشمة ، اتخذت الدين ستارا لمطامع شتى ، ولذلك لم يجن العالم منها منذ اتقدت جذوتها الا الدمار والبوار ٠

وفساد الديانة اليهودية يرجع ايضا الى هذه الحقيقة اذ انها تحولت عن أصلها السماوى ، الى عصبية جنسية ، يتعارف ابناؤها عليها ، كما يتعارف اللصوص على كلمة السر وكراهية الناس طرا لليهود ، مبعثها احساسهم بهذه الاثرة الجنسية وما تطفح به من حقد ودناءة ٠

وفى عصرنا هذا التقت النصرانية واليهودية على محاربة الاسلام ! وحصار أهله ، وتمزيق شمله ، ترى ماذا جمع بين النقيضين ؟ أهو العامل المشترك فى هاتين العصبيتين ؟

انه هو !

عصبية تتوارى فى مسرح الدين ، ولبابها الهوى والظلم !

يضاف الى ذلك أن طبيعة النصرانية باعدت بينها وبين الامتزاج بالعقل والضمير ٠

ان الانسان عندما يحقن بسائل ما ٠٠ ينساب هذا السائل فى دمائه كلها ، لكن هل يمكن أن يحقن الانسان بمادة صلبة ؟ ان دخولها فى عروقه مستحيل !

كذلك استحال على العقل أن يقبل كون الله ثلاثة ٠٠ واستحال على الضمير أن يقبل التضحية برجل ٠٠ فداء غيره من المذنبين ٠ فبقيت هذه التعاليم خارج الانسان الأوربى ، الذى بقى يتصرف بمشاعره وأفكاره الخاصة ٠٠ دون التقيد بدين ، لم تمتزج أسسه بنفسه الا زعما أو وهما ٠٠

وذاك سر ماتنطوى عليه الحضارة الغربية من مآثم ومظالم وسر قيامها بالحروب المدمرة ، كلما قامت فى فترة سلام ٠

وقد ألف الأستاذ « جودا » أستاذ الفلسفة الانكليزية كتابا قيما سماه : « سخافات المدنية الحديثة » قال فيه : « ان المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ٠٠ فالاخلاق متأخرة جدا عن العلم ٠٠ ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء ، والأخلاق فى انحطاط ، حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يترائى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، اذا هو لايمتاز فى أخلاقه ، وفى شرهه وطمعه ، وفى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره ٠٠ وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة اذا هو لايدرى كيف يعيش ، وتوالي الحروب الفظيعة الهائلة دليل على افلاسه ، وقد خولت له العلوم الطبيعية قوة قاهرة ، ولكنه لم يحسن استعمالها » ٠

وقال الأستاذ « جودا » فى موضوع آخر :

ان فيلسوفا هنديا سمعنى اطري حضارتنا ، وأقول ان أحد سائقى السيارات قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة واحدة على الرمال ، وطارت طائرة من موسكو الى نيويورك فى عشرين أو خمسين ساعة ٠٠ فقال ذلك الفيلسوف : انكم تستطيعون أن تطيروا فى الهواء كالطير ، وان تسبحوا فى الماء كالسمك ولكنكم الى الآن لاتعرفون كيف تمشون على الأرض » ٠

ان الفلسفة المادية هى دين الغزو الأوربي فى القديم والحديث والقوم على اختلاف مواطنهم وحكوماتهم تجمعهم فكرة السطو على أموال الآخرين ، وهم يخرجون من بلادهم يراودهم حلم واحد : كيف يثرون من أقصر طريق ؟ كيف يجمعون الثروات الضخمة ؟ كيف يرضون اطماعهم فى التشبع من هذه الدنيا ، والامتلاء منها إلى حد البطنة المردية ؟

وليس فى حسابهم أبدا انهم واجدون في هذه المحاولات أقواما لهم حقوق يجب احترامها ، كما أنه ليس فى حسابهم ان للسلوك الانساني حدودا يجب التزامها ، والدين الذى يعتنقون لايفهم الا انه ذريعة لتقريب مآربهم ، واستباحة خصومهم ٠ لا وظيفة له الا هذا ٠٠

ولو تتبعت أحوال المستعمرين حيث حلوا من أعصار خلت أو فى هذه الأيام ، لوجدت الهدف هو الهدف ، ما تتغير من سياستهم الا الأساليب والأسماء ، أما الحقائق والغايات فهى هي ٠٠

الاسلام يسعه أن تقوم إلى جانبه ديانات أخرى يتشبث بها ابناؤها ، ويحيون ويموتون عليها ، ومع ذلك لا يلقون منه عنتا ولا ينالهم اضطهاد أو افتيات ! ذلك ان اختلاف الدين ليس عنده مثار بغضاء ، أو علة اجتراء ٠٠

كلا ٠ فليخالف من يشاء : وليبق على يهوديته أو نصرانيته من يحب ٠٠ بيد أن المطلوب منه ايجاد المسالمة لغيره والابتعاد عن أسباب الجور والتحدى ، فاذا فعل ذلك فحقه المقرر له أن يلقى الود مضاعفا ، الأمان مبذولا والايناس والترحيب حيث يحل ٠٠ أجل لقد شرع الاسلام فى معاملة أهل الاديان الأخرى قواعد العدالة ومعالم الرحمة والتلطف ٠

والفقه فى كتاب الله وسنة رسوله هو الذى جعل « ابن حزم » امام الاندلس يقول « ان من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم وسد خلة فقرائهم ، واطعام جائعهم والباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال أذى الجار منهم ، ـ مع القدرة على دفعه ـ رفقا بهم ، لا خوفا ولا تعظيما ٠٠ واخلاص النصح لهم فى جميع أمورهم ، ومدافعة من يتعرض لايذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وان يفعل معهم كل مايحسن بكريم الاخلاق ان يفعله ٠٠ »

وقد كان لهذه الوصايا السمحة أثرها فى اعزاز غير المسلمين وسط ديار الاسلام ، فلم تبق القلة المحافظة على يهوديتها ونصرانيتها

فحسب ، بل دعمت كيانها وزادت ثراءها ورفعتها الى مكان مرموق من الناحيتين المادية والأدبية معا ٠

والمسلمون اليوم فى أعقاب فترة كـابية من تـاريخهم الطويل لم ينفضوا بعد غبار الذل الذى لحقهم عقيب انهيار حكمهم وطي لوائهم ، أو هم يتهيأون لهذه الانتفاضة المرموقة ويستعدون لما تعرضه من مغارم وضحايا ٠

- وحال المسلمين مع دينهم تستدعى كثيرا من التأمل !

- فهم خلوف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات !

- وهم أوزاع تنميهم قوميات شتى ، يقدمون النسبة اليها على نسب الاسلام العريق !

- وهم مشتتو الاهواء والآراء أمام العواصف الفكرية والعاطفية الهابة من الغرب ٠٠

- وهم يخلطون بين التخلص من التقاليد الرديئة التى أذوت حضارتهم والتخلص من بعض تعاليم الاسلام نفسه !

- وهم يخلطون كذلك بين الافادة من نتائج الحضارة الحديثة ، أو الانغماس فى متاعها ، والانسراب مع نزواتها ٠

وما تراه سر هذه السماحة الرائعة ؟ والاعتدال الفذ ؟

انه الاسلام ! الاسلام وحده ٠٠ الاسلام المحسن المجحود !

ولكنك تغص بالحسرة عندما تلمح موقف « الآخرين » من هذا الدين وأهله ٠٠

٠٠ لم يرزق قادة النصرانية هذه المرونة ، بل على العكس التزموا وضعا واحدا لايتغير كل الدهور ، واختلاف العصور وهو الانكار المستمر على الاسلام ، والطعن القاسى فى أصوله وفروعه ٠٠ ان أمكنهم الاجهاز عليه ، فلا معنى لبقائه !

وان بقى لظروف عصية ، فليس لأهله حقوق تقام !

حتى حقوق الانسان العادى ، انها تستكثر عليهم استكثارا ،

ويحرمون منها حرمانا ٠٠

وها قد مضت أربعة عشر قرنا على هذا الصراع العنيد دون أن تبدو له نهاية تؤذن بسلام !

ـ أما لهذه المآسى من آخر ؟ أما للصلح من موضع ؟

ـ ان له مواضع شتى لو أرادت الصليبية ، وآثرت المودة بعد طول جفاء ٠

ـ ان الكلمة ليست لنا ٠٠ وعبء اقرار السلم لايقع علينا ٠٠ فالتبعة الكبرى تحملها أقطار الغرب الصليبي ، هذا الغرب الذى يعبث اليوم بمصاير البشر عبثا لم تعرفه القرون الأولى ٠

●●●

ان حلم لويس التاسع وريتشارد ٠٠ لم يزل يداعب بعض الرؤوس فى الغرب ٠٠

ـ منذ أن وضعنا القيد فى عنق لويس التاسع ملك فرنسا فى القرن الحادى عشر ، وسحبناه أسيرا على وجهه الى معتقله فى دار ابن لقمان بالمنصورة ٠٠ فلم نفلته الا بعد أن افتدى نفسه بمال وعاهد القديسين الا يعود ولا يحاول ٠٠٠

ـ منذ تحالف الاستعمار الصليبي على اخوان لنا فى غرناطة من بلاد الاندلس ٠٠

ـ منذ وقف مكافحو البحر الجزائريون والمراكشيون على باب البحر يمنعون كل سفينة غير سفن العرب أن تمر أو تؤدى اليهم الضريبة وتعترف لهم بالسيادة البحرية ٠٠ بل منذ صارت الشام ومصر وشمال افريقيا أرضا عربية ، ومنذ ارتفع الاذان فى سهول الاناضول ، ومنذ تحولت « أيا صوفيا » الى مسجد ٠٠

منذ ذلك التاريخ البعيد ، لم تزل الحرب دائرة بيننا وبين الاستعمار الصليبي ٠

ولم تكن دعوى الصليب التى زعموها فى ذلك التاريخ البعيد الا عنوانا زائفا لخداع الملايين ٠٠

فما كانت حربهم يومذاك دينية كما زعموا ٠٠ فان الأديان لاتقر الاعتداء على الحرمات ، وهتك الحرائر ، ونهب الحقوق وسفك الدماء ، واغتصاب الأوطان ، واسترقاق الاحرار ٠

ولم تكن دعوى الصليب يومذاك الا زيفا وخداعا وتمويها وانما هو استعمار يتلون بلون ديني ليخدع الملايين من أهل الحماسة الدينية فينساقوا وراء أصحاب المطامع الاستعمارية انسياق الاغنام وراء الراعي ٠

٠٠ واندحر الاستعمار الصليبي فى أولى جولاته ، ولكنه لم ييأس ٠٠ ان حلم لويس التاسع وريتشارد وزعماء الصليبية الأولين لم يزل يداعب بعض الرؤوس هنالك ٠٠ ولم يزل الأمل فى امتلاك ارض المشرق واجلاء العرب عنها ينتقل فى الأجيال جيلا بعد جيل ٠٠ كل جيل منها يحاول محاولة لتحقيق ذلك الحلم القديم بعنوان جديد غير عنوان الصليب حتى كان القرن التاسع عشر ٠٠ وكان المسلمون يومذاك فى غفلة فاتاحت غفلتهم لتلك الدول أن تثب وثبتها وتحقق حلم الأجيال ٠٠

نعم تحققت أحلام ٠٠ ظل الحقد الدفين يغذيها طوال القرون السالفة ، وصحونا فاذا نحن نجنى ثمار الذهول والتفريط !

- ان الاسلام لايشتهى سفك الدماء ، ولا يندفع إلى امتشاق الحسام الا مكرها ٠٠ وأمل الاسلام الحلو ، ورغبته العميقة ان تتحول فجاج الأرض الى آفاق سماوية ، تموج باناس يشكرون ربهم ، ويذكرون نعمه ، دون أن تشغلهم حروب ، او تستشرى بينهم عداوات !

٠٠ لكن : كيف الطريق الى هذا الامل الوادع ؟ والى هذا السلام الشامل ؟

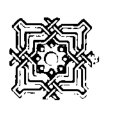
أيمكن الوصول اليه مع بقاء الصهيونية العالمية ، والاستعمار الغربى يملآن الدنيا فسادا وظلاما ؟

ـ اننا نحن المسلمين ، نحمل فى هذه الحياة رسالة الحق والخير والنور ، ونريد أن نعيش بها وادعين ٠٠ وأن تكون أوطانهم بها مثابة للسكينة والسلام ، والطمأنينة والوئام ، فهل يفقه هذا صانعو الحرب ، ومشعلو الضغائن حينا بعد حين ؟؟

ـ اننا نبغى السلام الشامل ! فأى سلام تتسع له ضمائر المنصفين اذا توطأت عدة دول على تشريد اخواننا ونهب أموالهم واستباحة حقوقهم ؟؟

أى سلام يراد به تمكين الغاصب واسكات الشاكى ، وتطمين المعتدى ، وتوهين الباكي ؟؟

٠٠ ان الاستعمار كارثة خلقية ، ومأساة انسانية ، وجرح عميق فى صميم الايمان ، وتحد خطير لرسالات الله ، وعمل يستحيل أن يبقى معه هدوء ٠٠ أو تستقر عليه حال ٠٠



أسطورة إسرائيل

تأليف : د. فرانس جوزيف شيدل
ترجمة : عادل القباني وأحمد عبد القادر

سوف تظل ، وسوف تظل باستمرار ، ودون أى تراجع أو جدل ·· قضية فلسطين مجالا للبحث ·· وللنقاش ·· بل ومجالا للتأهب ·· طالما بقى الوجود الاسرائيلى الصهيونى ، جاثما فوق الأرض الفلسطينية ··!

وليس من شك فى أن حل قضية فلسطين بتحريرها نهائيا من نير الصهاينة واعادتها لأصحابها الشرعيين - العرب - هو الحل القانونى الواقعى الانسانى ·· الحل الذى لايمكن أن يفكر أى عربى بل أى انسان منصف فى سواه مهما بدا للناس من تحكم الصهيونية العالمية فى أوساط الغرب ، أو مهما بدا للناس أيضا أن الاستعمار هو هو مازال سادرا فى خيلائه مغرورا بصلفه وجبروته ومصرا على أن يقف دائما من وراء اسرائيل ··

والحديث عن فلسطين ·· وعن اسرائيل ·· وعن الصهيونية ، هو حديث فى الواقع - عن أخطر جريمة وقعت فى التاريخ ·

ولقد كتب عنها الكتاب من كل مكان - فاكثروا ومازالوا يكتبون ·· !

ولئن كانت المطابع قد أخرجت للناس عشرات من الكتب أو

البحوث حول قضية فلسطين فى صورتها الحقيقية غير الملتوية أو المغرضة ، بحيث لم يعد خلاف حول بشاعة الجريمة ·· ولا انسانيتها ، فان الكتب التى صدرت من الغرب ـ حيث معقل اسرائيل ـ وبأقلام بعض الكتاب السياسيين المحايدين : انما هى ـ دون أى ريب ـ دليل واضح على خروج هذه القضية بالمرة ـ من اطار الجدليات العقيمة ؛ أو النقاش البيزنطى ·· !

ان هناك عددا كبيرا من كتاب الغرب ، أصبحوا يشجبون ـ بكل صراحة ـ المخططات الصهيونية ، ويندددون كل التنديد بعدوان اسرائيل ·· !

ولن نجد حيال ذلك ، ونحن نمضى اليوم مع كتاب « أسطورة اسرائيل » أى شىء غير عادى ، أو أى شىء غريب ·· !

كل ما نستفيده هو أن نستزيد من معلوماتنا ، أو أن نعرف أى مدى وصلت اليه فضيحة اسرائيل فى أرجاء الدنيا ··

ان كتاب « اسطورة اسرائيل » قد لا يأتينا بجديد فى الواقع عن حقيقة دعاوى الصهيونية ، وما ارتكبته وترتكبه من جرائم ·· ولكنه يؤكد لنا ـ على أى حال ـ وجهة نظر غربية محايدة غير متعصبة ، لها قيمتها فى مجال الآراء ··!

وأول ما يقرره لنا المؤلف وهو يتحدث عن اسطورة اسرائيل ، ان مشكلة اسرائيل اليوم ليست مشكلة اليهود فحسب ·· وانما هى مشكلة العالم أجمع ، بعد اختراع القنبلة الذرية ·· ذلك لأن اسرائيل تعرض العالم للحرب العالمية ، فى الوقت الذى يبدو فيه العالم فى حاجة ماسة إلى الاتحاد والاستقرار والسلام ·· ولذا ـ يقول المؤلف ـ : لايمكن للعالم أن يغمض عينيه عن مثل هذه المشكلة ·· !

« وقول الحقيقة بالنسبة لليهودى صعب جدا · ولا يسعه

أن يحتمله ، وقد دفعتنى الرغبة فى أن أحمل على عاتقى مسؤولية ايضاح مشكلة صعبة لى ٠٠ أن أبين وجهة نظرى » ٠٠

« وكثير من اليهود قد منحونى شرف صداقتهم ٠٠ وعملوا مافى وسعهم لاسعادى والترفيه عنى ٠٠ ومع ذلك فقد أبديت رأيى صريحا فى هذا الكتاب ! » ٠٠

ويقول المترجمان فى تقديمهما للكتاب : « انه أحد الكتب القليلة التى خطها مؤلف غربى ، يعيش فى وسط « دوامات » الدعاية الصهيونية العاتية ، ووسط ارهاب الصهاينة الذى يصل الى حد لايمكن أن يتصوره عقل بشرى ٠٠ !

ان الكتاب يعالج مشكلة اسرائيل بافاضة ، من جميع جوانبها ٠ فهو يعرض للجانب التاريخى من المشكلة ، مفندا لكل الحجج اليهودية الخاصة بمزاعمهم عن حقهم التاريخى فى فلسطين ٠٠ مبينا الى أى حد وصل الصهاينة فى تزييفهم لحقائق التاريخ ٠

وهذا الكتاب يدق أجراس الخطر مصلصلة عالية فى آذان اليهود فى جميع انحاء العالم ٠٠

وهو يسجل أيضا : التغير الذى طرأ على ضمير العالم ٠٠ لقد استيقظ هذا الضمير ليصيح على لسان « يوستينوس » : « لقد سرقت بلد بأكملها ، ونهبت جميع ممتلكات شعب بأسره ، حتى انه حرم من أرضه ووطنه ، ومع ذلك فالعالم يسكت على هذا ٠٠ اذن ففى أى عالم نعيش ؟ »

وعلى لسان « توينبى » : « لقد تعلل اليهود لطرد العرب من ديارهم بأعذار واهية ، واليهود يعلمون ماذا تقترف أيديهم ٠٠ وقد وصلت هذه المأساة إلى ذروتها ، ولكن يبدو أن اليهود لم يتعلموا شيئا مما حدث لهم ٠٠ وبعد ٠٠ ـ يقول توينبى ـ : ما هو المصير ؟! » ٠٠

ويشير المترجمان الى كلمة لـ « تيودور هرتزل » ، الرجل الذى خطط لانشاء الدولة الاسرائيلية » ، يقول فيها « هرتزل » :

« لو كنت قد عرفت اليهود جيدا من قبل ، كما أعرفهم طبقا للتجارب التى خضتها معهم ، لما بشرت بانشاء دولة يهودية خاصة » :

ولنستمع ـ بعد ـ الى المؤلف فى صفحات من كتابه « اسطورة اسرائيل » ٠

يقول المؤلف :

ـ لقد رفض جميع الصهاينة والمتزمتون ، واليهود المتعصبون ، الحل المرضى لمشكلة اليهود ، الا وهو اندماج اليهود مع الشعوب التى كانوا يعيشون بين ظهرانيهم ٠٠

وحتى فى جميع الدول المتسامحة ـ كالولايات المتحدة ـ حيث لايلاقون أى نوع من أنواع الاضطهاد الدينى ، لم يرض هؤلاء أن ينتسبوا الى هذه البلاد ، كما نجد الصهاينة الامريكيين أنفسهم يشعرون بأنهم يهود أولا ٠٠ ثم أمريكيون بعد ذلك ٠٠ علما بأن الصهيونية لاتجد لها مكانا أرحب فى العالم أجمع مثلما تجد ذلك فى أمريكا ٠٠

ولقد أصدر الصهيونيون الامريكيون قرارهم التاريخى العالمى بعدم الموافقة على الانصهار والانخراط ٠٠ أو اذابة اليهود فى الشعوب التى كانوا يعيشون معهم عن طريق الاختلاط ، وخاصة هؤلاء الصهيونيون المقيمون فى أمريكا ، الذين يصرون بشدة وعنف ـ متعللين بأسباب وطنية وعنصرية ـ على انشاء دولة يهودية خاصة بهم ٠٠

وقد ظن العالم أن تكوين هذه الدولة ، قد حل مشكلة اليهود ، والمساعدات المالية ٠٠ وموجز القول أن الولايات المتحدة أسهمت عن طريق الصهيونيين الأمريكيين فى انشاء دولة لاسرائيل فى فلسطين ٠٠ كما ظن العالم أن تكوين هذه الدولة قد حل مشكلة اليهود ، وذلك بانشاء

وطن قومى لهم فى فلسطين ·· ولكن الحقيقة ان اسرائيل الحالية لم تحل مشكلة اليهود ·· ولا تستطيع العقول أن تتصورها حلا لهذه المشكلة ·· بل ان ذلك يعد ارتدادا فى التاريخ ، فبانشاء دولة اسرائيل فى فلسطين بالقوة ، خلقت مشكلة أخرى لليهود فى غاية الخطورة بجانب مشكلتهم العالمية ··

فاسرائيل ـ هذه الدولة التى اغتصبت أرض فلسطين ـ انما هى حل خاطىء تماما لايمكن الدفاع عنه أو تأييده ، لأنها اعتمدت على القوة التى يصعب الاحتفاظ بها ·

وقد تصرفت انجلترا فى منطقة لا تتبعها على الاطلاق ·· عندما وعدت اليهود بأن تكون فلسطين لهم بمثابة وطن قومى ·· وقد أجبر أهل فلسطين ـ الذين سكنوا هذه الأرض منذ أكثر من الفى سنة ـ على السماح بدخول أفواج اليهود المهاجرين الى فلسطين على أساس حق تقرير المصير الديمقراطى ··

وما أن وطئت أقدام اليهود أرض فلسطين لأول مرة ، حتى قامت المعارك التى لايمكن تجنبها بين العرب ـ السادة الشرعيين ـ وبين أولئك الارهابيين غير الشرعيين ·· ولكنهم نجحوا بتعضيد القوة الأمريكية الضخمة ، والمساعدات المالية التى يبذلها لهم يهود أمريكا ، وبفضل القوى التى يعبئونها لهم ، فى انشاء دولة اسرائيل وطرد ٨٠٠,٠٠٠ عربى من ديارهم ، وابعادهم عن وطنهم الذى نشأوا فيه ، كما استولوا على ممتلكاتهم ·· أما الـ ٢٠٠,٠٠٠ فلسطينى الذين بقوا فى فلسطين المحتلة ، فلا يعدون من المواطنين لانهم سلبوهم وطنيتهم ··

هكذا نشأت دولة اسرائيل ، وقد وسدها العرب دمهم ودموعهم ، وهم بذلك قد جنوا الجوع والعرى والتشرد والعوز ، تحت السلطة المطلقة فى أيدى اليهود فقط ·· وبقاء هذه الدولة القائمة على القوة والظلم لا يساوى الدماء الغزيرة التى اريقت والدموع التى سفحت ، والقوى والأموال التى بذلت من أجل انشائها ، فقد ازداد العوز

والحاجة وسوء الطالع نتيجة لانشائها ، وحمايتها بالقوة ٠٠

فانشاء دولة اسرائيل زاد من النوبات الخطيرة التى تهز أعصاب العالم ، والتى تهدد سلامته وطمأنينته ، فالعالم العربى لايرضى - طبعا - بانشاء دولة اسرائيل المبنية على القوة والسلب والاغتصاب ٠٠ وقد فعل نفس الشىء الذى فعله الامريكيون فى الولايات المتحدة عندما انتزعت منهم سان فرانسيسكو ٠٠ وكاليفورنيا ٠٠ ونهبت أراضى الامريكيين المقيمين هناك وممتلكاتهم ، ثم طردوا خارج بلادهم ، وتكونت فيها دولة يابانية وصينية ، ودول أجنبية أخرى ، فهب كل الشباب الامريكى : فتيانه وفتياته ، كل ببندقيته ، لطرد المغتصبين عن بلادهم ٠٠

لماذا - اذن - ينتظر العالم من العرب الا يفعلوا ذلك ٠٠؟

ولماذا ينبغى على العرب ألا يقوموا بمثل هذا الاجراء ؟٠٠ وقد بحث العرب - فى الحقيقة - عن كل الوسائل الممكنة لطرد هؤلاء المغتصبين بشتى الطرق ، عن طريق الارهاب والقتل ، وحرب العصابات ٠٠ وعن طريق الفرق الانتحارية والفدائيين ، الذين يصفهم هؤلاء الارهابيون بأقبح النعوت والهمجية ٠٠ رغم أنهم هم الذين سرقوا أرض الوطن من أصحابها ، وكان يجب أن يمجد هذا العمل الوطنى ، المقدس ، فالفدائى هو ذلك البطل الشجاع الذى يفضل أن يرتفع الى السماء من أجل وطنه ، وهذا الذى يمجده العرب جميعا ، بينما هو فى نظر الاسرائيليين : القاتل اللعين الذى سيذهب الى الجحيم ٠٠!

ويتابع المؤلف حديثه ، فيتحدث عن دعاوى اليهود التاريخية لامتلاك فلسطين ، الى أن يقول : والحقيقة أن فلسطين هى أرض اللاجئين الفلسطينيين المطرودين مابين عامى ٤٧ و ٤٨ م ٠ وهذه الحقيقة الثابتة لايمكن أن يعترف بها يهودى واحد فى العالم ٠٠ ولو حدث أن امتلك يهود اسرائيل قارة أمريكا نفسها ، فانهم سوف

يختلقون الادعاءات على أحقيتهم فى ملكيتها ·· !

وهل هذا صحيح ··؟

ان المؤلف هنا يقول : لم تكن اسرائيل هى الحل الصحيح لمشكلة اليهود ، لأنها الآن بعد أن كانوا مولعين بها يفضلون الذهاب الى أى جهة فى العالم على أن تطأ أقدامهم أرض اسرائيل ، لأنها دولة عناء ومشقة ·· الخ ·· الخ ··

·· وكانت مطالب اليهود الطبيعية هى أن يعيشوا فى سلام وطمأنينة ، ولم يفكروا مطلقا بأن انشاء دولة مستقلة لليهود يتطلب منهم أن يقوموا بتضحيات كبيرة ، وانفاق الأموال الكثيرة ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يستولى عليهم الاجهاد والعوز ··

لقد أتى مستوطنون يهود إلى فلسطين ، وقد ملئت عقولهم وقلوبهم بالخيالات والاوهام ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا من حيث جاءوا ، يجرون أذيال الخيبة والعار ··

ولم تكن الحياة فى فلسطين بعد تأسيس اسرائيل وطرد العرب وسلب أراضيهم وممتلكاتهم كاملة ، سهلة أو مستساغة ·· ومازال الأمر يتطلب من المستوطنين ـ اليوم ـ جهودا كبيرة ، وعملا مرهقا ، وكثيرا من التضحية ، والتنازل عن كثير من ملاذ الحياة ··

ولذلك لايفكر أى يهودى فى الذهاب الى فلسطين ·· واذا ذهب فانه يكون قد أجبر على ذلك ، تحت تأثير الظروف الخاصة !

والحقيقة هى أن كل يهودى يذهب إلى فلسطين لم يكن أمامه باب للاختيار ، لأنه أكره على الهجرة اليها ·· !

وقد حكم على اسرائيل بالموت الاقتصادى ، لانه لاتوجد علاقات تجارية بينها وبين الدول العربية ، كما أن الحصار الاقتصادى من جانب الدول العربية جعل المركز الاقتصادى لاسرائيل منهارا لا أمل له فى الانتعاش ··

وستظل اسرائيل تعيش على الأموال التى يهبها المواطنون الأمريكيون لها من الضريبة الحرة ··

● ● ●

« اخادهام » ، كاتب صهيونى معروف ، له كتاب اسمه « مفترق الطرق » ، يقول فيه : « اننا شعب اليهود المختار ، واننا وحدنا الذين نملك فى أيدينا الحقيقة المقدسة ـ كذا ! ـ وعن طريق ذلك انحط الهدف القومى لدى كثير من أفراد شعبنا ·· ولكننا أعدنا احياء مثلنا القومى الأعلى ، الذى لايقل عن اعادة الأمة اليهودية » ··

ويقول « اخادهام » فى كتابه الآخر « تغيير القيم » : سيسود شعبنا اليهودى جميع الشعوب الأخرى ، وستتوسع هذه الاسرائيل ·· هذه الأمة المتفوقة التى تملك القوة للتوسع ·· وستصبح سيدة العالم ، دون اعتبار لما يمكن أن تتكبده الشعوب الأخرى المعارضة ··

ويقول مؤلف كتاب « اسطورة اسرائيل » معقبا : « شىء آخر ليس أقل عجبا ، فقد شكل « هلموت جولفيشر » العبارة الاسرائيلية المختارة : « ان لاسرائيل مهمة عالمية خصتها الانسانية بها ·· ومن يتجاهل هذا ، عند تناوله دولة اسرائيل ، سيكون مغمض العينين إلى آخر ما يقول ·· »

وأوضح الصهيونى الدكتور « ليوبولد كوهين » ، حاخام اليهود فى فيينا ان اليهودى يظل يهوديا تحت كل الظروف ·· فأي تكييف « اندماج » ليس الا مظهرا خارجيا نقيا ··

فقد خلقت الصهيونية ـ كما يرى مؤلف الكتاب ـ فى دولة اسرائيل حصنا لهذه القومية ، ولهذه الغطرسة العدوانية ، التى استمر القوميون اليهود فى تهديد العالم الوادع بدفعه الى هاوية الحرب والاضطراب باستمرار ··

ولنقف نتأمل هذا الذى يقوله المؤلف عن اهتمام الدوائر

الانكليزية بالاخطار التى شهدت مولد دولة صهيون ·· والسياسة الصهيونية فى السنوات الماضية عن كثب ، وقد أظهرت قلقها الشديد بشتى الطرق حول الاخطار التى مازالت تواجه العالم من جراء دولة اسرائيل اليهودية ، بعد التجارب التى مارستها حتى اليوم مع الصهيونية ومع القومية اليهودية ··

كلام له خبيىء ··

والا فكيف نتصور جدية هذا الكلام ··؟

كيف نتصور مثل هذا الاهتمام ·· أو مثل هذا القلق الشديد ـ كما يقول المؤلف ـ يصدر من دوائر صنعت هى ـ لاغيرها ـ هذه الدويلة ، ومازالت ترعاها ··؟

ولكنا نترك المؤلف ورأيه هذا ·· لنتابع بعض الصفحات فى كتابه « أسطورة اسرائيل » ··

بعد أن يسرد الوقائع الدامية التى وقعت فى فلسطين فى السنوات الماضية ، ومنها حادثة دير ياسين الرهيبة ، يروى لنا ما كتبه « توينبى » ، المؤرخ الانكليزى المعروف ، فى كتابه « دراسة التاريخ » فى صفحة ٢٩ ـ يقول توينبى :

« تنتمى هذه الاعمال الاجرامية التى يقوم بها الاسرائيليون ضد الفلسطينيين العرب ، الى درجة عليا من الاجرام لم يشهدها أحد من قبل ، مثل مذابح ومشانق دير ياسين البشعة ، وقتل ٢٥٠ من الرجال والنساء والاطفال ·· وقد أسرعوا فى طرد أعداد كبيرة من السكان ، الذين هربوا فزعا ورعبا ، وبذلك تم لجيش اسرائيل ما أراد ·· » الخ ··

ثم يقول المؤلف : « ·· ولم يطرد الاسرائيليون الفلسطينيين المنكوبين خلال فترة الحرب فحسب ، ولكن حتى بعد وقف اطلاق النار ، حيث انتزعوا من عشرات الآلاف من أسر الفلاحين كل مايمتلكونه من أراضى ديارهم » ··

وفى فلسطين المحتلة ، بقيت أقلية عربية ، يبلغ تعدادها ٢٠٠ ألف عربى ، يوصفون هناك كمواطنين من الدرجة الثانية ٠٠ والاسرائيليون يعاملون هذه الأقلية العربية معاملة تختلف عن معاملة المواطن اليهودى ٠٠ ولم يسبق لليهود أن أعطوا أصحاب الأرض السليبة ، الأرض التى سلبوها بالقوة والارهاب وأنهار الدماء ، ولم يسبق لهم أيضا أن منحوا العرب نفس حقوق المواطن العادى ، واليهود لم يسلبوا العرب أرضهم فحسب ٠٠ بل سلبوهم كذلك حقوقهم ٠٠ بل ومساواتهم فى الحقوق معهم كمواطنين ٠٠

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وموقفها من قضية اسرائيل ٠٠ ليقول فى صراحة تامة : « لقد رفضت الولايات المتحدة صداقة ٧٠ مليون عربى ، وهى تعادى فى نفس الوقت ٤٠٠ مليون مسلم ٠ ولذا يجب على الولايات المتحدة ان تعلم أخيرا بأن أسباب هذه الظاهرة يكمن فى أسباب مساعدتها لدولة اسرائيل وتعضيدها » ٠

لقد كتبت « فرجينيا غلدر سليف » ، الخبيرة الأمريكية بشؤون الشرق الأوسط ، عن هذه المأساة الضخمة التى سببتها الولايات المتحدة بخلق دولة لليهود فى فلسطين ، انتهكت حرمة العالم العربى عن طريق تعضيد ومساعدة خطة الصهيونيين فى فلسطين ٠٠

ولكن ما ان نشرت « فرجينيا » خطابها فى جريدة « نيويورك تايمز » ضد محاولة اجبار العرب على التخلى لليهود عن بلادهم ٠٠ حتى تعرضت لهجوم عنيف من جانب الصهيونيين ٠٠ وتهددت حياتها تبعا لذلك ٠٠

ثم يقول المؤلف : « ولقد كانت الولايات المتحدة من قبل هى الصديقة الوفية التى يحرص العرب على صداقتها ، ولكن بعد انشاء اسرائيل ، لم يعد لهذه الصداقة مكان فى قلوب العرب » ٠٠

ان للعرب اليوم مصالح مشتركة ، هى اعادة الأرض المسلوبة ،

والاطاحة بهذا الخطر ·· ليس هناك ما يقلق الشرق الأوسط سوى اسرائيل ·· فهى برميل البارود الذى يهدد بالانفجار بين لحظة وأخرى ··

فلو لم تكن اسرائيل لما كان هناك ما يهدد تمويل أوربا ببترول العرب ، ولما كانت هناك مفاوضات ومساومات بشأن تزويد الغرب للعالم العربى بالسلاح ، ولما كانت هناك اتفاقيات مع الاتحاد السوفيتى ·· لسد حاجة العالم العربى من الأسلحة اللازمة لهم ·· ويتساءل المؤلف : « كيف رضيت الولايات المتحدة ان تعلن بانها ستحتفظ بدولة اسرائيل ، التى قام كيانها على القوة والظلم وسفك الدماء وسفح الدموع ·· ؟

خير للولايات المتحدة ، وهيئة الأمم المتحدة أن تعملا على مبدأ حماية حقوق الشعوب ، ومبادىء الأمم المتحدة العادلة ، فى سبيل الاحتفاظ بسلام دائم للشعوب جميعا ··

ذلك ان الاحتفاظ بدولة اسرائيل يهدد - على الأقل - بنشوب حرب أهلية جديدة ، من نوع الحرب الكورية ، أو حرب الهند الصينية ، ولكنها ستكون من نوع بشع مخيف ··

وجميع أنواع المخاطرات والتضحيات بالدماء والأموال ستكون بداية حرب صغيرة ، لاتلبث أن تتسع وتصبح حربا عالمية ذرية ثالثة ·· وسيكون المواطنون الأمريكيون أول من يحرق بلظاها ··

وخلاصة القول : ان القوة هى التى تمكن اسرائيل من الاحتفاظ بدولتها ··

●●●

وفى فصل آخر من فصول الكتاب يتحدث الينا دكتور « شنيدل » عن تناقض بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ، عندما أعطت وعدا صريحا بقيام الدولة العربية المستقلة من الأقطار التى كانت خاضعة للحكم العثمانى بكامل حدودها ، فى نفس الوقت الذى اتفقت فيه مع

فرنسا على تقسيم هذه الأقطار بينهما وهى : سوريا ولبنـان والعراق وفلسطين ، الى جانب وعد بلفور لليهود باعطائهم فلسطين ‥ !

وفى ذلك يقول المؤلف : بعد أن أكد كتاب السير مكماهون فى ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥ للعرب استقلال فلسطين العربية ، عقدت انكلترا مع فرنسا فى عام ١٩١٦ اتفاقية سايكس ـ بيكو ‥ وبهذه المعاهدة تلقت الوحدة العربية ضربة قاتلة ، حيث جزأت البلاد العربية تحت اشراف كل من انكلترا وفرنسا ‥ الخ ‥

« ‥ وقامت انجلترا بخطوة ثالثة لكسب اليهودية العالميـة الى جانبها ، وتعبئة اليهود ضـد المانيـا ، فوعـدت اليهود بفلسـطين ‥ وتوصلت الى اعلان وعد بلفور المشهور » ‥

‥ وحول وعد بلفور ، كتب كاتب يقول : « كانت الصدمة الثانية للعرب بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو ‥

ولعل من أغرب فصول هذا الكتاب ما تحـدث فيه المـؤلف عن مشروع اسكان اليهود فى (مدغشقر) ‥ الذى وجه اليه ـ كما يقول الكثير من النقد ‥ وكانت نفس هذه الأفكار الناقدة هى التى وجهت ضد الحل الفلسطينى ‥ كما كان السكان فى مدغشقر غير راضين على الاطلاق عن هذا الاقتحام الجديد ‥

وأخيرا يقول المؤلف :

« اذا أرادت الولايات المتحدة أن تساعد اليهود فى اقامة دولتهم فعليها ـ اذن ـ أن تعطيهم اقليم كاليفورنيا ‥ أو أية قطعة أخرى من الأرض ‥ تملكها ٠ ولايجب أن تعطيهم أرضا مسروقة ‥ وان أبسط حل هو ان تعطى تصريحات الهجرة غير المقيدة الى الولايـات المتحدة والكومنولث البريطانى بالنسبة لليهود الاوربيين على الأقل » ٠

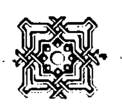
لقـد قدمت الولايـات المتحـدة الشىء الكثـير للمحـافـظة عـلى السلام ‥ فمنذ سنوات عديدة وهى تقدم لنا ـ نحن الأوربيين ـ الكثير

من التضحيات المادية التى تتمثل فى الصور المختلفة للمعـونة المـالية الأمريكية ٠٠ ولن يحدث شيء لو زادت فى اعمالها المباركة وقدمت ـ على الأقل ـ ليهود فلسطين الذين هاجروا من أوربا الى أمريكا فى الولايات المتحدة حلا يمكن من خلاله انهاء مشكلة فلسطين التى شاركت الولايات المتحدة بدور كبير فى خلقها وايجادها ٠٠

ان هـذا العمل سيكلف الولايـات المتحدة الشيء القليـل جـدا بمقارنته بالمعونات السنوية المستمرة التى تحصل عليها اسرائيل من ممولى الضرائب الأمريكيين ٠٠ تلك المعـونات المصنفـة تحت أسماء مختلفة بالمساعدات الاقتصادية ٠٠ ٠٠ الخ ٠٠

وليس من شك فى أن هذا الحل سيكلف العالم أقـل بكثير ممـا يتكلف أسبوع من الحرب ٠٠ ومن الواضح أيضا أن هـذا الحل لن يساوى شيئا خاصة لأنه يتكلف حياة انسانية غالية ، أو نقـطة دماء ثمينة ٠٠

وهكذا يقترح دكتور « فرانس جوزيف شيدل » مؤلف الكتاب ٠٠ وسواء أكان هو يعتقد جدية اقتراحه هذا أم العكس ٠٠ فالحقيقة التى نخرج بها من قراءة كتابه هى أن المؤامرة الصهيونية ومن ورائها كل مخططات الاستعمار الغاشمة ، لم تعد موضعا لأى خلاف حولها ٠٠ أو لاى شـك فى أن جريمـة انشاء دولة اسـرائيل فى فلسـطين ، بـطريق الاغتصاب ، قد بلغت من الافتضاح حتى فى أوساط الغرب نفسه ٠٠ حدا لم يعد من شك فى أنه مؤذن بزوالها ٠٠





وعي المستقبل

الأستاذ قدري حافظ طوقان

على عتبة عهد جديد تقف اليوم الشعوب العربية جمعاء تحاول أن تبنى لها حياة جديدة ، ومستقبلا جديدا ٠

على عتبة عهد جديد ، بعد أن تحررت أكثر هذه الشعوب من التبعية السياسية للغرب ، تقف هذه الشعوب مصوبة نظرها الى الأمام ، يحدوها الأمل الكبير فى النهوض من جديد وفى اعادة ما اندثر من مجدها ، وانهار من حضارتها !

وفى مثل هذا الموقف من مواقف الشعوب ٠٠ فى مثل هذا الموقف الفاصل عندما يتاح لها أن تتحرر من التبعية ٠٠ وان تحاول أن تنفض عنها غبار الماضى ، فى مثل هذا الموقف من مواقف كل شعب يبدو أنه ليس من بد من أن يكون للماضى المتخلف آثاره الفكرية والنفسية فى حياته العامة ٠٠

وليس من شك فى أنها سنة الله فى الوجود أن يكون لكل أمة مواطن قوة ومواطن ضعف ، وأن يكون لها مساوىء الى جانب مالها من حسنات ٠

والعرب بدورهم لايختلفون عن غيرهم فى هذا المجال !

نعم : ان للعرب حسناتهم التى بيضت وجه التاريخ ، ولهم من أمجادهم ولهم من حضارتهم ، ولهم من مناقبهم واخلاقهم ما اعترف بعظمته على مر العصور خصومهم الالداء ٠٠ قبل الأصدقاء ! ٠

لكن ٠٠ هل هذا يعني أنه ليست للعرب مواطن نقص تستدعى النظر ، وتستوجب التفكير ؟

هل يعني انهم بريئون من كل العيوب ؟

نعتقد أنه لايمكن أن يقول هذا قائل لأنه مناف للحق ، ولأنه مناف لطبائع الأمم ونفسيات الشعوب !

لقد مرت على العرب والمسلمين أدوار من التخلف وأدوار من الحكم الأجنبى المتعسف كان بعضها كافيا للقضاء نهائيا على حيوية الاسلام ! لكن على العكس ٠٠ لقد استطاع العرب برغم كل ما مر بهم من عسف ومظالم وعهود تخلف أن يبقوا على كيانهم ويحتفظوا بحيويتهم وهنا لابد لنا من أن نذكر أن للاسلام الفضل الأول دون أى جدال فى الابقاء على الكيان العربي الاسلامي محتفظا بروحه الأصيلة رغم النوائب ورغم الأحداث !

لكن مع الاعتراف بذلك فقد كان لابد لعهود التخلف والحكم الأجنبى المرير من أن تترك بعض آثارها فى النفسية العربية !

وهنا يأتى دور الكتاب الهادفين ٠٠ أولئك الذين لايرون أن الاخلاص هو فقط فى مجرد الاشادة بالماضى ، والتنويه بالأمجاد وانما يتمثل الاخلاص أيضا فى شيء آخر ٠٠ يتمثل فى « التزام » الكاتب أن يتوخى الحق فى كل مايقول ، وان يكون صريحا فى مواجهة امته بالحقائق ، حتى ولو كانت فى بعض الأحيان مرة فلا يتردد عند الاقتضاء من أن يندد بما يراه فيها من مواطن ضعف ومن نقائص وعيوب !

● ● ●

ومؤلف هذا الكتاب الذى نعرض له اليوم : الاستاذ قدرى حافظ طوقان : الكاتب الباحث المعروف ، والذى شغل زمنا منصب وزير الخارجية فى الأردن الشقيق ، ينحو هذا النحو ويتخذ هذا الأسلوب : أسلوب الهدفية والالتزام فى كتابه هذا « وعى المستقبل » ٠٠ انه يتحدث فى كتابه هذا ، فى صراحة وفى واقعية ، ويندد بنقائص وعيوب

كثيرة ماتزال متفشية فى الكثير من الأوساط فى البلاد العربية ·

فلنستمع اليه فى الفصل الأول من فصول الكتاب ، حيث يتحدث فيه الينا عما يراه مترسبا اليوم فى النفسية العربية اجمالا من صفة عدم الشعور بالمستقبل على حسب تعبيره ·· فنراه يقول :

يمتاز العرب بعدم الشعور بالمستقبل وعدم احساسهم به ·· فهم لايفكرون الا فى الحاضر قد تركوا المستقبل ·· غير حاسبين له أى حساب ، فهم فى الحاضر الذى يعيشون فيه لايكلفون انفسهم مشقة العناية به أو الاستعداد له ، ولماذا الاستعداد أو الاحتياط ؟ فلقد اتقنوا الارتجال وتمرسوا به ·· وأصبح الشعور بالمستقبل بعيدا عنهم ، وغريبا عليهم ، فجاءت أعمالهم تدلل على ذلك ، وكان الفشل الذى أصابهم فى جميع نواحي الحياة نتيجة طبيعية لهذا كله ·

ولست مغاليا اذا ذهبت إلى أن عدم احساس العرب بالمستقبل من العوامل التى جلبت عليهم النكبات فى بلادهم والاخفاق فى الميادين السياسية والدولية !

ولاشك فى أن الشعور بالمستقبل ، أو الاحساس به عامل من عوامل نجاح الغرب ·· فالغربيون يفكرون فى المستقبل ويعملون على الاستعداد له ، ويهيئون أنفسهم لأحداثه ، ويبذلون الجهود فى الاحتياط والتبصر بما يخبئه بين طياته من حوادث ومفاجآت ··

هي ذى ناحية من نواحى النقص يشخصها لنا هذا الكاتب المفكر الرصين ·· انها ناحية خطيرة لاشك ، وهو يعرضها لنا لايتردد فى أن يبدى لنا ما يراه من العلاج الواجب لها فيقول :

« ··· لايمكنهم ـ العرب ـ تربية الشعور بالمستقبل ، وتنمية الاحساس به ، والعمل للغد والاستعداد لحوادثه ومفاجآته الا اذا أخذوا بالعلم وأسلوبه وعاشوا بالعلم واستخدموه فى التربية الخ » ·

ثم يقول : لقد نزلت كارثة فلسطين بالعرب أجمعين فكانت نتيجة حتمية للأوضاع والأساليب التى اتبعها العرب فى الجهاد والحياة ··

فهي بعيدة عن العلم لم تقم على أساس ٠٠ لقد كان الوضع فى فلسطين ينذر بأوخم العواقب ، وكانت الأخطار تهدد البلاد العربية عامة ، وفلسطين خاصة ، فماذا عمل العرب ؟

لم يحسبوا حسابا للغد ولا لهذا كله ٠٠ وراحوا يكيدون لبعضهم ، وينشرون على الناس مشاحناتهم وخلافاتهم ، ووقعت الكارثة فلا استعداد ولا احتياط ! ٠٠

وكانت الأهوال ٠٠ وقد انصبت على العرب فطعنت كرامتهم وأضاعت أجمل بلادهم ، وشردت مليونا من البشر يهيمون فى أجواء من الفاقة والبؤس والشقاء ٠٠ فلو كان عند العرب احساس بالمستقبل وساروا فى كفاحهم على أسس من العمل والتنظيم لاستعدوا وأعدوا العدة ودفعوا عن أنفسهم وبلادهم المصائب والأهوال ٠٠

ويربط المؤلف وهو يتابع حديثه فى هذا الفصل بين الشعور بالمستقبل والشعور بالمسؤولية ، فيقول : ان الشعور بالمستقبل لايتم ولا يكون مثمرا الا اذا صاحبه شعور بالمسؤولية ، فهذا الشعور هو من مقتضيات ذلك الشعور ، وهو من عوامل النجاح وأسباب التقدم ، وقوة الشعور بالمسؤولية فى الجماعات والأفراد دليل على رقي المجتمع وحيويته ، فالشعور القوى يدل على النضج واتساع الأفق والشعور الهزيل يعني التأخر وضيق الأفق ومحدودية الأهداف والغايات ٠

٠٠ ويحضرني فى هذا المقام ـ يقول المؤلف ـ حديث نبوى من جوامع الكلم ، وروائع القول ، قد صور فيه الرسول الكريم الشعور بالمسؤولية ، وأثر التهاون فيه فى حياة المجموع أبلغ تصوير ، قال عليه السلام : « ٠٠ مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ٠٠ وكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا اذا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا » ٠

يتحدث المؤلف أيضا عن الشعور بالنقص فى فصل آخر من فصول الكتاب يقول فيه : ·· الذى أريد تأكيده هو أن تخلف العرب عن ركب المدنية وتقدم الغربيين عليهم فى سائر الميادين قد أوجد عندهم شعورا بالنقص ·· فهم متأخرون وغيرهم فى تقدم ، وهم دون غيرهم فى الاختراع والاكتشاف والفكر والاثمار ، فأصابتهم شكوك فى قابلياتهم ، وتزعزع ايمانهم بمقدرتهم وتاريخهم ، وراحوا على غير شعور منهم يلجأون الى أساليب يعوضون بها هذا النقص المتركز فى تأخرهم عن ركب الحضارة فكان اهتمامهم بالشكليات ، وكانت عنايتهم بالقشور ، ولم يلتفتوا الى الأسلوب ، ولا إلى الطرق القويمة والسلوك السليم فى معالجة المشاكل وقهر الصعاب ، ولا إلى المناهج التى تؤدى إلى النمو المتصل والتقدم المستمر ، وقد دفعهم هذا كله إلى غرور طغى عليهم وأبعدهم عن الحقائق والمفاهيم الحديثة ، فأساءوا فهمها وتقديرها ··

ولم يستطيعوا تكييف عقولهم وأنفسهم للمفاهيم الحديثة وروح العصر فاستهان بهم الغرب وغلبهم على أمرهم واستغلهم واستعمرهم فى أنفسهم وبلادهم وأنزل عليهم ألوانا من الكوارث وأنواعا من النكبات أدت الى سيادة فكرة خطيرة عند الكثيرين ، وهي ان العرب لايصلحون للحياة ·· وأنهم ليسوا أهلا لتحمل مسؤولياتها ، وأعبائها وانهم يعيشون على هامشها ، لاهين بالسفاسف بينما سار الناس فى سائر الديار فى ركب الحضارة جادين منتجين فورثوا الأرض وما عليها من خيرات ، وما فيها من كنوز ، وكانوا الجديرين بالحياة الصالحين لمسؤولياتها ·

ولست بحاجة إلى القول ، انه اذا استمر هذا الشعور بالنقص على هذه الحال فسينمو هذا الشعور ، ويدفع إلى اضطراب فى التفكير ، وإلي انعكاف العرب وانكماشهم على أنفسهم وانعزالهم عن العالم ، وفي هذا مافيه من تعطيل لمواهبهم ، وايقاف لنموهم وتقدمهم ، فاذا هم يعيشون

على هامش الحياة ، قد أقعدهم الخمول ، والجمود عن الحركة والمجاراة ٠٠

على المسؤولين والمفكرين أن يدفعوا هذا الشعور بالنقص عن بني قومهم العرب ، وان يدخلوا فى البرامج والمناهج أساليب تعويضية تخفي هذا النقص وتزيل اثاره ٠٠

٠٠ ان الصعاب والمشاكل تحيط بكل نهضة ، وتعترض كل حركة ترمي الي التقدم ، فعلى الشباب الا تثنيهم المتاعب والنكبات عن عزمهم فى تحرير بلادهم والنهوض بها ، وعليهم أن يدركوا أن قومهم ليسوا الوحيدين فى مجابهة الصعاب والمآسى فكل أمة نهضت ، جابهت ما يجابهه العرب الآن من العقبات ولكنها تغلبت عليها واجتازتها بالعزيمة والارادة والايمان ٠

وفى امكان العرب اذا عزموا وأرادوا أن يجتازوا عقباتهم ويقتحموا الصعاب ، ذلك لأنهم كغيرهم من الأمم من الكائنات الحية التى تكمن فيها القابلية للحياة والقوة لأداء رسالتها ، وليست المشاكل والصعاب بشىء اذا ما آمن العرب بحقهم فى الحياة والتقدم ٠٠ ولهذا وجب على العرب الا يفزعوا من هول النكبات المنصبة عليهم ، والا يعتريهم هلع من المصاعب المحيطة بهم ، وعليم أن ينزعوا من أنفسهم الشعور بالنقص ٠٠ ويؤمنوا بقابلياتهم وصلاحيتهم للحياة والقيام برسالتها ٠

● ● ●

ويتناول فى فصل آخر ما يسميه « مركب الوهم » ٠٠ فيقول : العرب مبتلون بهذا المركب ٠ لقد سيطرت عليهم مجموعة من الأفكار العاطفية والمادية بقوة الغرب والانجليز وجبروتهم وسطوتهم ومقدرتهم على كل شىء ، واندست فى العقل الباطن فأثرت فى اتجاهاتهم وميولهم وتفكيرهم فكان الوهم بالغرب ومعاملاته وأساليبه قد بلغ الذروة ٠٠

فان ثار العرب ٠٠ قالوا ان المحرك هو الغرب ومؤسساته ٠٠ وان تحرك العرب ٠٠ قالوا انه بحافز من الانجليز ٠٠

وقد سادت هذه الآراء عند العرب حتى أصبحت عقدة نفسية ، ومركبا عند الكثيرين فى سائر الأقطار العربية ٠

فكان هذا الاخفاق فى حركات العرب فى العشرين سنة الماضية وكانت المصائب التى تــوالت على بــلادنا ، وكــانت نكبة فلسـطين وما صاحبها من مظالم وارهاق وتشريد وضياع أوطان ! ٠

وبدأ الوعي يعم الفكر العربي ٠٠

والحجب الكثيفة تنزاح عنــه ٠٠ وأخذ الوهم يتبـدد فى أجواء الحقائق والايمان ٠٠

واستولى الوهم حينا من الدهر على الهند وقال الناس إن الانجليز فيها مقيمون ٠٠ وان فى اقامتهم السلام والخير والاستقرار .

وأفاق زعماء الهند من رقادهم الطويل ٠٠

وتصادمت الآراء فى المؤتمـر الهندى ٠٠ وكــان احتكاك بينهــا وكانت حركات انبعثت منها شرارات وبروق بددت غيوم الوهم بالغرب وأهدافه ٠٠ واذا في الهند دولة ، وفى باكستان دولة تسيران مع العاملين فى ميادين الحياة والتقدم ، وتعملان على المساهمة فى خدمة الانسانية والسلام ٠

ويمضى المؤلف الفاضل ولاينسى وهو أحـد الذين تلقوا العلم فى الجامعات الامريكية أن يشير إلى أمريكـا فى فصل مستقـل ٠٠ يقول فيه ٠٠ يكثر الحديث فى هذه الأيام عن أمريكـا ، وحضارة أمـريكا ، والتقدم العجيب الذى أصابته فى مختلف نواحى الحياة وميادينها ٠

وكيف لايكثر الحديث عن أمريكا وقد احتلت مركز الصدارة فى الشؤون العالمية من اقتصاد وسياسة وسلم وحرب وانعاش ٠٠

وأمريكا تتجه فى معاملاتها وأساليبها على أساس جديد يقوم على تقديم المعونات المالية والفنية وذلك ـ كمـا يقول ســاستها ـ لمســاعدة

الأقطار المتأخرة ، ودعم السلام وتحريك القابليات ، ولولا التعب لما تقدمت الحضارة هذا التقدم المادى العجيب ، فالاكتشافات والاختراعات هي ثمار التعب والجهود المتواصلة وحين تخلو حياة الفرد من التعب يعتريه تعب من الراحة ٠٠ وهذه الراحة تطفىء المواهب ، وتميت العواطف ، وتلوى الاتجاه كما تميل بالانسان الى الحزن والألم وقد تكون مصدرا لنوبات القلق والاضطراب النفسى ، يفقد معها ذلك الانسان السيطرة على نفسه ٠٠ فالذى لايعرف التعب ، لايعرف الكفاح ٠ ومن لايعرف الكفاح لايعرف طعم الحياة ٠٠ ولا لذة الوجود ٠٠

إلى أن يقول ٠٠ ومن يدرس النفسية العربية وما أحاط بالعرب ويحيط بهم فى سائر الديار من عوامل التخلف والجمود يجد أن الانغماس فى الراحة وفقدان القدرة على التعب ٠٠ وما ينتج عنهما من تعب ٠٠ فيه الهبوط والقلق ـ هي من الأسباب الرئيسية التى جمدت مواهبهم ، واوقفت قابلياتهم وأضعفت حيويتهم فلم يستطيعوا أن يقاوموا الاستعمار ، ولا أن يجاروا روح العصر فى التقدم والنمو ٠٠

لقد آن للعرب أن يدركوا أن تقدمهم فى الحياة سوف يبدأ من الداخل ، ويقوم أولا وقبل كل شيء على الانتاج المثمر المبنى على الأسس العلمية الصحيحة والأساليب العصرية الحديثة ، ولا يمكن أن تقوم هذه الأسس ، ولا تلك الأساليب الا متى أدرك العرب أنهم فى حاجة إلى التعب ٠٠ وملكوا القدرة عليه ٠٠



الأمم المتحدة وكيف تعمل

تأليف : دافيد كرشمان كرهيل
تعريب : محمد رفعت المحامي

الأمم المتحدة يتردد اليوم حولها الحديث فى المحافل الدولية وفى صحافة العالم كلها ، وعلى كل لسان يتردد هذا الحديث ٠٠ يتردد ، ويتردد لأن أزمة خانقة توشك أن تعصف بكيان هذه الهيئة الدولية (١) ٠

وليس الأمر أمر « أزمة مالية » وكفى ٠٠ وإنما هو أبعد من ذلك ٠٠ ان أخشى ما يخشاه الناس هو ما وراء هذه الأزمة بطبيعة الحال ! أخشى ما يخشونه — ولهم كل الحق — أن يؤدى الخلاف القائم بين أكبر قوتين فى هذه الهيئة وهو من الأسباب التى أوجدت أو ستوجد هذه الازمة ٠٠ أخشى ما يخشاه الناس جميعا هو أن يتطور هذا الخلاف ، ويؤدى أخيرا الى مالاتحمد عقباه ! ٠

ان الحديث عن الأمم المتحدة فى هذه الأيام ، حديث يشوبه الكثير من القلق ٠٠ على مصيرها نفسه ٠٠ فيما اذا استمر الخلاف وتطور ٠٠ ولم يتوصل الطرفان الكبيران المتنازعان ٠٠ أو لم تتوصل الأطراف كلها فى الهيئة إلى انهاء هذا الخلاف ٠٠

ولقد يسأل سائل — هنا — لماذا القلق ؟ ليرى أمامه الجواب واضحا وصريحا : « ان الأمم المتحدة فى هذا العصر والأوان أصبحت لابد منها ٠٠ » ٠

---

(١) كان ذلك من سنوات حين كتابة هذا الفصل .

نعم لابد من الأمم المتحدة ·· وبالرغم من كل الأخطاء لابد من أن يستمر كيانها قائما ، وان يبقى جهازها الضخم الكبير يعمل ويعمل طالما ان « شريعة الغاب » مازالت ملاذا لبعض الأقوياء إلى يومنا هذا ··

وما أكثر ما وقفت الأمم المتحدة « بمجموع دولها من شرق ومن غرب فى وجه الأقوياء !

وما أكثر لو أردنا أن نرجع الى الماضى القريب ! ·

هيئة الأمم المتحدة ـ اذن ـ شيء ضرورى فى عالم اليوم ! شيء ضرورى لأكثر من سبب من أسباب الحرب والسلام ! ولأكثر من سبب ·· من أسباب الرغبة فى التحكم والجنوح الى العدوان !

ولسنا نقول هذا ـ كعرب ـ وننسى الأخطاء !

بل نقوله ولسنا بالناسين ولا بالغافلين ·· نقوله بالرغم من هذه الأخطاء !

سنقرأ فى كتاب اليوم كلاما عن الأمم المتحدة ··

إنه كتاب لمؤلف أمريكى يتحدث فيه عن الأمم المتحدة وكيف تعمل ؟

نقرأ أول ما نقرأ فى الكتاب كلمة للسيد عبد الخالق حسونه الأمين العام للجامعة العربية يتحدث فيه عن هذا الكتاب ثم يستطرد الى الحديث عن الأمم المتحدة وعن ميثاقها ولاينسى أن يشير إلي موقفها المعروف من قضية العرب : قضية فلسطين ·

وبعد ان يتحدث عن الظروف التي سبقت اعلان ميثاق الهيئة وعما كان يجرى من مباحثات ـ فى نهاية الحرب ـ انتهت بعقد مؤتمر سان فرانسيسكو فى سنة ١٩٤٥ يقول السيد حسونة ··

« ·· وشاركت فى هذا المؤتمر ـ مؤتمر سان فرانسيسكو الدول الكبرى والوسطى والصغرى ـ وانتهى بان اعلنت الشعوب بلسان حكوماتها وعلى يد مندوبيها المجتمعين فى سان فرانسيسكو انها قد ارتضت ميثاق الأمم المتحدة ، وأنشأت بمقتضاه الهيئة العالمية تعبيرا

عن الايمان الصادق بحقوق الانسان الاساسية وبالمساواة بين الأمم كبيرها وصغيرها ، وتعاوننا على الاحتفاظ بالسلم والأمن الدوليين وأخذا فى حل المشاكل الدولية ، وسعيا لترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب جميعا ، ورفع مستوى العيش للسواد الأعظم فى العالم كله » « ٠٠ وكانت الأمة العربية من أشد الأمم تحمسا لهذه المبادىء السامية ايمانا بان العدل الدولي والتعاون الحر المتكافىء بين الأمم وسيادة كلمة القانون هى الكفيلة باسترجاع حقوقها السليبة ، والتخلص من الاستعمار والاستغلال الأجنبيين ، ونصرة قضايا الحرية التى تكافح من أجلها » ٠

● ● ●

ثم يمهد المؤلف لكتابه فيقول : « فى ربيع سنة ١٩٤٥م كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها وقد مات فى هذه الحرب ملايين الناس ، وتشرد ملايين آخرون بلا مأوى يقاسون الجوع والبرد ، وتاق جميع الناس الى سلام دائم ، كما كان ضحايا الدمار الذى خلفته الحرب ، ومئات الملايين ممن طحنهم الفقر حتى فى وقت السلم تواقين للخلاص من الفقر والجوع والمرض ، وفى جميع أنحاء العالم حيثما وجد اناس يعيشون تحت حكم أجنبي أو يقاسون ظلما داخليا كانت هناك رغبة ملحة فى نيل الحرية والعدالة ٠

« ٠٠ واسست هيئة الأمم المتحدة لمعالجة المنازعات الدولية التي تؤدى الي الحرب ، وفى ذات الوقت ساعدت الأمم المتحدة ووكالاتها العديدة العاملة ، الأمم الأعضاء فى صراعها الطويل ضد البؤس البشرى والظلم والجور ٠٠

ان أهداف الأمم المتحدة الرئيسية ليست متنافرة ، فمن الواضح ان السلام ضرورى ان كان لابد لأهل هذا العالم ان يعيشوا أحرارا فى رخاء ٠٠ ولكن السلام لايأتي مصادفة وانما يقام بعدة أعمال تؤدى معا لتوفير الأمن الجماعى والقضاء على أسباب الحروب والجهود المتحدة التى تبذل لبناء عالم أكثر رخاء بفضل تعاون الناس من مختلف البلاد والأجناس ربما تساعد ايضا على ارساء قواعد سلام دائم ، والذين

يعملون معا ضد قوى الطبيعة المعادية قد يصبحون أصدقاء ٠٠
وأخيرا فان ضغط الرأى العام العالمي لاقرار حقوق الانسان يساعد فى الوقت المناسب على التخلص من بعض أسباب الحروب بين الشعوب ٠

● ● ●

« ٠٠ وقد استطاعت الأمم المتحدة منذ سنة ١٩٤٥ م وقف عدة حروب أو منعها ، وعلى الأخص فى كشمير ٠٠ وفي كوريا صدت قوات الأمم المتحدة العدوان ، ولاريب أنه ليست هنالك أية قوة على الأرض تستطيع أن تقدم ضمانا مطلقا بقدرتها على منع نشوب حرب عالمية ثالثة قد يكون فيها فناء الجنس البشرى ولكن من الممكن عمل الكثير لجعل هذا الدمار أقل احتمالا ٠ وكثير من هذا تقوم به الأمم المتحدة الآن ٠٠
ويخص المؤلف الفصل الأول من الكتاب بموضوع جعل عنوانه « أصول العشب ــ أى في محيط الشعوب المتخلفة » ٠٠ يتحدث فيه عن موقف الأمم المتحدة بالنسبة لشعوب كثيرة مازالت فى دور النمو ٠٠ ومازال أمامها الكثير من المراحل لكي تصل الى مستوى أفضل فى شتى مجالاتها فى الحياة ٠

وفى هذا الفصل يستطرد الى الحديث عن الوكالات والمنظمات التابعة للأمم المتحدة ٠٠ ومنها : منظمة التغذية والزراعة وقد انشئت فى سنة ١٩٤٣ م اى قبل انشاء الأمم المتحدة ٠٠ الا أنها ارتبطت بها فيما بعد بموجب اتفاق عقد مع المجلس الاقتصادى والاجتماعي واعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة ٠

ومن أعمال هذه المنظمة ايفادها الخبراء لمساعدة البلاد التى تحتاج الي مشورة فنية للحصول على غذاء أوفر ومحصولات جديدة ، ولتتعلم كيف تقاوم الاوبئة وأمراض النباتات والحيوانات وكيف تحفظ الطعام وبصفة عامة كيف تزيد انتاج المزارع ومصائد الأسماك والغابات ٠٠ الخ ٠٠

ومن هذه المنظمات أيضا : منظمة الصحة العالمية التى انشئت فى مؤتمر عقد بنيويورك فى يوليو سنة ١٩٤٦ م ٠

ومنظمة الصحة العالمية وكالة خاصة تشرف عليها الجمعية العامة للصحة وهى تدلي بمشورتها للدول الأعضاء فى الصحة العامة والرقابة على الأمراض ٠٠ الخ

وفى بعض ميادين الصحة مثل العلاقة بين الصحة والتغذية والزراعة وتتعاون معها ٠٠

ويشير المؤلف الي صندوق الأمم المتحدة لاغاثة الأطفال الذى انشأته الجمعية العامة فى سنة ١٩٤٦ م ، ويختص هذا الصندوق بتنظيم الدواء والغذاء اللازمين لخدمات الأمومة والطفولة الحيوية ، ومكافحة الأمراض ، وخاصة التي تصيب الأطفال ٠

● ● ●

والوكالة الأخرى الرئيسية من وكالات الأمم المتحدة التى تعمل مباشرة فى أصول العشب ٠٠ هي « منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة » ٠٠ ويشمل نشاطها ميدان التربية بأكمله ، وتتصل لذلك بسائر الوكالات الأخرى وقد أفرد المؤلف لمنظمة اليونسكو فصلا مستقلا ، هو الفصل الثانى من الكتاب ٠٠

● ● ●

ثم يتحدث فى الفصل الثالث عن النقد والتجارة ، فيشير الي البنك الدولي وقد انشىء فى عام ١٩٤٤ م على نمط شقيقته مؤسسة « صندوق النقد الدولى » وتتضمن أعمال البنك ايفاد بعثات الى الدول الاعضاء لبحث المشروعات الخاصة أو لابداء المشورة فى برنامج اصلاحى عام ، ويتعاون البنك مع الوكالات الأخرى التى قد تكون لها مصلحة فى المشروع المفتوح ، وخاصة الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة ٠

أما عن صندوق النقد الدولي فيقول المؤلف : انه نظام وضع لتوفير احتياطات نقدية تستطيع الدول الأعضاء السحب عليها لمواجهة العجز الطارىء على تجارتها الدولية ٠

ويتحدث فى الفصل الرابع عن الخدمات الفنية للأمم المتحدة فى ميادين المواصلات السلكية واللاسلكية ، والبريد والطيران المدني والأرصاد الجوية ، والملاحة البحرية وغيرها ٠٠

وفى الفصل الخامس يتحدث عن حقوق الانسان ، ومصادقة الجمعية العامة على اعلان حقوق الانسان فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ وينادى هذا الاعلان ــ كما يشير المؤلف ــ بحق جميع الناس كافة فى الحياة والحرية وفى سلامة اشخاصهم الى آخر ما يذكره فى هذا المجال ٠٠

وتعليقنا على ما يقوله المؤلف فى هذا الفصل حول حقوق الانسان ان ما اعلنته الأمم المتحدة فى هذا الصدد مايزال اشبه بحبر على ورق ٠٠ والا فأين هى حقوق الانسان فى بلاد كثيرة لاتزال تشكو وتئن من تحكم الاستعمار ومن طغيان الغاصبين ؟

أين حقوق الانسان بالنسبة لعرب فلسطين الذين لاتزال هيئة الأمم المتحدة ٠٠ أو على الأصح لايزال الأقوياء جدا فى الأمم المتحدة يقفون من حقوقهم موقف من لايعنيه الأمر فى كثير أو قليل ؟ ! ٠٠

إنه خطأ واحد ولكنه خطأ جسيم من اخطاء الأمم المتحدة دون أى شك ودون أى جدال ٠

● ● ●

ويتحدث بعد ذلك فى فصول خمسة أخرى من الكتاب عن الشعوب غير المتمتعة بالحكم الذاتى ــ والمنازعات الدولية وكوريا ــ والتنظيمات الأقليمية ــ ونزع السلاح ٠

وفى الفصل الحادى عشر يتحدث عن تنظيم الأمم المتحدة فيشير الي جمعيتها العامة ــ ومجلس الأمن ــ والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ــ والامين العام ــ والسكرتارية ٠٠ ويشير الى « تكاليف » الأمم المتحدة ، فيذكر أن الأمم المتحدة لاتكاد تتكلف شيئا بالقياس الى المؤسسات الدولية التى يتعين عليها أن تواجه حاجات مادية ، والميزانية العادية للأمم المتحدة تبلغ نحو ٤٧ مليون دولار سنويا ٠٠ وتبلغ ميزانية

صندوق الأمم المتحدة الدولى للطفولة نحو ٢٠ مليون دولار ، وغوث اللاجئين الفلسطينيين نحو ٢٥ مليون دولار وبرنامج المعونة الفنية نحو ٢٤ مليون دولار سنويا ٠٠ وتجمع هذه الأموال من توزيع خاص للأنصبة على كل دولة ، ومن الهيئات الخاصة ولا تدفع مباشرة من ميزانية الأمم المتحدة ٠

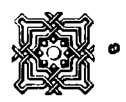
وأضخم نفقات لعمل دولي هي لاريب نفقات التسلح وتنسقها المنظمات الاقليمية وتؤديها الأمم خارج ميزانية الأمم المتحدة ٠
أما الفصل الثانى عشر والأخير ، فيخصه المؤلف « دافيد كريل » بحديثه عما يسميه « فلسفة الأمم المتحدة » ويبدأ حديثه فى هذا الفصل بايراد كلمات للرئيس الأمريكي ايزنهاور عن الأمم المتحدة جاءت فى خطاب ترحيب وجهه في يوم ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٥٣ الى لجنة الولايات المتحدة الخاصة بيوم الأمم المتحدة ٠

يقول ايزنهاور : انها ــ اى الامم المتحدة ــ على الرغم من جميع عيوبها ومواقف الاخفاق التى قد نحصيها عليها لاتزال تمثل خير أمل قائم للانسان : « ان يستبدل بميدان القتال ، مائدة المؤتمر » ٠

واذا كان لها مواطن فشلها ، فقد ظفرت أيضا بمواطن توفيقها ٠٠ فمن يدرى ماذا كان يحدث فى تلك السنوات الماضية ، المليئة بالجهد والنزاع ان لم تكن عندنا الأمم المتحدة انني اعتقد انها اعظم بكثير من ان تكون مجرد منظمة مرجوة فى هذه الايام واذا كان كل اختراع جديد للعلماء يبدو انه يجعل الانسان أكثر تأكدا من نهاية فنائه فاننى ارى أن الأمم المتحدة قد أصبحت ضرورة بينة ٠
ويمضى المؤلف ــ بعد ان ينقل لنا هذه الفقرة من خطاب الرئيس الأمريكي الأسبق ــ فيتحدث الينا فى كلام طويل عن الفلسفة التى تقوم عليها هيئة الأمم المتحدة ٠٠ وعن أهمية دورها فى هذا العصر ٠٠ وجدوى ما تؤديه من خدمتها للسلام !

وبعد فهذه هي الأمم المتحدة أو هذا هو تنظيمها ـ فى ايجاز وفى اختصار ـ ولنا أن نقول مع مؤلف هذا الكتاب ايضا : « هذه هى فلسفتها » ! انها فلسفة تقوم على التقريب ـ ما امكن التقريب بين القوى المتصارعة أو كما يقول الرئيس ايزنهاور على « أن نستبدل بميدان القتال مائدة المؤتمر » ..

ولكنا نقول كذلك : انه ما دامت الأمم المتحدة لابد من وجودها فى عالم اليوم .. فلابد لها من أن تصحح الأخطاء ! بل ونقولها ـ فى وضوح أكثر ـ : انه من الخير للأمم المتحدة أن تجعل من نفسها مناطا لآمال الأمم جميعا ، كبراها وصغراها على حد سواء .. اذا ما أرادت ـ بحق وحقيق : أن تكسب مزيدا من الاحترام ! .



الغزو الأمريكي لبريطانيا

تأليف : فرنسيس وليامز
ترجمة : شفيق أسعد مزيد

عنوان غريب !

وربما مثير أيضا !

ولكنه مع ذلك لم يكن « عنوانا » من نسج الخيال !

انه عنوان لكتاب ، مؤلفه بريطانى !

ثم هو كتاب نطالع فيه « حقائق » تفوق الخيال !

مهما كان الامر ‥ فليس « الغزو » على اى حال فى هذا الكتاب ، غزوا بمعناه الشائع ، او معناه المخيف !

انه غزو من نوع آخر ، بطبيعة الحال . غزو لانجد له من العبارات مايؤدى معناه الأداء الكامل ‥ اكثر من ان نقول : انه غزو الدولار !!

هو اذن : غزو سلمى ! ان جاز منا هذا التعبير !

غزو سلمى ‥ ولو لم يكن سوى ثمرة حرب ‥ عانت منها بريطانيا – رغم اكاليل الغار – الشىء الكثير !

ولم يكن هذا الغزو ، خاصا ببريطانيا !

ومع ذلك فمؤلف الكتاب « فرنسيس وليامز » يحاول جاهدا ان يجعل من الغزو الاميركى لبريطانيا ‥ اعظم المشكلات ، فى عالم اليوم !

بل هو يراه اكثر من غزو ــ كما يبدو ــ او على حد تعبيره (أمركة بريطانيا) !

ولسنا ندرى ، اذا كان « وليامز » بسبب من حماسه الشديد لبلاده بريطانيا التى كانت لاتغيب الشمس عن املاكها ٠٠ لسنا ندرى اذا كان « وليامز » لهذا السبب اولغيره من اسباب ، مبالغا فى هذا الذى يسجله فى كتابه عن غزوها الامريكى !

على ان الذى لانظنه يمكن ان يكون موضع نقاش قطعا ٠٠ هو ان الغزو الامريكى الاقتصادى والثقافى قد اصبح اليوم حقيقة لاتقبل الشك ٠٠ لا فى بريطانيا وحدها ٠٠ بل فى اكثر الانحاء ٠

وقد صدر الكتاب فى عام ١٩٦٢ بعد رحلة قام بها المؤلف الى امريكا دامت بضعة اشهر ، تنقل خلالها فى انحاء كثيرة من بلاد العم سام ، كما القى فى بعض الجامعات الامريكية بدعوة منها محاضرات فى الشؤون السياسية ، لقيت اهتماما كبيرا من الطبقة المثقفة الامريكية ، واستطاع بذلك ان يكون له اصدقاء كثيرون من الامريكيين ٠

وقد صدرت له عدة كتب اخرى ــ عدا كتابه هذا ــ منها « سياسة الغد » و « آخر معارك الديموقراطية » و « الصحافة والبرلمان والشعب » و « ارنست بيفن » ٠

يبدأ المؤلف حديثه فيقول :

من الحماقة ان نشكو من اعتداء سلطان امريكا على العالم فهذا الاعتداء امر حتمى لا مفر منه ، اذ هو مظهر لطبيعة عالمنا الحاضر ٠٠ ولقد دأبت الحكومات البريطانية المتعاقبة على بذل اقصى ماتستطيع من جهد ، كى تجتذب اليها هذا النفوذ الامريكى لاسباب كانت ولاتزال بادية الوجاهة من الناحية السياسية ٠٠ واذن فليس من حقنا ان نشكو طالما ان الجهود التى بذلناها لاجتذاب امريكا الى القارة الاوروبية ، بشكل دائم قد كللت بالنجاح !

ولكن : هل التحالف يستلزم الاحتلال ؟

وهل من واجبنا ان نصبح اميركيين حتى نستطيع انقاذ الحضارة الغربية ؟

ليس فيما أقوله مبالغة ·· ولا هو كلام مصطنع ، فقد ثقلت علينا وطأة التفكير الامريكى ، واسلوب الحياة الامريكى ، واندفاع امريكا فى صبغنا بصبغة امريكية ، لدرجة انه لن يبقى للبريطانيين من طرق تفكيرهم ، واساليب حياتهم ، ومن ثقافتهم الخاصة ، بعد جيل او جيلين الا القليل ·· لا بل ان هذا الغزو الامريكى لبريطانيا يتخذ الان مظهرا اكثر وضوحا وصراحة عما كان عليه من قبل ··

ان الدولار يتحرك فى اعقاب الآراء ·· والامريكيون يرون ان صب بريطانيا والجانب الاكبر من اوروبا فى بوتقة امريكية اشبه شىء باعادة تنظيم المطبخ ·· ومع الاسف هناك كثير من الامريكيين والبريطانيين الذين يرون ان « امركة » بريطانيا واوربا الغربية وضع للامور فى نصابها ··

ويقول هؤلاء : ان عدم الرغبة فى اتباع الاساليب الامريكية فى النصف الاخير من القرن العشرين ، ليس الا انحرافا عن القاعدة الصحيحة وهو انحراف يبعث على الشك فى عقلية صاحبه وفى قيمه الاخلاقية ··

● ● ●

ثم يقول المؤلف البريطانى : ولا يتوهمن القارىء انى بتبيان مدى الغزو الامريكى لبريطانيا ادعو الى مناهضة امريكا ، بل انى اتبع رأى سير هارولد نيكولسون عندما قال : ان الامريكيين قد يثيرون كراهيتك لهم بسهولة ، ولكن يشق عليك الا تحبهم ·· ومن هنا كان حبى للامريكيين قديما ثابتا ، كما هو الحال مع الحياة البريطانية والفرنسية ليس معدا للتصدير وانما الذى يجوب الآفاق فى اعقاب الدولار الامريكى ، والعلم الامريكى هو : الغث التافه الذى لاغناء فيه ·· او قل انه مظاهر سطحية لاسلوب الحياة الامريكية وهى مظاهر – وان كانت تحمل طابعا امريكيا لاشك فيه لاتصدر عن فضائل الخلق الامريكى الاصيل ·· بل تصدر عن صورة ناقصة التكوين تشكلت على عجل من

اندماج المجموعات العنصرية المختلفة فزعمت لنفسها التفوق ، وارادت ان تفرض سلطانها على من عداها من الشعوب دون تقدير سليم لاعتبارات الزمان والمكان ··

ان ما اعرضه على القارىء فى مؤلفى هذا ليس هو ما للحياة الامريكية من آثار فى نفوس الاميركيين وخاصة الشعب البريطانى ··

وهكذا يبدو كتابى وكأنه تقرير من ادارة المخابرات عن عملية غزو ·· وعلى الرغم من انه غزو خير ·· فانه لايخلو من عنصر التهديد ·· وعلى المرء ان يعرف اصدقاءه ، كما يعرف اعداءه وخاصة اذا كان الاصدقاء يحملون الهدايا ··

وقد يكون فى تسميتى للنفوذ الامريكى (الغزو الامريكى) مظهرا لاهانة ونكران الجميل ·· خصوصا من ذوى النيات الطيبة الذين يرون فيما يفعلون تحريرا لاغزوا ، وسواء اكان مايفعل الامريكيون تحريرا ، أم غزوا ، فهو سوف يحدث تغييرات كبيرة فى عادات الشعب الانجليزى وتقاليده واسلوب حياته ··

ان الغزو الامريكى الذى من اجله اعددت كتابى هذا شىء آخر اكثر شمولا واوسع نفوذا من مجرد المجاملات الدبلوماسية أو اقامة الحفلات والمآدب ·· انه نقل حضارة وثقافة وأسلوب فى الحياة عبر البحار من شعب الى شعب ··

● ● ●

لقد بلغت الاستثمارات الامريكية فى الصناعة البريطانية ثلاثة اضعافها فى السنوات العشر الاخيرة ، وهى الآن عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب · وفوق ذلك فهى تزداد بمعدل يزيد على ثلاثة عشر ونصف فى المائة سنويا حتى لقد بلغت الزيادة السنويـة فى هذه الاستثمارات (١٧٠) مليون جنيـه ! ومـن الواضـح ان هذه الاستثمارات الامريكية الضخمة يقترن بها اشراف امريكى على النشاط الصناعى البريطانى ·· وهذا الزحف الهائل للاستثمار الامريكى على الصناعة البريطانية يعتبر ظاهرة من ظواهر فترة مابعد الحرب ، على أن

هذا السيل المتدفق من الأموال الامريكية على بريطانيا يتم بنوع خاص نحو الصناعات الاستهلاكية وللعمليات الصناعية الخاصة التى تعتبر عنصرا أساسيا فى تكوين هيكل الاقتصاد البريطانى فى المستقبل ، والمؤسسات الصناعية الامريكية الكبرى بعثت فى الاقتصاد اتجاها جديدا يحقق ارباحا وافرة لجميع القائمين بعمليات الاستثمار ، ويقدر عائد الاستثمارات الامريكية فى بريطانيا بما يزيد عن ١٦,٥ فى المائة ستة عشر ونصف فى المائة فى حين انه لايزيد عن ١٠,٥ فى المائة (عشرة ونصف فى المائة) فى الولايات المتحدة نفسها !

وطبقا للبيانات التى أصدرتها وزارة التجارة الامريكية فان ما يقرب من ٨٠٠ مؤسسة صناعية ومالية فى بريطانيا وغالبيتها من أكبر المؤسسات تحت اشراف امريكى !

ولقد زادت القوى العاملة فى الصناعة فى بريطانيا منذ الحرب بمقدار ٤٠ فى المائة أربعين فى المائة ، لكن زيادة القوى العاملة فى المصانع التى يمولها الامريكيون فى بريطانيا بلغت ١٧٥ بالمائة مائة خمسة وسبعين فى المائة ٠

ولا يقتصر الأمر فقط على وجود هذه المؤسسات الصناعية الامريكية فى بريطانيا بل تقوم بجانبها مؤسسات مركزية للبحوث وللتسويق تفوق فى عددها مالدى بريطانيا من مثيلاتها ٠٠ ولقد ذكرت هذه المؤسسات فى صراحة انها تهدف الى زيادة نصيبها فى السوق البريطانية !

وفى أواخر عام ١٩٦٠ ذكر « ريجنالد مودنج » وزير التجارة البريطانى فى نشرة اصدرتها وزارته ان المسائل التى تسترعى النظر فى ذلك العالم هى ان هناك رغبة أكيدة لدى كبار رجال الاقتصاد الامريكيين لزيادة نصيبهم فى الاقتصاد البريطانى ٠٠

والآن : ما معنى هذا كله ؟

معناه أن بريطانيا فى دوامة أكبر غزو اقتصادى فى التاريخ ! وليس هذا الغزو بأيدى صغار المستثمرين ، ولكن القائم به عشر من أكبر المؤسسات المالية والصناعية فى امريكا ٠٠

ان كل همهم الآن هو أن يقووا قبضتهم على القطاعات الوافرة الربح فى دوائر الاعمال البريطانية ··

لقد توغل الغزو الامريكى فى الاقتصاد البريطانى بدرجة أبعد بكثير مما يتصوره غالبية الشعب البريطانى ··

ويذكر القارىء أن الاعلان أصبح عنصرا من عناصر الانتاج فى عصرنا الحديث وأكبر شركات الاعلان فى بريطانيا شركتان اميركيتان قدر ما تنفقه احداهما على الاعلانــات سنويــا ١٤,٧٥٠,٠٠٠ جنيــه استرلينى ، وما تنفقه الاخرى ٨,٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا ولم يكتف الامريكيون بالسيطرة على الاعلان ، بل انهم يعملون على أن تشعر الاسر البريطانية وتفكر على الطريقة الامريكية ·
·· وحيثما سرت فى المدن أو الضواحى البريطانية التى جرفها التيار الامريكى الجديد فانك ستدرك لاول وهلة كم تحققت هذه الرغبة الامريكية ، فالشعب بدأ يطبق الاساليب الامريكية ، وأخذ يقبل على شراء الكماليات بالتقسيط · وأخذ المراهقون والمراهقات فى بريطانيا يلبسون الأزياء الأمريكية ، وهكذا وقعت المناطق الجنوبية والوسطى من انجلترا تحت تأثير أسلوب الحياة الأمريكية أما شمالى انجلترا فلا يزال محافظا على نظمه القديمة ··

ان مدنيتنا الحاضرة تخضع لحركة اعادة تنظيم كبيرة تتولاها امريكا ·

وقد اعدت امريكا تخطيطا دقيقا مفصلا لنبذ أساليب الحياة المتبعة فى البلاد الأخرى ، وبهذا النبذ يقتضى ادخال انماط جديدة للسلوك ، واتخاذ اساليب جديدة للحياة ·· وتوجه امريكا اهتمامها الخاص للادوات المنزلية وخاصة ادوات المطبخ وأجهزة التلفزيون والسيارات والملابس والازياء ، ولايزال الامريكيون يلحون على المرأة العصرية فى البلاد حتى تستشعر « حاجات جديدة » وحتى تلح على زوجها وتقنعه بأن الحياة الزوجية لن تكون سعيدة هادئة الا باستعمال

هذه الحاجات ، التى تبتكرها امريكا ، وتواصـل تجديدهـا دون انقطاع !!

ان نبذ القديم قد أصبح سياسة وسلاحا هاما فى أيدى رجال الأعمال الامريكيين ..

● ● ●

يعيش الامريكى فى جو من الوهم يسره له « فن الاعلان » و « فن البيع » الامريكيان ويخيل له ان ليس فى العالم دولة تجارى أمريكا علما ، أو مدنية ، أو رخاء .

ولقد بلغ بالجنود الامريكيين الذين انتقلوا عبر البحار على الباخرتين البريطانيتين الكبيرتين « كوين مارى » و « كوين اليزابث » انهم عندما بهرتهم عظمة هاتين السفينتين لم يصدقوا انهما من صنع بريطانيا .. وأكدوا انه لابد أن تكونا من صناعة امريكية !

وعندما اطلقت روسيا قمرها الصناعى الأول شعر الامريكيون بصدمة عنيفة لايمانهم بأن ماتفعله امريكا لايمكن أن يرقى اليه الآخرون .. فكيف تفعل روسيا ماعجزت عنه أمريكا ؟ ولم تكن الصدمة ذات أثر ظاهرى فقط .. ولكنها تركت أثرا عميقا فى نفوس الامريكيين حتى لقد أحجم كثير منهم عن الاشتراك فى ذلك الحدث التاريخى العظيم وهو تكريم بطل الفضاء جاجارين عند قدومه الى لندن حيث احتفى به الانكليز احتفاء كاملا ..

وليس من شأننا فى هذا الكتاب أن نتحدث عما الزمت أمريكا نفسها الثبات عليه فى آسيا وأمريكا اللاتينية وافريقيا بسبب تمسكها بالطابع الاميركى ومن شاء المزيد من الايضاح فى هذا السبيل فليقرأ ماكتبه « اليدورو بيردوك » فى « الاميركى القبيح » انما هدفى هنا أن أبين للبريطانيين الذين اندفعوا فى قبول « الأمركة » خطأ فكرتهم ، وذلك باظهار امريكا على حقيقتها دون تزييف أو زخرفة .

اذا ماعرضت الحديث عن الجانب الانسانى فى المجتمع الامريكى فلا يسعك ان تتجاهل « المكارثية » ولا أود أن ابدى رأيي الشخصى فى هذا العهد ولكنى انقل للقارىء ماكتبه « ريتشارد روفر » أحد كتاب سيرة ماكارثى ٠٠ قال ريتشارد « لقد كان مستر ماكارثى يدوس بخطى ثقيلة على كثير من نصوص الدستور الامريكى ويفرض لنفسه من السيادة والسلطة ما اختص به الدستور وحده »

وليس عهد ماكارثى منا ببعيد ، اذ لم يمض عليه أكثر من ثمان سنوات وقد يكون من غير المناسب أن نتحدث عن المكارثية فى ستينات القرن العشرين ٠٠ بل قد تكون المناسبة أبعد اذا ذكرنا المكارثية فى معرض الحديث عن الغزو الامريكى لبريطانيا ولكن : ليعلم القارىء أن المجتمعات لاتتغير فى ثمان سنوات ٠٠ كما اننا لانستطيع أن نجزم بأن المكارثية قد انتهى عهدها بانتهاء عمر ماكارثى نفسه ٠

٠٠ لقد اساء ماكارثى الى سمعة امريكا اكثر من أى رجل آخر فى تاريخها الطويل ٠٠ ولقد قام « ستيفنسون » برحلة حول العالم عام ١٩٥١ ، وبعد انتهاء رحلته صرح قائلا « ان سيرة ماكارثى السيئة معروفة لكل الشعوب واسمه البشع على كل لسان » ولكن منذ ثمان سنوات فقط كان كل فرد فى المجتمع الامريكى يقبل الارض عند موطىء قدمى هذا الرجل الذى يشهر به ستيفنسون !

٠٠ ان عهد المكارثية لا ينسى ٠ ولا يصح أن ينسى ٠ لأنه يمثل عنصرا من العناصر التى تتكون منها شخصية المجتمع الامريكى ٠٠

ويواصل المؤلف الحديث عن ماكارثى ، مؤكدا ان فزع الماكارثية ــ كما يسميه ــ مايزال قائما فى البلاد الامريكية !

● ● ●

وفى فصل من فصول الكتاب يتحدث عن تعمق النفوذ الامريكى فى بريطانيا ويتساءل : الى أى مدى سوف تسير بريطانيا فى طريقها نحو اتخاذ أساليب الحياة الامريكية ؟

ثم يقول : لقد أوضحنا أن أمريكا قطعت شوطا كبيرا فى غزوها

المادى لبريطانيا وخاصة فى الميدان الصناعى والميدان التجارى والمالى

ولكن الى أى حد قد تأثر الطابع البريطانى الاصيل بهذا الاتجاه الامريكى ، أو بمعنى آخر : الى أى مدى قد « تأمرك البريطانيون » ؟

اذا أخذنا الأمر بظاهره تبين لنا ان الآراء الأمريكية وأساليب الحياة الامريكية قد اتخذت طريقها حتى الى قلب الريف الانكليزى ، فنحن نستعير من أمريكا دون توقف أو تردد !

لقد أخذنا عن أمريكا نظام الاستفتاءات الشعبية فى المسائل العامة ·· ونقلنا وسائل امريكا فى فن الاعلان !

كذلك نقلنا عن أمريكا بعض أنواع الرياضة والموسيقى ، ولكن الميدان الذى اكتسحته الحياة الامريكية هو حياة المراهقين ·· فقد أصبح علم المراهقة فى بريطانيا وكأنه قطعة من أمريكا وهذا أمر طبيعي فان المجتمع البريطاني لم يكن ليخلي مكانا للشبان والشابات بين سن الخامسة عشرة والتاسعة عشرة ، فلما وردت علينا هذه البدعة الامريكية اقبل عليها المراهقون والمراهقات فى بريطانيا بلا وعى ، وأخذوا يعبون من بحرها عبا ، ويستمتعون بها على الاسلوب الامريكى الى اقصى حد · ولا يقتصر النفوذ الامريكى بين المراهقين البريطانيين على المظاهر المادية من زى وموسيقى وملاه · ولكن يتعداه الى الثقافة ·· فمجلات المراهقين تحت نفوذ امريكى قوى ··

واذا كانت حياة المراهقة البريطانية قد وقعت تحت نفوذ أمريكي فان مايليها من حياة الزوجين الحديثى العهد بالزواج هى الاخرى أصبحت تخضع للاسلوب الامريكى ·· فالاثاث الذى يختاره العروسان والفيلا التى سيقيمان فيها معا ، وترتيب الازهار وقائمة الطعام كلها ذات مسحة امريكية !

·· والمعروف ان رغبة المستهلك البريطانى والمستهلكة البريطانية فى الوقت الحاضر هى الحصول على الادوات والاجهزة الامريكية المحبوبة التى يقرأون عنها فى المجلات والتى يشاهدونها بانتظام على شاشة السينما وشاشة التلفزيون ·

ان « بروين كانهام » رئيس تحرير مجلة « كريستيان سيانس » الامريكية يعيب على بلاده ان اكثر ماتصدره الى الخارج هو ذلك البهرج الزائف من المنتجات المادية ، وبجانبها الادب التافه ، ورقصة روك اندرول ٠٠ ولكن على الرغم من النقد الذى يوجهه مستر كانهام ٠٠ يقبل العالم على هذه التوافه كل الاقبال ٠٠

●●●

ولقد نقلت بريطانيا عن أمريكا نظام التدريس اثناء الخدمة والمجتمع البريطاني حتى وقتنا هذا لايزال بعيدا من أن يكون نظام « برامج الكفاية الادارية » وغيرها من الوسائل التى تنمى القدرة على الانتاج وحسن الاداء صورة طبق الاصل من المجتمع الامريكى !

وعلى كل ٠٠ فمن خطل الرأى ان نرفض ماجاءتنا به الحضارة الامريكية من أموال وآراء جديدة ، ولكن الذى نستنكره هو مالهذه الحضارة المادية الأمريكية من أثر على ثقافتنا البريطانية الاصيلة التى هى تراث ماض يمتد مايزيد الى الفين من السنين !

ـ ان الغزو الامريكى لبريطانيا بدأ يعمل عمله ولم يمض عليه اكثر من عشر سنوات فما بالك لو امتد به الزمن ؟

٠٠ من الحق أن نقرر انه من المستحيل على أمريكا ان « تؤمرك » أى بلد غيرها ٠٠ فالولايات المتحدة الامريكية نتاج تجارب وخبرات خاصة بها دون غيرها ـ ويكمن الخطر فى محاولة البريطانيين نقل هذه الثقافة الامريكية فى جملتها ، نتيجة لغزو اقتصادى امريكى ـ او لاننا بهرتنا تلك الخطوات التى خطتها امريكا فى مجال التقدم المادى ٠

ـ ان فى هذه الحضارة المادية مايصلح لنا ومنها ما لايصلح ٠٠ ولكن لما كان نقل نبات من اقليمه الى اقليم آخر يخرج نوعا جديدا أقل جودة من النوع الاصيل فلابد أن نقلنا للحضارة الامريكية المعاصرة سوف ينتج لنا طرازا حضاريا لا هو أمريكى ولا هو بريطانى ، وأشد ما نخشاه أن تفقد الحضارة الامريكية خصائصها الاصلية عند نقلها ولا يبلغنا منها الا التافه ٠٠

اننى أحب أمريكا حبا حقيقيا خاصا وهذا الحب هو الذى دفعنى للكتابة عما شاهدته خلال زيارتى لامريكا مما أثار قلقى وهى اشياء غير جديرة بما تعارفنا عليه من الخلق الامريكى والشخصية الامريكية ٠

ولقد وجهت اهتمامى فى مؤلفى هذا لا إلى أمريكا من حيث هى بلد قد تجب زيارته والجولان فيه ، ورؤية مشاهده ، ولكننى أقصد أمريكا التى تتجه الى الخارج ٠٠ والى أوروبا بنوع خاص انها أمريكا التى تبدى أحيانا رغبة فى إعادة بناء العالم !

ولن تستطيع أمريكا اعادة بناء العالم على نسق أمريكى كامل ان ارادت ٠٠ فهذا أمر مستحيل ولكنها تود اعادة البناء على صورة جديدة رسمها الخيال الامريكى ، وأعدها للتصدير ٠





الدبلوماسية عبر العصور

تأليف : هارولد نيكولسون

لعل أقرب تعريف بسيط للدبلوماسية انها أسلوب من السلوك المتميز مهمته تنظيم العلاقات بين الأمم والشعوب .

ولقد مر بالديبلوماسية عبر العصور المتعاقبة تاريخ حافل طويل .

وكأى شىء من الاشياء .. أو كأى لون من ألوان السلوك البشرى .. فالديبلوماسية رغم ما يحيط بها من جلال ، أو تستدعيه سيكولوجيتها من مظاهر .. أو توجبه عليها وظيفتها من وجوب الترفع عن كل مايشين .. على الرغم من كل ذلك لم يخل تاريخها من أقدم عصورها حتى الآن من الكثير من المآخذ .

وأمامنا الآن كتاب جديد شيق يحاول فيه مؤلفه أن يجلو لنا فى عرض سريع ، تاريخ الديبلوماسية بخيرها وشرها ، وحسناتها وسيئاتها ..

والواقع أن كتاب « الديبلوماسية عبر العصور »[1] رغم أنه ليس مطولا ، جدير بأن يسترعى اهتمام أى قارىء يهمه هذا النوع من الموضوعات ، خاصة لأن مؤلفه هارولد نيكولسون هو ـ كما تقول عنه كلمة التعريف الواردة فى آخر الكتاب ـ من كبار محترفي الديبلوماسية ودهاقنة السياسة فى العالم .

وقد كان هذا الكتاب فى الأصل محاضرات ألقاها المؤلف فى جامعة اكسفورد على طلاب السلك الديبلوماسي الانكليزى .

عرض فى هذه المحاضرات لتاريخ الديبلوماسية منذ أن نشأت أول ما نشأت فى اليونان والرومان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٩ .

---

(١) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن دار الكتاب العربي في لبنان.

وأول مانلاحظه فى هذا الكتاب أن مؤلفه هارولد نيكولسون صريح فى نقده للمآخذ والأخطاء وفى تفنيده لما ظل يلازم الديبلوماسية حتى الآن من نقائص وعيوب ··

فلنمض معه من أول فصل يتحدث فيه عن اليونان والرومان :

انه وهو يتحدث عن اليونان يقرر انهم أول من وضعوا نظاما وأسلوبا لممارسة الاتصالات الديبلوماسية · غير أن اليونانيين على الرغم مما بلغوه من حضارة ·· وما أحدثوه من أدب وفلسفة فالمؤلف يأخذ عليهم أنهم كانوا فاشلين أو متخلفين في الديبلوماسية وهو يعلل ذلك بأكثر من سبب :

منها ما ابتلوا به من حب التنافر والمشاكسة ومنها أنهم لم يكونوا بالسليقة ديبلوماسيين حاذقين ·

ومنها ــ أخير ــ فشلهم فى معالجة شؤونهم ومشاكلهم الداخلية والخارجية على السواء ·· أما بالنسبة للرومان فان الفرصة لهم ــ كما يقول المؤلف ــ كانت سانحة أكثر كى يبتكروا أسلوبا ديبلوماسيا أفضل ويحافظوا عليه ·· غير أنهم فشلوا كذلك لأنه وان كان اليونان قد أخفقوا بسبب جموحهم العاطفي وعجز مؤسساتهم فقد فشل الرومان بسبب مايسميه تقديرهم الخاطىء لمبدأ النفوذ والسيادة وهو فى موضع آخر يفسر ذلك بأن مرد فشلهم هذا يعود الى سبب واحد هو أن الرومان كانوا فى سعيهم لتطوير اسلوبهم الديبلوماسي يحاولون أن يفرضوا ارادتهم على مفاوضيهم بدلا من أن يفاوضوهم على أساس التكافؤ والمساواة ·

والمؤلف يسهب فى فصله هذا ويستشهد بوقائع تبدو لنا منها صورة الديبلوماسية عند الرومان وعليها سيماء الصلف ·· بعيدة كل البعد عما ينبغى أن تتحلى به الديبلوماسية من مرونة وذكاء ··

فى الفصل الثانى ينتقل المؤلف الى الحديث عن الاسلــوب الديبلوماسي الايطالي ·

وخلاصة ما نخرج به من هذا الفصل ان الديبلوماسية الايطالية

فى العصور الوسطى لم تتميز بتطور ملحوظ ٠٠ وأكثر من هذا لقد أسهم الايطاليون الى حد بعيد فى دفع الفن الديبلوماسى الى الحضيض ، وتلطيخه بكل مايشين لما يشوبه من تعاليم كانت مستقرة فى أذهان رجالاتهم الديبلوماسيين ومنها وضع المصلحة القومية فوق كل اعتبار وحتى فوق العدالة الدولية ٠٠

والفصل الثالث يعقده المؤلف عن الفن الديبلوماسي الفرنسى

والفن الديبلوماسي الفرنسي ــ كما يقول ــ قد ظل حتى يومنا هذا يعلق أهمية كبرى على جمال الكلمة وطلاوة التعبير ٠٠

ولقد أصبحت اللغة الفرنسية « اللغة الرسمية » للديبلوماسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ ومنذ الفترة التى تسلم فيها ريشيليو زمام السلطة عام ١٦١٦ وحتى اندلاع الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر كان الفن الديبلوماسي الفرنسي « القدوة بالنسبة للقارة الاوربية بأسرها » ٠

وعلى الرغم من تنويه المؤلف بالفن الديبلوماسي الفرنسي ــ على مانرى ــ فان الديبلوماسية الفرنسية لتلك الفترة كان يشوبها الكثير من الاخطاء ٠٠

وربما يكون ذلك هو الذى اضطر كاتبا فرنسيا من رجال السلك الديبلوماسي اسمه فرنسوا دى كاليير الى أن يضع فى عام ١٧١٦ م كتابا خاصا بأساليب المفاوضات مايزال ــ كما يقول المؤلف ــ يعتبر أفضل دليل للفن الديبلوماسي ٠

وليس من شك فى أنه من الأدلة على ماكان يشوب الديبلوماسية الفرنسية من الاخطاء والمآخذ ٠٠ مايذكره المؤلف من أن دى كاليير هذا ٠٠ كان على نقيض من المبدأ القائل بأن هدف الديبلوماسية هو الخداع ٠٠ لقد أثبت دى كاليير بالبرهان أن الديبلوماسية ترتكز على دعامة خلق الثقة وأن الثقة يوحى بها الايمان الصحيح ٠٠ ومن أقوال دى كاليير فى كتابه : انه ينبغى على الديبلوماسى أن لا يسقط من حسابه الحقيقة القائلة بأن المعاملة المكشوفة هى أساس الثقة وعليه أن يشارك الآخرين بقلب مفتوح الا مايفرض عليه الواجب اخفاءه ٠٠ كما يشبه

دى كالبير فن الديبلوماسية الناجح بفن الصيرفة السليم وقد كتب فى هذا الصدد يقول : « ان سر النجاح فى المفاوضات يكمن فى ادراك الفرقاء ادراكا حقيقيا للكيفية التى يتحقق فيها التوازن بين المصالح الفعلية لجميع الفرقاء المشتركين فى المفاوضات » ٠

ولم يقتصر دى كالبير على رسم المبادىء لفن المفاوضات بل وضع أسسا كثيرة مكينة لما يجب أن تكون عليه شخصية الديبلوماسي وما يتحلى به من شيم وخصال وصفات وميزات ٠٠ ومن هذه الأسس أن فى الديبلوماسى الناجح يجب أن تتوفر موهبة التفكير العميق الواعى ٠٠ والمقدرة على قراءة أفكار الذين يفاوضهم ليهون عليه استكناه تلك الأفكار وذلك من خلال حركاتهم وملامح وجوههم ٠٠ وعلى الديبلوماسي الناجح كذلك أن يكون سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، يعرف كيف يصغى متى تكلم غيره بأدب ولطف وبشاشة ٠٠ والا يسعى الى الشهرة الديبلوماسية عن طريق النكتة أو العناد فى المجادلات أو الاندفاع فى المحاورات الصاخبة بقصد فرض رأيه على الآخرين ٠٠

ومما يستحسنه دى كالبير جدا بالنسبة للمفاوض ان يكثر من مطالعة الكتب التاريخية والمذكرات الخاصة والتعمق فى دراسة أحوال وظروف المجتمعات الاجنبية وأن يكون ملما بما فيه الكفاية بالآداب والعلوم والقانون ٠٠ ويضيف الى ذلك : وأن يكون مضيافا كريما لطيف المعشر ٠٠ والا ينسى أن الطباخ الماهر كثيرا مايكون وسيلة رائعة لكسب الاصدقاء ٠٠ على اننا نرى المؤلف هارولد نيكولسون يعبر لنا عن أسفه لأن المبادىء التى أدخلها دى كالبير على الفن الديبلوماسي وحمل لواء الدفاع عنها مدة طويلة قد أهملت وصرف النظر عنها فيما تلا من السنين ٠

وأخيرا ينتقل المؤلف الى الفصل الرابع والأخير وقد خصه بالكلام عما سماه مرحلة الانتقال من القديم الى الحديث فى الفن الديبلوماسي ٠

ومرحلة الانتقال هذه كما يصفها تعتبر بدايتها قبل مئة سنة من عام ١٩١٩ م أى العام الذى انعقد فيه مؤتمر الصلح فى نهاية الحرب العالمية الاولى وأعلن فيه ولسن رئيس الولايات المتحدة الامريكية يومذاك

مبادئه الاربعة عشر المشهورة والتى تنص على حق الأمم الصغيرة فى تقرير مصيرها ٠

ولم يحدث فى فترة الانتقال هذه التى سبقت عام ١٩ باعتراف المؤلف نفسه أى تغيير جذرى فى الأساليب الديبلوماسية اللهم الا ما أحدثه سرعة تقدم المواصلات فى العهد الأخير حيث ساعدت على تبدل أساليب المفاوضات القديمة وقد كانت تمضى عدة أشهر فى الماضى قبل أن تصل للسفير أوامر حكومته وعدة أشهر أخرى قبل أن يبعث الى حكومته بأجوبته وتقاريره وان كان يفترض بالسفير حينذاك ان يستعمل رأيه الخاص ٠

ولا يفوت المؤلف أن يذكر سببين آخرين لهما تأثيرهما فى تطوير الفن الديبلوماسي الى حد ٠ فى هذه المرحلة ، وهذان السببان هما : الرغبة فى التوسع الاستعمارى والمنافسة التجارية الحادة الا أن هذا التأثير لم يكن بحد ذاته بالغ الاهمية أو عميق الجذور كما يتصور البعض ٠٠ هذا مايقوله المؤلف هارولدنيكولسون ولعل له عذره كديبلوماسي بريطاني فى أن يقلل — على هذه الصورة — من أثر كل من الرغبة فى التوسع الاستعمارى والمنافسة التجارية الحادة فيما وقفت عنده الديبلوماسية فى الغرب من حفاظ على أكثر أساليبها الأولى ٠

لعل له عذره فى ذلك ٠٠٠ ولو أن هذا لن يحول دون تقرير كلمة الحق فى هذا المجال وهى انه لولا الرغبة الجامحة فى التوسع الاستعمارى ولولا المنافسة التجارية الحادة بين دول لم يكن لها من شاغل يشغلها سوى هذا التوسع فى الاستعمار طوال فترة الانتقال هذه التى أشار اليها المؤلف لولا كل ذلك لما كان للديبلوماسية — فى الغرب على وجه الخصوص — أن تظل صامدة بصورة تدعو للدهشة عند اساليبها التى ورثتها عن عصرى اليونان والرومان والعصور الوسطى ٠

وان كان لا يوجد من ينكر قطعا أن الديبلوماسية فى العصر الحديث : عصر الذرة والصواريخ وعصر تقدم المواصلات قد تطورت الى حد كبير عن ذى قبل ولكن ــ مع الاسف ــ لم يتجاوز هذا التطور ــ فى أغلب الاحوال ــ المظاهر والاشكال ..



العرب وابن خلدون

الأستاذ أبو القاسم محمد كرو

شغلت هذه القضية قضية المؤرخ المفكر « عبدالرحمن بن خلدون » ورأيه فى العرب ـ على النحو الذى ساقه فى مقدمته الشهيرة « مقدمة ابن خلدون » ‥ نقول شغلت هذه القضية أقلام بعض الكتاب والباحثين فى العصر الحديث ·

وقد أعلنها بعضهم صراحة ، ودون أى تردد ، ان المؤرخ الكبير ‥ كان متحاملا على العرب ، فى رأيه الذى أبداه فى المقدمة ‥ بل ان من هؤلاء الكتاب أيضا من ذهبت مغالاته الى حد اتهام ابن خلدون بانه « شعوبي » يكره العرب ولهذا السبب تحامل عليهم ‥و ‥ والى اخر ما سنراه ـ مجملا ـ فى المامنا بهذا الكتاب ·

ومن الغريب ان نجد الذين تولوا ، كبر هذا الاتهام : كتابا كبارا معروفين من أمثال محمد عبدالله عنان ، وأحمد امين ، وطه حسين وغيرهم ‥ في حين لم يكن اتهامهم هذا مبنيا على أى أساس علمي ‥ وانما كان التسرع ، وسوء التفسير لحمته وسداه ‥ ولقد أثبت ذلك بأدلة واقعية بسيطة واضحة تتحدى كل لون من الوان المكابرة ‥ اثبته كتاب منصفون محققون ‥ تصدوا للدفاع النزيه السليم عن الرجل العبقري بحق « عبدالرحمن بن خلدون » ·

وكان الكاتب الباحث المفكر الاستاذ ساطع الحصرى أول من تصدى لهذا الموضوع فى كتابه الرائع « دراسات عن ابن خلدون » ..

ومن الكتاب الباحثين ، ممن تصدوا لذلك أيضا بصورة ليست مطولة ـ الأديب التونسي المعروف الأستاذ « ابوالقاسم محمد كرو » فى كتابه هذا القيم : « العرب وابن خلدون » .

وما من شك فى انه من خلال هذا العرض السريع للكتاب سوف يتضح للقارىء ان الاتهام الذى وجه الى المؤرخ ابن خلدون فى هذه القضية انما كان اتهاما ظالما لا أساس له أصلا وانما دعا اليه ـ وهذا فى أحسن الفروض : ـ التسرع ـ كما قلنا وسوء التفسير !

● ● ●

يقول المؤلف الأديب الأستاذ محمد كرو : ان أول ما أريد بحثه فى هذا الكتاب هو : لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ ثم ماذا أعنى به ؟

واعتقد ان فى الجواب عن هذين السؤالين تحديدا للبحث وأيضاحا للهدف ، ودفعا لكل التباس من بداية الطريق ..

أما عن السؤال الأول : فانني احس من زمن بعيد أن ابن خلدون قد ظلم كثيرا ، وان أشد هذا الظلم قد جاء من أمته التى أدى اليها أعظم الخدمات ، وارتفع بامجادها الفكرية الى السماء ، ويزداد هذا الاحساس قوة الى حد الألم عندما نرى كبار كتاب العرب المعاصرين يتسابقون الى الطعن فى ابن خلدون والنيل من مكانته ومن تراثه ، وحتى من نسبه ومن شرفه أيضا .

وماكان هذا ليثير فى النفس شيئا .. لو أنه كان كله أو جله حقا .. أما وهو منحرف عنه ، بعيد عن العدل والانصاف فانه يكون ظلما جارحا يرتكبه خيرة ابناء هذه الأمة نحو أعز أبنائها ..

ولم يكن هذا الظلم الثقيل ليقع لولا خطأ الناس ـ الباحثين والكاتبين ـ فى فهم مقاصد ابن خلدون .. وخصوصا فى استعماله لكلمة « العرب » فى مقدمته المشهورة ، مما أدى الى تحاملهم عليه بغير حق .. وبلا مبرر علمي ، وقد زاد فى حملته على العرب فى مواضع

مستوى التطور الفكرى فى عصر ابن خلـدون ، وقيـم الأشيـاء ومصطلحاتها فى أيامه ، ومن ثم حكموا على ارائه ونظرياته ، وعلى مصطلحاته ومفاهيمه بحقائق ومفاهيم عصرنا الحاضر ٠

أما عن السؤال الثانى وهو : ماذا أعنى بالعرب وابن خلدون ٠٠ فأظن ان الجواب عنه قد صار واضحا الآن ٠٠ ومع ذلك فان ما أعنيه على وجه التحديد هو موقف ابن خلدون من العرب ٠٠ وموقف العرب من ابن خلدون ٠

٠٠ انه لما يحز فى النفس أن العرب بالرغم من انتشار مقدمته فيهم ، فانهم لم يدركوا شيئا من قيمة ابن خلدون الا فى بداية هذا القرن ، وبصورة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى حينما اصدر طه حسين كتابه عن تراث ابن خلدون بعنوان « فلسفة ابن خلدون الاجتماعيه » ولكن طه حسين ــ مع الأسف الشديد قام يحطم فى حماسة وجرأة اكثر ماقاله العلماء عن ابن خلدون وتراثه ٠٠ ولم يجد بابا أو سبيلا للطعن الا فتحه وعندما لا يجد بابا الى ذلك ، يضرب حقائق العلم والتاريخ بهواه مستعينا الى ذلك بمنطقه الجدلى الذى يعرفه عنه قراؤه وتلاميذه وسامعوه، أما المقدمة نفسها ٠٠ فانها لم تنشر كاملة حتى الآن باللغة العربية الا فى بلاد الغرب ٠٠ أما النسخ التى طبعت فى البلاد العربية فانها جميعا ناقصة ومشوهة وخالية من التحقيق العلمي المطلوب ٠

على أن أهم كتاب وأصدقه وأوفاه علميا وتاريخيا ظهر حتى الآن فى البلاد العربية عن ابن خلدون وتراثه العلمي هوالدراسات العظيمة التى كتبها ونشرها العلامة الكبير ساطع الحصرى ٠٠ فهى بحق تقوم على منهج صحيح وهى خالية من الشهوات والعواطف سواء منها ما يكون مع ابن خلدون أو عليه ويأتى بعد ساطع الحصرى ، كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنان وان تحامل على ابن خلدون فى نواح معينة واتجه فى بحثه اتجاها اقليميا يخالف امانة العلم ، ومنهجه السليم ، ومع ذلك فان عمله ثاني عمل بعد جهود الحصرى القيمة ٠٠

ولكننا عندما نقيس بين ما كان ينبغى ان يوجه من الاهتمام والعنايةلابن خلدون وتراثه ‏٠٠‏ وبين ما حصل بالفعل ، نجد الفرق هائلا والجهود قليلة ، ثم نشعر بخيبة أليمة وألم قاهر عندما نجد العرب زيادة عن تأخرهم فى نشر آثاره وعدم تقديرهم المباشر لعبقريته ومركزه الكبير من تراثهم ، ومن الفكر الانساني نجد ان اهتمام العرب به محدود جدا ، وان ماوجه اليه من نقد قائم على الهوى والعاطفة أكثر من التقدير العلمي لاثاره ونظرياته وهنا يصح أن نسأل : ما السبب فى ذلك ياترى ؟ ‏٠٠‏

في الواقع ان أهم سبب لعب دورا خطيرا فى النفور من ابن خلدون هو حديثه عن العرب الذى اسىء فهمه وتأويله الى الحد البعيد ‏٠٠‏ حتى رأينا من يدعو الى نبش قبر ابن خلدون ، وحرق مؤلفاته ‏٠٠‏ فماذا قال ابن خلدون عن العرب ؟ وكيف تحدث عنهم ؟

أما عن السؤال الأول : ماذا قال ابن خلدون عن العرب ؟ فان الجواب عليه نجده فى كلام ابن خلدون نفسه ‏٠٠‏ ولكن قبل أن نستعرض شيئا من كلام ابن خلدون أود أن أقدم خلاصة لآرائه كما يرويها الاستاذ محمد عبدالله عنان لنرى بعد ذلك كيف يفسد التلخيص أحيانا آراء المؤلفين ، ويحرفها عن اغراضها يقول الأستاذ عنان :« وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل فالعرب فى نظره امة وحشية تقوم فتوحهم على النهب والعبث ‏٠٠‏ ولايتغلبون الا على البسائط السهلة ، ولايقدمون على اقتحام الجبال او الهضاب لصعوبتها واذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب ‏٠٠‏ لان طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران ، ولأنهم أهل تخريب ونهب ‏٠٠‏ يخربون المباني وينهبون الارزاق ويفسدون الأعمال والصنائع ، وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك لأنهم ــ وهنا أرجو الانتباه وزيادة الملاحظة ــ لأنهم لبداوتهم وخشونتهم أكثر شعورا بالاستقلال والحرية ، لايدينون لرئاسة أو نظام ، وسياسة الملك تقتضى النظام والخضوع والانقياد ‏٠٠‏

ويواصل الأستاذ عنان كلامه فيقول : « ويستمر ابن خلدون فى حملته علي العرب فى مواضع اخرى من مقدمته » ومعني هذا ان عبدالله عنان يعتقد ان ابن خلدون يدلي بآرائه وفق حملة منظمة ومقصودة منه ضد العرب ·· ويعتقد عنان أيضا ان ابن خلدون بربرى بالرغم من انتسابه للعرب ، وان ذلك هو السبب فى هذا التحامل بل سره الكامن فى نفس ابن خلدون ·· وحتى لا يتهم بالتعصب ·· فاني أترك عالما مختصا يتولى الرد على هذه المزاعم الباطلة ·· فاستمعوا الى الاستاذ ساطع الحصرى وهو يفند هذه الأباطيل بكلام طويل قائم على الحوادث التاريخية ولكنى أنقل اليكم نهايته فقط ، قال الأستاذ ساطع : « ولكن كل ماهو معلوم وثابت عن حياة ابن خلدون لايبرر مطلقا وصف نشأته بالبربرية لأنه نشأ فى بيت علم ·· هاجر من الأندلس الي تونس ، وحافظ على مكانته العلمية جيلا بعد جيل ، ومن المعلوم ان تونس كانت ولاتزال بعيدة عن البربرية » هكذا رد الأستاذ ساطع على اتهام عنان لابن خلدون بالنشأة البربرية !

● ● ●

والأن لنتصفح مقدمة ابن خلدون لنرى ماذا يقول هو نفسه عن العرب ، لكى نتبين صحة هذه المزاعم التى حشرها عنان حشرا ·· ولنبدأ بالفصل الذى يتضمن أقسى الأحكام وأعنف الحملات على العرب ـ ولنترك أيضا الأستاذ ساطع الحصرى يناقش ابن خلدون الحساب ·· فأولا الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » ولننعم النظر فى الأدلة التى يذكرها لتعليل وتأييد رأيه هذا :

« ·· فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ·· ومناف له ·· فالحجر مثلا ـ انما حاجتهم اليه لنصبه « أثافى » للقدر ·· فينقلونها من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليهم ·

وبديهي ان مدار البحث عنا لايتعدى البدو الرحل الذين يعيشون تحت الخيام ··

ويمضى المؤلف فى الاشارة الى بعض ماذكره ابن خلدون فى هذا الصدد ·· الى أن يقول :

مما لاشك فيه ان الفرق بين « العرب » والاعراب كان غير واضح تمام الوضوح منذ فجر الاسلام ·· فان كلمة العرب كانت تشمل الاعراب ، فهى ـ اذن ـ أعم منها ·· وهذا الخليفة عمر يقول : « العرب مادة الاسلام » وهو بلاشك انما يقصد بالدرجة الأولى ، هؤلاء المحاربين الأقوياء وهم سكان البادية ، لكن مما لاشك فيه أيضا أنه قصد معهم سكان الحواضر ·

·· وقد أجمع المؤرخون والباحثون المعاصرون من أوربيين وغيرهم على أن كلمة « عرب » كان استعمالها الأول بمعنى « البدو » وان هذا المعنى قد رافقها فى جميع العصور التاريخية وأن معنى الحضر لم يتصل بها الا فى فترة قليلة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلافة الأموية ، وانها حتى فى هذه الفترة لم تتجرد من معناها الأصلى ، بل كانت تطلق على البدو والحضر فى وقت واحد ·· وبعد هذه الفترة كان استعمالها غالبا بمعنى البدو ·· وقد استمر هذا الى العصر الحديث ولم تأخذ حدود معنى الأمة ـ استعمالا دقيقا ـ الا عندما دخلت معاني هذه الكلمة « الأمة » ومفاهيم الوطنية والقومية الى أفكار المثقفين من أبناء العرب المعاصرين ··

ويستشهد المؤلف بما ذكره « برنارد لويس » استاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط فى جامعة لندن حول كلمة « عرب » فى كتابه « العرب فى التاريخ » حيث يقول : « واصل كلمة عربى ما يزال غامضا على الرغم من أن علماء اللغة قد قدموا تفسيرات تختلف جودة وقبولا ··

وقد تولد ارتباط المعنى بالبداوة من أن العرب أنفسهم على مايظهر استعملوا الكلمة منذ زمن قديم ليميزوا البدوى من سكان المدن والقرى الناطقين بالعربية ، بل ومايزالون يفعلون ذلك الى حد ما ، حتى يومنا هذا ··

ومنذ العصور السياسية المتأخرة ومابعدها ارتدت كلمة « العرب » الى مدلولها القديم من بدو أو رحل ٠٠ وأصبحت فى الحقيقة مصطلحا اجتماعيا قبل أن تكون مصطلحا جغرافيا بشريا ٠٠ وتستعمل فى كثير من تواريخ الحروب الصليبية الغربية لتدل على البدو فقط ٠٠

وينتهي البحث بهذا العالم الغربى الانجليزى الى « ابن خلدون » فيحسن فهم مقصده من كلمة « العرب » ومن استعماله لها ٠٠ أكثر مما فهمها هؤلاء الكتاب العرب « الكبار » بل ويحسن تصوير حالة المجتمعات العربية المعاصرة لابن خلدون وكيف كانت تستعمل هذه الكلمة ، وغيرها من مصطلحات المجتمعات البشرية فى عصر ابن خلدون فيقول « ٠٠ ويستعمل ابن خلدون المؤرخ العربى من علماء القرن الرابع عشر « الميلادى » والذى كان هو نفسه حضريا من سلالة عربية ، الكلمة – عادة – بهذا المعنى « البدو » الى أن يقول « برنارد لويس » ٠٠

« ٠٠ وبينما بقيت جميع هذه الاستعمالات المختلفة الى يومنا هذا دارجة فى قرائن مختلفة ٠٠ ولد استعمال جديد ٠٠ تحت تأثير الغرب ، وأصبح فى السنوات الخمسين الأخيرة يتزايد أهمية ، وهو الاستعمال الذى يَعتبر الشعوب الناطقة بالعربية « أمة » أو « مجموعة » من الأمم الشقيقة بالمفهوم الأوروبي ٠٠ توحدها بلاد مشتركة ، ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وتشوق مشترك الى الاستقلال السياسى ٠

● ● ●

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن أناس آخرين تصدوا لابن خلدون متهمين اياه بالشعوبية ٠٠ تارة ٠٠ أو بالتحامل على العرب تارة أخرى ٠٠ ومن هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ومحمد عبدالله عنان أيضا فى كتابه « ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى » ٠٠ يقول المؤلف : وطه حسين أشد انحرافا عن الحق

من صاحبه ·· فهو لم يقتصر على رمي ابن خلدون بالشعوبية ·· بل أنكر ان تسمى « مقدمة ابن خلدون تاريخا ·· او اجتماعا ·· أو علما ·· كما حاول طه حسين ·· استنادا الى اخطائه فى الفهم ، أو تقصيره فى المراجعة ·· ان يحطم كل ماجاء به ابن خلدون ·· وكذلك رماه بالكذب ·· والادعاء ·· والغرور ·

ويعقب المؤلف الاستاذ ابوالقاسم محمد كرو ·· على ذلك بقوله : ولسنا ندرى والله بعد ذلك : من هو الأحق بهذه الصفات ولكننا نعلم أن ماقاله طه حسين كان باطلا ·· ومحض افتراء ·· وسوء فهم وتفسير لاراء ابن خلدون ! ·· ويبدأ طه حسين سلسلة اتهاماته المنظمة ضد ابن خلدون باعلان الشك فى نسبه ويزعم فوق ذلك ان ابن خلدون نفسه قد شك فى نسبه ·· غير أن كتابا ثقات ردوا هذه المزاعم الباطلة ردا مسنودا بالحقائق والبراهين ، وأوفى رد وأقواه هو رد الاستاذ ساطع الحصرى فى دراساته القيمة عن مقدمة ابن خلدون ، ثم رد الاستاذ فؤاد افرام البستانى فى حلقات روائعه الخاصة بابن خلدون ، ومما زاد الأمر خطورة ان عبدالله عنان قد زعم بعد طه حسين ان ابن خلدون ينتمي فى الواقع الى الشعب البربري ·· وان هذا قد جعل ابن خلدون ذا « هوى خاص ونعرة بربرية واضحة وذلك ما يفسر لنا صرامته فى الحملةعلى العرب ·· » ·

فما صدق هذه الادعاءات ؟ يقول البستاني : « والواقع ان ابن خلدون يلاحظ نقصا فى سرد أسماء جدوده بينه وبين خلدون فقط ، ولكنه لايتكلم عما وراء ذلك ، ولاشك قطعا فى صحة نسبته الى القبيلة الحضرمية » ·

ويقول الحصرى : « ·· ومن الغريب ان بعض الكتاب المعاصرين فى مصر ·· أثاروا بعض الشكوك فى هذا النسب ، من غير أن يستندوا الى أى دليل علمي كان » ثم يستعرض الاستاذ ساطع الحصرى آراء طه وعنان ويرد عليها ردا قويا مبرهنا ·· ويطعن طه حسين فى أخلاق ابن خلدون أكثر من مرة فى جوانب كثيرة من سلوكه حتى يكاد يعتقد القارىء ان طه لم يؤلف كتابه الا للطعن فى ابن خلدون وتشويه

سيرته وتحطيم قيمه العلمية والأخلاقية والانسانية أيضا ٠٠
وقد أعلن من قبل عدد من علماء الغرب آراء فى أخلاق ابن خلدون تعاكس ماذهب اليه طه حسين ٠٠ وبعد ان يسرد المؤلف الفاضل بعض النماذج من المطاعن التى يكيلها الى الفيلسوف العربي ابن خلدون : عميد الادب العربي الحديث يعقب على ذلك بقوله :

« ٠٠ وبرغم انه لايهمنا هنا الا ما يتصل بكلمة « العرب » فقد ذكرت تلك النماذج من السهام السامة التى يوجهها طه نحو ابن خلدون لنقيم الدليل على مدى التهور وعدم الاتزان اللذين يندفع بهما بعض كتابنا « الكبار » نحو تراث امتهم ومفاخرها الرائعة دون سبب علمي أو مبرر اخلاقى ٠٠ ومن هنا يمكننا أن ندرك كيف كان موقف العرب المعاصرين من ابن خلدون موقفا لايشرف المتمسكين به اطلاقا ٠٠ ولولا الأستاذ ساطع الحصرى الذى انبرى لا للدفاع عن ابن خلدون فقط ٠ بل وللمقارنة بينه وبين مفكرى أوربا وعلمائها ، واظهار تفوق ابن خلدون وسبقه لهم زمنا وموضوعا ومنهجا لولا هذا الرجل النزيه لضاعت على العرب هذه الحقائق الناصعة وفقدوا كل سبب يدعوهم الى الاعتزاز بابن خلدون ٠٠ الرجل الذى بهر أوربا وعلماءها ٠٠ وهي فى عنفوان مجدها العلمي وتفوقها الحضارى ! ٠

ومن كتاب مصر ممن ذهبوا مذهب طه حسين فى اعتبار ابن خلدون شعوبيا يعادى العرب ويتهجم عليهم بدافع من شعوبيته ، الدكتور احمد أمين ٠٠ وهنا يقول المؤلف : اندهشت كثيرا لان ماعرف به المرحوم احمد امين من تثبت واتزان وانقطاع للبحث والتأليف الموسوعى من شأنه ان يجنبه هذا المزلق الخطر غير انه ــ مع الأسف الشديد ــ قد اندفع فى نفس التيار دون تثبت او شعور بما تنتجه هذه الآراء المرتجلة من أخطار على الناشئة وعلى تراثنا القومي ٠

ومن هؤلاء الكتاب أيضا : « سلامة موسى » الذى يبدو ان المؤلف الفاضل يحسن به الظن الى حد بعيد حيث يصفه بأنه « كاتب مستنير ورائد كبير من رواد الحرية والفهم السديد بكثير من حقائق التاريخ

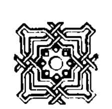
والحياة والتقدم البشرى العام الخ ٠٠ الا انه لم يتحر شيئا من الحقيقة حين ذهب فى تيار الادباء الكبار ٠٠ الذين يتهمون ابن خلــدون بالشعوبية ٠

وأخيرا ينهي المؤلف نقاشه حول هذه القضية بتأكيد مايأتى :

١ ـ ان قليلا من التأمل والفهم السديد لمقدمة ابن خلدون يتضح منه ان ابن خلدون قد استعمل كلمة « العرب » بمعنى « الاعراب » ومعنى هذا انه لم يتحامل على العرب مطلقا بل وصف الاعراب منهم وصفا قد يكون مصيبا فيه ، وقد لايكون ولكنه فى الحالين لم يكن يقصد غير الحقيقة العلمية التى يدل عليها منهجه فى المقدمة ٠٠

٢ ـ ان كلمة « عرب » بمعنى الأمة حسب المفهوم الحديث لم يكن معناها معروفا فى عصره ٠٠ ولافيما بعد بل ظهر فى العصر الحديث ودخل الفكر والأدب العربيين عن طريق الثقافة الأوربية ٠٠ ومعنى هذا ان الأجيال التى جاءت بعد ابن خلدون لم تكن تفهم من كلمة « عرب » اكثر مما فهمه ابن خلدون ٠

واذا كانت كل الاتهامات الموجهة لابن خلدون فى هذه القضية لم تنشأ عن سوى فهم فاسد لما قصده من كلمة العرب فان كل الاتهامات الأخرى ومنها اتهامه بالشعوبية واتهامه فى نسبه على نحو مايذهب اليه طه حسين واشياعه تصبح باطلة هي الأخرى لانها قامت على نفس الأساس الواهى الفاسد من الخطأ فى الفهم والخطأ فى التفسير ٠



شمس العرب تسطع على الغرب

أثر الحضارة العربية في أوروبا

تأليف : الدكتورة زيغريد هونكة

إذا كان من الثابت المعروف عن جماعات المستشرقين فى الغرب - انهم - غالبا - مغرضون متحيزون فى كل مايكتبونه عن العرب والإسلام ، والحضارة الاسلامية بتأثير من مختلف البواعث والاغراض والاحقاد فانه من الثابت المعروف ايضا ان ثمة قليلين منهم بريئون من هذه الوصمة ·· بريئون من اى غرض ·· يكتبون مايكتبون عن العرب وعلومهم وآدابهم وحضارتهم بدافع نبيل ، يستهدفون غرضا شريفا على قاعدة من البحث العلمى المتجرد ·· شعارهم فى ذلك احقاق الحق ، والصدع بالكلمة المنصفة والرأى البعيد عن الهوى ·

وليس من ريب فى أن مؤلفة هذا الكتاب عن اثر الحضارة العربية فى اوربا : المستشرقة الالمانية الدكتورة « زيغريد هونكة » مثال طيب من امثلة هذه القلة المنصفة من المستشرقين الغربيين !

ولقد ذاع امر هذا الكتاب فى الغرب منذ ظهوره فى اللغة الالمانية ، واحدث صدى بعيدا فى مختلف الاوساط هناك ·· واكثر من ذلك لم يفت بعض من لم تعجبهم آراء المؤلفة واسلوبها وطريقتها فى البحث ·· ان يتصدوا له بالرد وان ينكروا ماورد فيه من حقائق ، وتضمنه من آراء !

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية أديبان يقيمان فى المانيا ، هما الاستاذان « فاروق بيضون » و « كمال دسوقى » والحق ان ترجمتهما للكتاب تعتبر من أجود الترجمات متانة عبارة واشراقة اسلوب ·

المؤلفة والكتاب

يقول المترجمان الفاضلان فى تقديمهما للكتاب عن المؤلفة ‥ انها مستشرقة المانية طائرة الشهرة ، أحبت العرب ، ومازالت وصرفت وقتها كله باذلة الجهد للدفاع عن قضاياهم والوقوف الى جانبهم وهى زوجة الدكتور « شولتزا » المستشرق الالمانى الكبير الذى اشتهر بصداقته للعرب ، وتعمقه فى دراسة آدابهم والاطلاع على آثارهم ومآثرهم ‥ وكتابها « شمس العرب تشرق على الغرب » هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة ، والمكتبة الالمانية لاتحوى فى هذا الحقل الواسع سوى عدد من المقالات المتناثرة فى المجلات العلمية ، لاتشفى الغليل ولذا كان ظهور كتابها هذا ، الذى نفخر بتقديمه الى القارىء العربى : حدثا كبيرا فى المانيا وأوربا ، علقت عليه مئات الصحف والمجلات ‥ بدليل أن نقاد اوربا لم يهتموا بشىء كاهتمامهم بهذا الكتاب فهاجم عشرات منهم المؤلفة والكتاب معا ‥ واتهموها بالتعصب للعرب ، والتحيز لهم ‥ بيد ان اصدقاء العرب فى كل مكان انبروا يفندون مزاعم هؤلاء ويردون على افترائهم ، فشهد الكتاب فى عامه الاول معركة حامية الوطيس لم يعرفها كتاب غيره فى المانيا فى السنوات الاخيرة ، وبهذا لاقى الكتاب فى وسط هذه الضجة نجاحا منقطع النظير فأعيد طبعه ، وترجم الى عدد من اللغات الاجنبية ، كما رحبت به الصحافة العربية ترحيبا بالغا ‥ الخ ‥

أردت تكريم العبقرية

ولنستمع الى المؤلفة فى مقدمتها التى اعدتها خصيصا لهذه الترجمة العربية لكتابها اذ تقول « ‥ وأردت أن اكرم العبقرية » وأن اتيح لمواطنى فرصة العودة الى تكريمها ، كما اردت ان اقدم للعرب الشكر على فضلهم الذى حال دون سماعه طويلا تعصب احمق ‥ أو جهل احمق ‥ وكم سررت ان يترجم كتابى هذا الى اللغة العربية حتى

استطيع ان أحدث مباشرة قلوب العرب ٠٠ بما يعتمل فى نفوسنا من المشاعر ٠

تتحدث المؤلفة فى كتابها فى صراحة تامة وفى وضوح وفى تعبير لايتردد قارئه فى الحكم عليه بأنه صادر عن روح صافية متحررة من العقد ٠٠ وعن رغبة فى الانصاف ٠٠

يشتمل الكتاب على فصول سبعة تناولت فيها اهم معالم حضارة المسلمين ، وخاصة منها العلم والادب والطب وغيرها من وسائل المعرفة والثقافة والفنون ٠٠ وما أجمل هذا الوصف الشيق ـ نقرأه فى صفحات عديدة من الكتاب عن مدى ماوصلت اليه الحضارة العربية من تغلغل ثم عن شغف المسلمين بالثقافة والمعرفة وما كان لنشاطهم فى مختلف هذه المجالات من تأثير فى الغرب وما احدثه كل ذلك من انقلاب بل هى لاتتردد فى أن تقول عن هذا الانقلاب وهذا التحول بانه « المعجزة التى حققها العرب » ٠

المعجزة التى حققها العرب

تقول مؤلفة الكتاب : « نحن الآن فى سنة الف للميلاد ٠ لقد نشر ابن النديم تاجر الكتب فى بغداد بالامس القريب فهرسا يضم فى عشرة مجلدات اسماء جميع الكتب التى صدرت باللغة العربية فى الفلسفة والفلك ، والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطب حتى ذلك الحين ٠

وفى الاندلس تجتذب قرطبة طلاب العلم من كل انحاء الشرق بل والغرب ايضا تجذبهم بمدارسها العليا ومكتبتها العظيمة التى جمع لها الخليفة الحكم الثانى ـ وهو من اشهر علماء عصره ـ نصف مليون من الكتب القيمة جمعها له عشرات من رجاله ، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته ، قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاما ٠

وفى القاهرة رتب مئات العمال والفنيين فى مكتبتى الخليفة مليونين

ومئتين من المجلدات ، وهو يعادل عشرين ضعفا مما حوته مكتبة الاسكندرية الوحيدة فى عصرها ٠

« انه لمن المعلوم تماما انه ليس ثمة احد فى رومة له من المعرفة مايؤهله لان يعمل بوابا لتلك المكتبة ٠٠ وانى لنا ان نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا ٠٠ ان فاقد الشىء لايعطيه هذا ماقاله متحسرا من يعرف الحقيقة تمام المعرفة ، اعنى به « جربرت فون اورياك » الذى ارتقى كرسى البابوية فى رومة عام ٩٩٩ ميلادية باسم البابا سلفستروس الثانى ٠

وفى هذا العام نفسه نشر ابوالقاسم مبادىء الجراحة التى ظلت شائعة لقرون عدة ٠ وشرح البيرونى ارسطاطاليس العرب للفكر العالمى دوران الارض حول الشمس ، واكتشف الحسن بن الهيثم قوانين الرؤية واجرى التجارب بالمرايا والعدسات المستديرة والاسطوانة المخروطية ٠

وبينما كان العالم العربى يسرع فى هذا العام نحو قمة عصره الذهبى وقف الغرب مذهولا وقد تولاه الفزع يترقب نهاية العالم عما قريب ، ويعظ القيصر الشاب اوتو الثالث وهو ابن عشرين ربيعا الناس فيقول : « والآن سيأتى المسيح ويحضر النار ليقتص من هذا العالم » ٠٠

وبينما اوتو الثالث يتشدق بهذه الكلمات الجوفاء كان ابن سيناء ، وهو حينذاك ايضا فتى فى العشرين من عمره ، قد بدأ يملأ الدنيا بانباء انتصاراته العلمية الباهرة ٠

كيف حدث هذا ؟

ان هذه القفزة السريعة المدهشة فى سلم الحضارة التى قفزها ابناء الصحراء ، والتى بدأت من اللاشىء لهى ظاهرة جديرة بالاعتبار فى تاريخ الفكر الانسانى ، وان انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التى جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة فى هذا العصر لفريدة فى نوعها لدرجة تجعلها اعظم من أن تقارن بغيرها وتدعونا هنا أن نقف هنيهة

متأملين .. كيف حدث هذا ؟ وكيف أمكن لشعب لم يمثل من قبل دورا حضاريا او سياسيا يذكر ان يقف مع الاغريق فى فترة وجيزة على قدم المساواة ؟

ان ما حققه العرب لم تستطع ان تحققه شعوب كثيرة اخرى تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا .. بيزنطية ، وريثة الحضارتين الشرقية والاغريقية بقيت على جهالتها مع انها بلغتها اليونانية كانت اقرب الناس الى الحضارة الاغريقية والسوريون وهم تلامذة الاغريق كان لهم من الحضارة قبل الاسلام حظ وفير ولقد نقلوا عن طريق الترجمة كثيرا من اعمال الاغريق الى لغتهم ولكنهم أيضا ، كبيزنطية ، فشلوا فى أن يجعلوا مما اقتبسوه عن الاغريق بذرة لحضارة تزدهر كما فعل العرب فيما بعد .

ولم تكن فارس التى اقتبست من حضارات الصين والهند والاغريق بأسعد حظا من بيزنطية أو سورية ، وبرغم تحسن الحالة الاقتصادية فى تلك البلاد ورعاية الدولة للعلوم والعلماء فانه لم يتح لحضارة تلك البلاد ان تصبح حضارة مبتكرة مؤثرة الا فى جو عقلى آخر وفى ثنايا حضارة أنجح هى الحضارة العربية .

لم يأت خلفاء الاغريق على عرش الحضارة من بيزنطية او من سورية ، ولم يأتوا من فارس حلقة الاتصال بين حضارتى الشرق والغرب ، بل أتى سادة الحضارة الجدد من قلب الصحراء الجدباء ليتبوأوا فجأة مركز الزعامة بين حضارات العالم بلا منازع مدة ثمانية قرون وبهذا ازدهرت حضارتهم اكثر من حضارة الاغريق انفسهم .

وماهى المقومات ؟

الان يطرح علينا السؤال نفسه طالبا منا اجابة شافية : ما هى المقومات التى احتاجها هذا الشعب ليبعث مثل هذا البعث ؟ وماهى العوامل التاريخية والاجتماعية والفكرية التى كان لابد لها أن تجتمع لتخلق هذه المعجزة التى حققها العرب ؟

ان انتصارات العرب وفتوحاتهم التى لاتقارن قد خلقت لهم عالما ثبت اقدامهم فخلقوا بذلك آخر موجة قوية للهجرة عبر حدود الصحراء الى البلاد الخصيبة المجاورة ، تلك الهجرات التى بدأت وتكررت متوالية على مر التاريخ ٠

الاسلام

وتمضى المؤلفة تقول : قبل الاسلام كان تحطيم سد مأرب عام ٥٤٢ ميلادية ، ونضوب منابع المياه فى الجنوب العربى قد دفعا القبائل للهجرة ٠٠ وزج بهم الصراع الناشب بين اكبر دولتين فى ذلك العصر — نعنى فارس وبيزنطة — الى الانتشار فى أقطار بعيدة ، ولم يكن اولئك العرب بقطاع طرق او قتلة كما يصورهم بعض المؤرخين المعادين للعرب على غير حق ٠ ثم جاء الاسلام فجمع هذه القبائل المتنازعة المفككة ليجعل منها فى سنوات قلائل شعبا عظيما ، آخت بينه العقيدة ، وربطت عناصره المحبة فتهافتوا جميعا على مناصرة الدين الجديد وتناسوا خلافاتهم وساروا طرا يدا واحدة ، يحدو كل فرد منهم أمل باسم مشرق فى ان تكتب له الشهادة فى سبيل الله ،٠وبهذا الروح القوى الفتى شق العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة ٠٠ وضع اساسها الرسول بنفسه وظلت دائما مسؤولة امام الحكومة المركزية مباشرة فكان النصر للعرب على اعدائهم المتفوقين عليهم فى العدد والعتاد ٠٠ أوليس فى انتصاراتهم السريعة المتلاحقة اكبر دليل على اثر ذلك الروح الجديد الذى سرى بينهم ؟ أوليس فى هذا الايمان تفسير لذلك البعث الجديد ؟

والفتوحات !

وعندما توفى الرسول عام ٦٣٢م كانت الجزيرة العربية قد توحدت سياسيا ، ولم يأت عام ٦٣٥م الا وقد هزم الجيش البيزنطى ٠٠ وبعد عامين فقط وفى معركة واحدة تقوضت دعائم دولة الفرس وهدت امبراطوريتهم ، ولم يحن عام ٦٣٨م الا وفلسطين فى ايدى العرب كما

تمكنوا سنة ٦٤٢م من ان يفتحوا مصر ٠٠ وبموت الخليفة العظيم عمر ، همدت حمية الفاتحين وأصبح حظ الفتوحات من النجاح متقلبا : غير ان الفتوحات وصلت على الرغم من هذا ، فى نهاية هذا القرن ، حتى شواطىء المحيط الاطلسى ٠

وعلى هذا النحو تتابع الدكتورة (زيغريد هونكة) حديثها الى ان تقول :

ولعل من اهم عوامل انتصارات العرب هو مافوجئت به الشعوب من سماحتهم ، حتى ان الملك الفارسى « كيروس » قال : « ان هؤلاء المنتصرين لايأتون مخربين ! » فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية ان هو الا مجرد اسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الادلة القاطعة عن تسامحهم وانسانيتهم فى معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة ! ٠٠ والتاريخ لايقدم لنا فى صفحاته الطوال الا عددا ضئيلا من الشعوب التى عاملت خصومها والمخالفين لها فى العقيدة بمثل مافعل العرب ٠ وكان لمسلكهم هذا أطيب الاثر مما اتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الاغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها فى فرض ارادتها بالقوة !

انتشار الحضارة العربية ٠٠

صحيح ان هذه الامبراطورية العربية قد انقسمت بعد مدة وجيزة من الزمن الى دويلات لكن ذلك لم يكن ليمنع الحضارة العربية ذات المحتوى الخاص ، والمعالم المميزة من أن تفرض سيطرتها على تلك الشعوب المتباينة فى مصر واسبانية والعراق وغيرها ٠٠ أو ليست هذه معجزة تضاف الى المعجزات التى حققها العرب ؟

لقد كانت تلك الشعوب وحضارتها فى خريف العمر ، ولم يعد فى الامكان وقف انهيارها خاصة وقد عمل رجال الدين والكهنة المسيحيون على مقاومة تلك الحضارات الوثنية غير المسيحية ولو لم يخلق ابناء الصحراء فى زمن وجيز من هذه البقية الباقية من بصيص النور الواهن

المشرف على نهايته شعلة وضاءة لأدركت تلك الحضارات نهايتها الحتمية ٠٠ ولكن ، أو لم يحدث مثل ذلك للبقية الباقية من حضارات شمالي البحر المتوسط دون أن يكون له مثل النتيجة التى كانت لتدخل العرب بل بالعكس اذ يمكن القول بأنه كان من نتيجة حلول الظلام الدامس على تلك الربوع ، وترعرع الجهالة الحمقاء فيها ؟

وتستطرد المؤلفة وهي تواصل حديثها ٠٠ الى الفتح العربي الاسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص ثم ما تردد حول موضوع حرق مكتبة الاسكندرية باشارة من عمرو تقول المؤلفة : « وعندما دخل العرب الاسكندرية عام ٦٤٢ م ، لم يكن هناك منذ زمن طويل ، مكتبات عامة كبيرة ٠٠ وأما ما اتهم به قائدهم عمرو بن العاص من احراقه لمكتبة الاسكندرية ٠٠ والذي يعبر به حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية ٠٠ فقد ثبت فى اكثر من مناسبة ، وبعد أبحاث مستفيضة ٠٠ انه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة ٠

إلى أن تقول : « ان عمرا فاتح الاسكندرية ، هو نفسه عمرو الذى ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته ، وحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده ، وعمل ماكان غريبا عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة ، واليك نص نموذج عقود الصلح مع الشعوب المنهزمة على تلك المعانى :

« هذا الاتفاق يشمل كل الرعايا المسيحيين ، كهنة ورهبانا وراهبات ويضمن لهم الحماية والامن اينما كانوا حسب مشيئتهم وبالمثل يحمى كنائسهم ومساكنهم وأماكنهم المقدسة وكذلك يحمى من يزور تلك الأماكن من جورجيا أو الحبشة ، يعاقبة كانوا أم نساطرة ، ويحمي كل من يؤمن بالنبى عيسى ، كل هؤلاء يجب مراعاتهم لأن الرسول قد كرمهم فى وثيقة تحمل خاتمه نبهنا فيها أن نكون معهم رحماء ٠٠ وان نضمن لهم أمنهم » ٠

هذه صورة حية لتسامح المسلمين ٠٠ وسماحة عمرو ٠٠ وهى

ليست بالوعود الجوفاء ، فقد احترمها المسلمون نصا وروحا ٠

« لا اكراه فى الدين » هذا ما أمر به القرآن الكريم ، وبناء على ذلك فان العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول فى الاسلام ٠ فالمسحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الاسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وافظعها سمح لهم جميعا دون أى عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم ٠٠ وترك المسلمون لهم بيوت عباداتهم واديرتهم وكهنتهم واحبارهم دون ان يمسوهم بأدنى أذى ! ٠٠

أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى ؟ ، ومن ذا الذى لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ ٠٠ وبعد فظائع الأسبان واضطهادات اليهود ؟ ٠

ان السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم فى شؤون تلك الشعوب الداخلية ، فبطريرك بيت المقدس يكتب فى القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب : « انهم يمتازون بالعدل ولايظلموننا البتة ، وهم لايستخدمون معنا أى عنف » ٠٠

٠٠ لم يكن ثمة اكراه من سلطة ، يدخل بين هذا أو ذاك ٠٠ ولكنها الحاجة دفعتهم الى هذا التشبه الكامل ليدخلوا فى عالم أولئك العرب ٠ وكان المسيحي او اليهودى يشعر بالفخر والعزة اذا حمل اسما عربيا ماوسعه الشعور فيما عدا اسماء المؤمنين المميزة كمحمد ٠٠ وعبدالله ٠٠ واستطاع العربى بايمانه العميق ان يكون ابلغ سفير وداعية لديانته لا بالتبشير وايفاد البعثات وانما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد ٠٠ فكسب لدينه عددا وفيرا لم تكن اية دعاوة مهما بلغ شأنها لتستطيع ان تكسب مثله ٠

طلب العلم عبادة

وتقول المؤلفة الالمانية تحت هذا العنوان : « لقد اوصى محمد كل مؤمن رجلا كان أو امرأة بطلب العلم ، وجعل من ذلك واجبا دينيا ٠

٠٠ وعلى النقيض تماما يتساءل بولس الرسول مقرا : « ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة ؟ » ٠

مفهومان مختلفان ، بل عالمان منفصلان تماما ، حددا بهذا

طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب، و بهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة، والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها.

.. ومن هنا فقط يتضح لنا تماما لماذا احتاجت الحضارة في الغرب ألفا من السنين قبل أن تبدأ في الازدهار تدريجيا، مع أنها كانت لديها فرصة مناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربية بقرنين أو ثلاثة.. وما ان انقضى قرن واحد من الزمان على الفتوحات الاسلامية حتى ازدهرت حضارة العرب وأتت أكلها مكتملة ناضجة.

وتمضي المؤلفة في حديثها عن الحركة العلمية واقبال المسلمين على العلم ثم تقول: ففي كل حقل من حقول الحياة صار الشعار للجميع: «تعلم وزد معارفك قدر امكانك وأينما استطعت، و بأقدام ثابتة ونفوس هادئة مطمئنة تعرف حقها وتؤدي واجبها» أقبل العرب على ما وجدوا من معارف فاغترفوا منها قدر جهدهم، وما رأوا فيه نفعا لهم.

وهم فى احتكاكهم بحضارات الهند وفارس ، والصين يصادفون بين الحين والآخر قطعا متناثرة من حضارات الأغريق او الاسكندرية ولكن كل ماكانوا يجدونه من آثار تلك الحضارات العظيمة كان لايشفى غلتهم ·· لقد ذاقوا حلاوة العلم فازداد شوقهم الى البحث عنه ، ولم يعودوا يرضون بغير العلم والبحث بديلا ·

عملية إنقاذ ذات معنى كبير في تاريخ العالم!

عملية إنقاذ.. وأي إنقاذ، إنه إنقاذ للثقافة.. للعلم.. للكتاب.. لنستمع للمؤلفة إذ تقول:

« الكتاب وسيط في السياسة، والعلم سفير للسلام » .

أين ومتى حدث هذا في التاريخ؟.. قبل العرب أو بعدهم؟ لقد أحاط العرب الكتب بقلوبهم، حتى المؤلفات الفنية الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة.. وكما تطلب الدولة المنتصرة من الدولة المهزومة تسليم أسلحتها وسفنها الحربية كشرط

أساسي لعقد الصلح ، هكذا طلب هارون الرشيد بعد احتلاله لعمورية وأنقره تسليم المخطوطات الاغريقية القديمة وكما يستولى المنتصرون اليوم على المناجم والصناعات الحربية الهامة والأسلحة المدمرة مع مخترعيها نرى المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث ، قيصر بيزنطية يطالب بتسليم اعمال القدماء التى لم تتم ترجمتها بعد الى العربية ·· ويعتبر ذلك بديلا عن تعويضات الحرب ، انها أيضا اسلحة تساهم فى بناء المجد !

·· وأصبح اقتناء المخطوطات التى لم تترجم حتى ذلك الحين هواية الامراء والوزراء وسراة القوم ·· فضحوا بمبالغ طائلة فى بلاد الأغريق واسية الصغرى ، وفى كل مكان وطأته اقدام الاغريق يوما ما ·· عن طريق بعثات العلماء ، او عن طريق عملائهم الخاصين ، أجل لقد دفعوا ثمنا باهظا لما وجدوه باقيا من الآثار العلمية ، وكان قد نجا من أعمال التخريب الفظيعة الشائنة ·

ان ما قام به العرب لهو عمل انقاذى له مغزاه الكبير فى تاريخ العالم ، وان حضارة قد هوت وتحطمت على وشك الفناء أمام أعين صانعيها الذين صار لهم الآن هدف آخر يسعون اليه ولايمت لهذا العالم بصلة ·· فما بقى من هذه الحضارة يجب ان تشكر عليه البشرية اليوم العرب وحبهم للعلم ، ولا يعود لبيزنطية فيه الا فضل قليل ·

·· ولم يكن ما انقذه العرب من ثقافات ليحفظ فى المتاحف والاقبية بعيدا عن النور والهواء ·· كلا ·· ان كل ما انقذوه من الفناء قد خرجوا به من عالم النسيان والتعفن وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلوه فى متناول كل راغب عن طريق ترجمته ، وقد ترجموه ليس الى لغة جامدة غريبة عن الشعب ·· لايفهمها الا الخاصة كاللاتينية فى الغرب منذ القرن الثامن الميلادى ، بل ترجموه الى لغة حية فى كل مكان آنذاك ، هى لغة القرآن وكانت هذه الترجمة هي العماد الثاني الذى قامت عليه الثقافة العربية فكل مسلم يتعلم ويفهم اللغة ·· ولكل مواطن فى الامبراطورية الاسلامية حق الأخذ بنصيب فى تلك النهضة العلمية التى

اتخذت شكلا رائعا فى ذلك العصر ، والتى لم تكن وقفا على طبقة من الشعب دون أخرى ·

العرب والكتب

·· لقد أقبل العرب على اقتناء الكتب اقبالا منقطع النظير يشبه الى حد كبير شغف الناس فى عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون بعد الدمار الذى أصابهم ابان الحرب العالمية ·· فحرمهم طويلا من متع الحياة فأصبحت الكتب هى مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها وأقبل الناس فى البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلا ·

وكما يقاس شراء الناس اليوم بمدى مايملكون من عربات فاخرة مثلا ·· قدر الناس فى ذلك العصر ـ الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادى ـ الثراء بمدى مايقتنى من كتب او مخطوطات ··

ولم يكن الخليفة ، بتشجيع من وزرائه البرامكة : ليهدى الجماهير هدية تتفق مع مزاجهم اجمل من انشائه مكتبة ضخمة فى بغداد عرفت بدار الحكمة · ونمت دور الكتب فى كل مكان نمو العشب فى الارض الطيبة ·· ففى عام ٨٩١ م يحصى مسافر عدد دور الكتب العامة فى بغداد بأكثر من مئة وبدأت كل مدينة تبنى لها دارا للكتب يستطيع عمرو ، او زيد ، من الناس استعارة ما يشاء منها ، وأن يجلس فى قاعدة المطالعة ليقرأ ما يريد ·· كما يجتمع فيها المترجمون والمؤلفون فى قاعات خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم فى أرقى الأندية العلمية ·

فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف فى العراق كانت تحوى فى القرن العاشر اربعين الف مجلد بينما لم تحو اديرة الغرب سوى اثنى عشر كتابا ربطت بالسلاسل ، خشية ضياعها ، ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة فى مدينة « الرى » الى عشرة فهارس كبيرة ، وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه كان لكل مستشفى يستقبل زواره قاعة فسيحة ، صفت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ومرجعا للأطباء ، يقفون منه على اخر ما وصل اليه العلم ··

ولقد جمع ناصر الدين الطوسى لمرصده فى « مراغة » ٤٠٠ الف مخطوطة ٠

وحذا حذو الخليفة فى بغداد كل الامراء العرب فى مختلف انحاء العالم العربي فأربت مثلا ، مكتبة امير عربي فى الجنوب على ١٠٠,٠٠٠ مجلد ٠٠ وروى أنه لما شفى سلطان بخارى محمد المنصور من مرضه العضال على يد « ابن سينا » وهو بعد فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة ، كافأه السلطان على ذلك بأن سمح له ان يختار من مكتبة قصره مايحتاج اليه من الكتب لدراسته وكانت كتبها تشغل جزءا كبيرا من القصر ، وقد رتبت حسب موضوعاتها ، ويكتب ابن سينا عن ذلك الحدث ، فيقول : « وهناك رأيت كتبا لم يسمع أغلب الناس حتى بأسمائها » ٠

وكذلك فعل الوزراء ورجال الدولة فلقد ترك الوزير المهلبي مثلا ، عند وفاته عام ٩٦٣ م مجموعة من ١١٧,٠٠٠ مجلد ، واستطاع زميله الشاب ابن عباد ان يجمع فى مكتبته ٢٠٦,٠٠٠ كتاب ٠٠

٠٠ أين هي اليوم تلك المكتبات الخاصة التى تضم عشرين ، أو ثلاثين الفا من الكتب ، كالتى كان يملكها ابن المطران طبيب صلاح الدين ، أو الكيميائى ابن التلميذ ، او المؤرخ ابن القفطى ؟ كتب لم تكن مطبوعة على الة بل نسخت باليد ، وبذل فيها كاتبوها مجهودا مضنيا دام أشهرا طويلة وأحيانا بضع سنوات ، ولم تكن تلك الكتب رخيصة الثمن ، فقد تقاضى ابن الهيثم مثلا ٧٥ درهما اجرا لنسخ مجلد من مجلدات اقليدس ، وهو مبلغ لايستهان به عاش منه ابن الهيثم ستة اشهر ٠٠ الى ان تقول المؤلفة : « لم يكن المرء ليحسب من الأثرياء ما لم يكن يملك مجموعة من الكتب النفيسة النادرة ٠ ثم تشير الى ما بلغته عناية المكتبات العامة بشراء كل جديد من الكتب والمخطوطات فتقول فى هذا الصدد : « خصصت المكتبة النظامية ٠٠ وهى المدرسة العليا الشهيرة ببغداد سنويا مايعادل مليونا ونصف مليون من الفرنكات الذهبية لشراء الكتب والمخطوطات ٠

وفتحت اللهفة ، على اقتناء الكتب الباب امام مئات الالوف من البشر لكسب عيشهم فأصبح النساخ والخطاطون فنانين مهرة فى فنهم ، ووظفت كل مكتبة او متجر للكتب عددا من هؤلاء وكان اغلبهم من الطلبة او انصاف المتعلمين الذين ارادوا عن هذا الطريق كسب رزقهم ·

وكم رزم من الأوراق ، وليترات من الحبر صنعت من الساج والصمغ العربي استهلكتها الأيدى الدائبة علي الكتابة فى كل عام وكم من جلود امدتهم بها صغار الغزلان والماعز قد استنفدت فى هذا الغرض ، وهكذا أصبحت تجارة الكتب ، تماما كالصيدلية ، هدية قدمها العرب للبشرية ! ·

القسم الثانى

صفحات أخرى مشرقة من كتاب المستشرقة الألمانية « زيغريد هونكة » نمضى معها فى هذا الفصل ··

فى هذه الصفحات تتحدث الينا المؤلفة الالمانية عن المدى الذى بلغه العرب فى عشقهم للعلم ·· وعنايتهم بالتعليم !

ثم نقرأ حديثها عن الاندلس وعن جمال الاندلس ، وعن حضارة الاندلس وشعبها الشاعر ·· كما شاءت هي أن تطلق عليه هذا الوصف الرائع الجميل !

ولا تتردد هذه المستشرقة الباحثة المنصفة وهي تختتم كتابها الضخم عن الشمس التي سطعت من أرض العرب ·· من أرض الاسلام لتضىء بنورها سائر انحاء المعمورة ـ ومنها أوربا لاتتردد فى أن تقول ان كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوربا فى ذلك العصر ـ العصور الوسطي ـ كان مصدرها البلدان الاسلامية

ولنستمع للدكتورة « زيغريد هونكة » :

لو أردنا دليلا آخر على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب ، لكفانا أن نعرف أن نسبة خمسة وتسعين في

المائة على الأقل من سكان الغرب فى القرون : التاسع والعاشر والحادى عشر والثاني عشر الميلادى كانوا لايستطيعون القراءة والكتابة ··

وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه فى شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة ، وبينما امراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة ، وفي الاديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم لدرجة أنه عام ١٢٩١ م لم يكن في دير القديس جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط ، بينما كان هذا كله يحدث فى الغرب ، كان آلاف مؤلفة من المدارس فى القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل الي السواد فوق الواحهم الخشبية ويقرأون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها ، ويجودون ذلك معا بلحن جميل عن ظهر قلب ، ثم يتقدمون خطوة تلو الاخرى فى المبادىء لقواعد اللغة ، وكان الدافع الي كل هذا هو رغبتهم الصادقة فى أن يكونوا مسلمين حقا ·· كما يجب أن يكون المسلم فلم يجبرهم أحد على ذلك ، بل اندفعوا اليه عن رغبة وايمان لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن ·· وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضا ·· فالكتاب المقدس لايجد الناس اليه سبيلا ، اذا استثنينا الكهنة ورجال الدين فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته وعلى خلاف ذلك كانت الحال فى العالم الاسلامي ·· لقد اهتمت الدولة بتعليم الرعية ولم تلبث أن جعلت من التربية واجبا ترعاه فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولي مقابل مبالغ ضئيلة يقدر على دفعها الناس دون مشقة ، ومنذ أن بدأت الدولة تعين المعلمين للمدارس أمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجانا ··

وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجانا ، ويتقاضون مرتبا صغيرا ، ويسكنون في الأدوار العليا فى المدرسة دون مقابل ··· أما في المهاجع فثمت المطبخ والمخازن والحمامات ، وفى الطبقة

الارضية تلتف الفصول وقاعات المكتبة على شكل دائرى ·· وفي الوسط فناء فسيح تتوسطه نافورة ماء ·· هنا يتعلم شباب العرب الطموح القرآن وقواعد اللغة والديانة والخطابة والأدب والتاريخ والجغرافية ، والمنطق والفلك والرياضة ، ويساهم الطــلاب فى المناقشات والمناظرات ، ويعيد معهم دروسهم مساعدون من طلبة الصفوف المتقدمة ، أو من الخريجين ، وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل الدائبة النشاط ، تخرج للجميع شهدا حلوا فيه شفاء للناس ، ولتقدم قادة للعلم والسياسة ··

●●●

ويحدثنا أحد اساتذة تلك المدارس عن رحلة رسمية قام بها فى أحد البلدان العربية فيقول :

« لم اذهب الي مدينة أو قرية الا ووجدت فيها طالبا من طلابي يتبوأ مركزا هاما » ·

·· اما الطريق الذي يسلكه الراغب فى تعلم فرع معين من العلوم والذى يرغب الطالب أن يقوم هو بتدريسه يوما من الأيام فكان يبدأ فى المساجد ·· فلم تكن المساجد مجرد اماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب ·· بل كانت منبرا للعلوم والمعارف ··

·· وحول اعمدة المساجد اتيحت للطلاب دائما فرصة الاستماع الى الاساتذة الزائرين من كل انحاء العالم العربي المترامي الاطراف ·· فلقد كان المتعلمون فى طريقهم السنوى الي مكة لاداء فريضة الحج يغتنمون الفرصة فيزورون مراكز الثقافة الاسلامية الواقعة علي مقربة من طريقهم ، فيستمعون لكبار الاساتذة فى دمشق أو في بغداد ·· ومن أئمة العلماء من زار القيروان أو الجامع الازهر بالقاهرة أو الزيتونة بتونس ليلقى تلك المحاضرات ·· ومنهم المؤرخون والجغرافيون ، ومنهم علماء الحيوان والنبات والباحثون عن تراث الأدب القديم ، وهم جميعا فى حلهم وترحالهم يفيدون ويستفيدون ، ومن شفاه هؤلاء وأولئك كانت الأفكار العلمية الحديثة تنتشر فى كل صوب ·

وكم كان من السهل اثناء نقل مثل تلك الاخبار من فم لآخر ان تسرق النظريات ، والاكتشافات ٠٠ ولكن الأمانة العلمية الحقة منعت هذا ٠٠ فلم يكن العربي يرضى أن يحرق فمه بأفكار سرقها عن غيره ٠٠ فمن يرغب من المعلمين ان يحاضر عن كتاب لغيره وجب عليه أن يحصل أولا على اجازة من مؤلف الكتاب ٠٠ لقد قدم العرب بجامعاتهم التى بدأت تزدهر منذ القرن التاسع ، والتى جذبت اليها منذ عهد البابا سلسفتروس الثانى عددا من الغربيين من جانبي البرانس ، ظل يتزايد حتى صار تيارا فكريا دائما ، فقدم العرب بها للغرب نموذجا حيا لاعداد المتعلمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي ٠٠

لقد قدمت تلك الجامعات بدرجاتها العلمية ، وتقسيمها الى كليات ، واهتمامها بطرق التدريس ، للغرب اروع الأمثال ولم تقدم هذا المظهر فقط ٠٠ بل وفرت له كذلك اللباب : مادة الدراسة !

● ● ●

وتتحدث مؤلفة الكتاب عن الحضارة العربية فى أسبانية ، فتقول : « ازدهرت حضارة العرب فى اسبانية ، وبلغت أوجها برغم انهم لم يجدوا فيها شيئا من الفكر أو الثقافة كما وجدوا فى البلدان الأخرى التي فتحوها مثل مصر وسورية والعراق وفارس ٠٠ تلك البلدان التي مثلت شعوبها دورا كبيرا فى مزج الحضـــارات الهلينية ، والبيزنطية والفارسية ، والهندية ، بالحضارة العربية ٠

إلى أن تقول : « خلال مدة حكمهم ـ حكم العرب ـ التى دامت حوالى ٨٠٠ سنة خلقت الأسر العربية الحاكمة للاندلس حضارة زاهرة ٠٠ وتسابق الأمويون فى قرطبة ، وبنو عباد فى اشبيلية ، وبنو نصر فى غرناطة ، فى بنـــاء صرح الحضـــارة الشامخ ٠٠ بينما كان قسم من البربر والمسيحيين الذين ابوا أن يتعربوا ٠٠ يخربون كل مكان لم يصل اليه العرب !

ثم تقول : « وبالقرب من « قرطبة » زرع الأمير العربي

عبد الرحمن ٠٠ أول شجرة نخيل فى الأندلس فى حديقة قصره الذى بناه على نظام ابائه فى سورية ، وأصبحت تلك النخلة أما لكل أشجار النخيل فى أوروبا ٠٠ وهاهو عبد الرحمن يحدثها فى احدى اغانيه قائلا :

تبـدت لنـا وسـط الرصافـة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغـرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعـن أهلي
نشـأت بأرض انـت فيهـا غريبة
فمثلك فى الاقصـاء والمنتـأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى
يسـح ويستمـرى السمـاكين بالوبل

ويعبر عبد الرحمن سليل البيت الأموى ، وأحـد كبـار شخصياته عن حنينه للوطن دائما بمثل تلك الكلمات ٠٠ لقد ولى الادبار هاربا من النهاية الدامية التى لحقت بالبيت الأموى فى دمشق ٠٠ وقضى خمس سنوات محفوفة بالأخطار فى شمال افريقية الى أن تمكن ذلك الغريب الاعزل ، معتمدا على شجاعته وفطنته وعزيمته التى لاتلين ، من أن يصبح سيدا مهيبا لعرب الاندلس المتنازعين ٠٠

وكما زرع عبد الرحمن شجيرات النخيل فى الاندلس كذلك زرع فن البناء والموسيقى والشعر والحب وتعهدها حتى ازدهرت وخرجت تحمل رسالتها للغرب عبر الحدود !

خلال حكمه الذى دام ٣٣ عاما استطاع عبد الرحمن الأول ان يضع الاسس لأكثر الدول ازدهارا فى العصور الوسطى برغم ان عصره كان مليئا بالحروب ليثبت دعائم دولته الفتية !

زينة الدنيا

وتنتقل المؤلفة الي الحديث عن فترة حكم عبد الرحمن الناصر

فتقول : « عندما يذكر العربي كلمة الاندلس ، وحينما يحلم بجنة الله في ارضه ، لابد له أن يتذكر فترة حكم عبدالرحمن الأكبر من ٩١٢ ـ ٩٦١ م ٠٠ لقد وهب الاندلس فى شخص عبدالرحمن الثالث ، مثالا طيبا لما يجب أن يكون عليه الحاكم ٠

لقد أوجد عبدالرحمن فى الخمسين عاما التى حكمها ، من الأمة المنقسمة على نفسها دينيا وجنسيا ، شعبا متحدا قاد العالم فى طريق التقدم والرقي ٠٠

واستمر مستوى المعيشة فى الارتفاع ، بفضل المجهود الكبير الذى بذل في التعمير وري الأرض ، وعرفت عيون العرب الخبيرة قيمة الكنوز التي يمكن اكتسابها من أرض الاندلس لو احسن الانتفاع فيها ، فحفروا الآبار ، واختطوا السواقي ٠٠ وما فتئت اسماء كثيرة من الأدوات فى الحقل الاسباني تحمل اسماء عربية ولم يترك العرب شبرا من الأرض الا استثمروه ٠

كما اهتم العرب بالمناجم التى ظلت آلاف السنين لاتلمس منذ استغلها الفينيقيون القدماء ، وبدأت صناعات عدة تنتشر فى جميع انحاء البلاد مما لم يكن للغرب فيها أية دراية ٠٠ وجذبت الأجور العالية فى الاندلس الافا من العرب من جنود وصناع وزراع وتجار لينعموا بذلك الرخاء ٠٠ وزاد عدد السكان فى الجزء الغربي من اسبانية عام ٩٥٠ م على ٣٠ مليون نسمة ، وانتشرت حول قرطبة آلاف من القرى وقد عمها جميعا رخاء وازدهار !

٠٠ واحتذى سراة القوم حذو خليفتهم فأنشأوا آلاف القصور فى كل انحاء البلاد كما اقاموا العديد من الحدائق العامة حيث يستظل الناس تحت اشجار الزيتون والنخيل والعنب والسرو ٠٠

٠٠ وبينما « جريدة كولونيا الالمانية » تصف اضاءة الشوارع بمصابيح الغاز فى عددها الصادر يوم ٢٨ مارس ١٨١٩ م بانه شر مستطير ٠٠ كانت شوارع قرطبة حوالى عام

٩٥٠ م تزدان بثمانين الف متجر ٠٠ وتضاء ليلا بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل ، وتباشر فيها اعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التى تجرها الثيران ٠٠ ومضى على ذلك قرنان من الزمان قبل ان تتخذ باريس عام ١١٨٥ م من قرطبة مثالا لها فترصف شوارعها وتنظفها ومضى قرن آخر قبل أن تحذو المدن الأوربية حذو باريس ، ومما لاشك فيه أن تلك الأمثلة العربية الحية كانت مثار اعجاب الزوار المسيحيين للاندلس ، وانهم قد نقلوها الي بلادهم عبر البرانس ٠٠

وتسجل الراهبة الشاعرة ، « هروزفيتا » وهي فى صومعتها بدير « جاندرزهايم » بسكسونيا ، اعجابها بقرطبة فتقول اغنية جميلة :

« قرطبة المدينة الشابة ، هى زينة الدنيا !
قرطبة شهيرة بجمالها فخورة بقوتها !
قرطبة هي التى حوت كل شيء تزهو به المدن ! »

● ● ●

وكان للحكم الثاني أكبر الفضل فى بدء الحركة العلمية فقد اهتم اهتماما كبيرا بتثقيف شعبه واذا كان أبوه عبدالرحمن اهتم بالسياسة والاقتصاد ، فقد جعل الحكم كل هدفه السير بالاندلس قدما فى طريق العلم والمعرفة ، لتتبوأ أعلى مكانة بين الأمم المتحضرة ولا نعني ان اسلاف الحكم لم يهتموا بالحركة العلمية ٠٠ لقد كانوا هم الذين جعلوا من كل مسجد مدرسة وانشأوا فى كل حى دارا للكتب وزودوها بمئات الالوف من الكتب التى جعلوها فى متناول الجميع ٠٠ ولكننا نعنى ان الحكم قد بلغ الذروة بما قدمه للعلم والعلماء ٠٠ لقد انشأ على سبيل المثال سبعة وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها ابناء الفقراء مجانا ودفع من ماله الخاص اجور معلميها كما ساهم بنفسه فى كل نواحى النشاط العلمي والأدبي فى قرطبة ، واستغل الثروات الضخمة التى تركها له ابوه فى الانفاق

علي الابحاث العلمية وشراء الكتب وانتشر رجاله فى كل مراكز الثقافة الاسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ، ويدفعون أغلى الاثمان بغية الحصول عليها ٠٠ وحكى القوم الكثير عن حب الحكم الجم للكتب ، فيقال انه قد قرأ الاربعمائة الف كتاب التي حوتها مكتبة قصره ٠٠ وانه قد علق عليها جميعا ٠٠ بل وبعث بتعليقاته لمؤلفيها شخصيا ٠٠ والواقع ان الحكم كان حجة فى الأدب والتاريخ ، وجد فيه علماء عصره زميلا كفيا ، وراعيا كريما ، فوفدوا اليه زرافات ووحدانا عبر البحر والصحراء وزخر بلاط الحكم بالعلماء والأدباء من كافة انحاء العالم الاسلامي ٠٠

ولم يكن الحكم الثانى هو حاكم الاندلس الوحيد الذى اهتم بالعلم كل ذلك الاهتمام ، فقد شاركه ذلك المجد عدد كبير من الأمراء ٠٠

شعب من الشعراء !

٠٠ وكان للشعر الذى هو للعربي بمثابة الماء والهواء ، حظ كبير فى الاندلس ، وكان الأمراء أنفسهم شعراء ممتازين ٠٠

٠٠ واستطاعت القصيدة الرائعة دائما أن تحقق المعجزات لدى شعب جعل من الشعر لغة التخاطب ، فاجاده الفلاح اجادة المتعلمين ٠٠ ونظمته الأميرات والخادمات على حد سواء ٠٠ وانسابت روائع القصائد من شفاه الجميع دون مشقة أو جهد ٠٠ صياد السمك يتغنى بالاشعار ، والعامل البسيط يشغل وقت فراغه بنظم الشعر والفلاح يرتجله وهو يسير خلف محراثه ٠

وبين هذا الشعب الذى ألف أطفاله نظم الشعر ، يصعب علينا اليوم أن نتحدث عن شعرائهم فالكل شاعر ، يقرض الشعر ويرتجله ، وجميع الملوك والوزراء ورجال الدولة والبلاد ورجال السيف والقلم قد نظموا الشعر وتغنوا به ٠٠

وحين نتحدث عن شعب من الشعراء لابد لنا أن نذكر الشعب العربي قبل الاسلام ، والشعب العربي فى الاندلس فانه ـ هنا وهناك ـ جعل من الشعر المرتجل لغة ثانية للتفاهم والمعاملة ، اعانهم على ذلك سهولة اللغة العربية فى الوزن والقافية ٠

والشعر العربى ظهر فجأة حوالى ٥٠٠ م فى صور فنية كاملة متميزة ، ولا ندرى نحن اليوم مصدر تلك الحـركة الادبيـة المفاجئة ٠٠ على أنه من المؤكد ان اللغة نفسها بكلماتها المنغمة قد مهدت السبيل لذلك ٠٠

٠٠ ويتميز الشعر العربي ، بالعواطف والمشاعر الحية التى تتكامل حباتها كعقد من اللؤلؤ واللغة العربية الزاخرة بألفاظها ذات النغم الجميل تساعد البدوى الساذج على صياغة أرقى المشاعر البشرية فى قالب جذاب ٠٠ والبدوى بحكم ظروفه وبيئته نافذ البصيرة ، ولغته العربية هي لغة غنائية ٠٠ حافلة بالتعابير الذاتية المتأتية عن انطباعات ومشاعر متماسكة تماسك اللآلىء فى عقد جميل ، لذلك نرى أن النزعة الغنائية تسيطر على الشعر العربي سيطرة تامة ، كما هي الحال عندنا في أوربة هذه الأيام ، حيث اندثرت الملاحم ٠٠

ومن ناحية أخرى فان اللغة العربية لغة مطواعة فى الفاظها الى درجة نجدها فيها تدعو الى نظم العواطف والمشاعر ، شعرا ٠٠ وانه لمدهش حقا أن نرى البدوى الساذج والمحارب الباسل يتمتعان بمفردات قادرة على التعبير عن اشياء وحاجات من جميع الزوايا والانحاء ٠

وتمتعت المرأة العربية بمكانة عالية فى المجتمع ٠٠ وكان منهن الشاعرات والباحثات فى العلوم وتلقين العلم وسجل لهن تاريخ الاندلس صفحات من المجد ٠

وكان أثر الاسلام على كل ناحية فكرية أو مادية في تلك البلاد هو الأساس الذى قامت عليه حضارة اسبانية ..

.. وقد حمل مشعل الحضارة العربية عبر الأندلس الوف من الاسرى الاوربيين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرها من مراكز الثقافة الاندلسية .

.. وانتهت سيادة العرب على اسبانية عام ١٤٩٢ م .. وبانتهاء تلك السيادة العربية انتهت أعظم حضارة عرفتها أوربة فى القرون الوسطى .. وانتهى عصر نعمت فيه اسبانيا بالرخاء والخير العميم فارتفعت صناعاتها ، واستغلت مواردها وزاد عدد سكانها وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون بدرجة لم تعرف لها مثيلا .

وتتساءل المؤلفة فى خاتمة كتابها – وهي تشير الي شارل مارتل الذى يوصف فى الغرب بأنه منقذ الغرب من سيطرة الحكم الاسلامي في الاندلس ، تتساءل وتقول :

هل فكر شارل حين هاجم المسلمين بجنوده أن يكون كما يدعي بعضهم منقذا للغرب ؟ ثم تجيب على ذلك بقولها : الحقيقة ان شارل لم يخطر بباله شيء من هذا .. بل لقد ذهل حين أخبر في الصبح بعد معركة غير فاصلة أن المسلمين قد انسحبوا ، ولم يحتفل شعب شارل به قط كمنتصر على العرب .. وانما احتفلوا به بوصفه قد أحرز النصر على القبائل الالمانية ، ولم يعر خلفاؤه معاركه عند بواتييه وافينيون ونيم ومراسيليه وتربونه أى اهتمام يذكر .

ولم تر الكنيسة فى أعمال شارل وانتصاره فى « بواتيه » اية

بطولة أو حماية للمسيحية من أى نوع كانت .. بل رأت في ذلك لعنة الله تحل عليه كسارق لأموال الكنيسة .. استباح أموال الأديرة لتسليح واعداد جنده الذين اشتركوا معه في القتال .

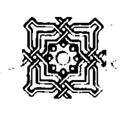
ثم تقول المؤلفة الالمانية بعد هذا : الا نبالغ نحن اليوم فى تصوير ماحدث عند بواتيه !

ان مؤرخا بلجيكيا يرى أن ماحدث لم يكن له من نتيجة سوى منع اتساع رقعة دولة العرب فى الاندلس ٠٠ هذه هي الحقائق الثابتة ، اما ماذا كان يمكن أن يحدث للغرب لو لم يقف زحف المسلمين فهذا سؤال لايستطيع التاريخ أن يجيب عليه ٠٠ لانه لم يحدث فعلا ٠٠ والتاريخ لايخمن ولا يفترض الافتراضات ليبني عليها نتائج لم يكتب لها الوجود ٠

٠٠ ان التاريخ لا يهتم بماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هذا قد حدث ، أولو أن ذاك لم يحدث ٠٠ ان التاريخ أعمق وأدق من أن يسبح فى الخيال فواجبه الأول هو الاهتمام بالحقائق ٠٠

« فكل موجة علم أو معرفة قدمت ـ لأوربة ـ في ذلك العصر كان مصدرها البلدان الاسلامية »

« ولقد كان ظهور الاسلام وتوسعه عاملا انقذ الكنيسة من الانحدار » ٠٠ « ولعل أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي فى تأخره ثقافيا واقتصاديا طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الاسلام ولم يواجهه ٠٠ ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته الا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا وتجاريا ٠٠ واستيقظ الفكر الأوربي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية ٠٠ من سباته الذى دام قرونا ليصبح أكثر غني وجمالا ، وأوفر صحة وسعادة ٠



الصَّحافة

رسالة . استعداد . فن . علم

الدكتور خليل صابات

ماهى الصحافة ؟ كيف تصنع الصحيفة ؟ كيف تصبح صحفيا ؟ ما مستقبل الصحافة ؟ ماحظها من النجاح ؟ وما الأخطار التي تحدق بها فى هذا العصر المتقلب الذى نعيش فيه ، ماهو الدور الذى يجب على الصحافة أن تقوم به ؟ وعلى أى القوانين يجب أن تسير إن أرادت أن تظل أمينة على رسالتها التى تقتضي منها أن تبحث عن حقيقة الأحداث الجارية وترددها ؟

هذه هى النقاط الرئيسية التى يحاول معالجتها مؤلف هذا الكتاب ·· فما هي الصحافة ؟

يقول المؤلف : يجيب على هذا السؤال المعجم الوسيط الذى يصدره مجمع اللغة العربية استخدام كلمة (الصحافة) للدلالة على معنيين : معنى مقابل لكلمة (جورناليزم) أى المهنة الصحفية ومعنى مقابل لكلمة (برس) أى مجموعة مانشر في الصحف وقد فرق المعجم بين هذين المعنيين فدل على الأول بلفظ الصحافة ـ بكسر الصاد ـ كالصناعة وعلى الثاني بلفظ الصحافة ـ بفتح الصاد ـ ··

وقد اختلف موقف الناس من الصحافة فمنهم من كان رفيقا بها ومنهم من ناصبها العداء ·· فنعتوها باسوأ النعوت ·· وينتمي أمير الشعراء « أحمد شوقى » إلي الفريق الأول فقد قال فيها :

« لكل زمان مضى آية ·· وآية هذا الزمان : الصحف « لسان البلاد ، ونبض العباد ــ وكهف الحقوق ، وحرب الجنف »

ولا يمكن لانسان أن ينكر الأثر الذى تتركه الصحف فى الحياة الحديثة ، وهي لاتزال « على الرغم من انتشار الاذاعة ·· أقوى وسيلة في التأثير على الرأي العام الذى يحتل اليوم مكان الصدارة ، ان المجتمعات الحديثة عامة ، والمجتمعات ذات الطابع الديمقراطى خاصة تنزل الصحافة المكانة اللائقة ··

·· ماهى الصحافة ؟ هل هى حرفة أو فن ، أم انها صناعة ؟ فى الحقيقة هى كل ذلك فى آن واحد ، وبنسب تختلف حسب استعداد المحررين وميلهم ، وكذلك حسب الظروف التى يعملون فيها ··

ولقد عرف « ويكهام ستيد » ــ أحد كبار الصحفيين المعاصرين والذى عمل رئيسا لتحرير جريدة « التايمز » الصحافة تعريفا نورده فيما يلي :

« الصحافة هي أكثر قليلا من الحرفة ·· وهي شيء يختلف عن الصناعة ··· فهي بين الفن والمرفق العام »

وصرح الأستاذ محمد على علوبة بأن الصحافة ليست تجارة ·· وبعبارة أخرى ليست حرفة ·· انما هي مرشدة ، ومربية للروح الوطني والسياسي والأدبى » ·

ألا يفهم من ذلك أيضا ــ يقول المؤلف ــ ان الصحافة هي استعداد طبيعي قبل كل شيء ، وانه يكاد يكون من البديهي اننا نولد ولا نصبح صحفيين ·· ؟

ما هي المميزات الرئيسية للصحافة ، وما هي وظائفها ؟ قدم التعريف العلمي للصحيفة أحد الصحفيين البارزين « اوتوجروث » الذى كان رئيسا لتحرير « فرانكفورتر زيتونج » وحسب هذا التعريف أن الصحيفة نشرة تطبع آليا من عدة نسخ ، وتصدر عن مؤسسة اقتصادية ، وتظهر بانتظام فى فترات متقاربة

أقصاها أسبوع ، ويشترط فى هذه النشرة المطبوعة أن تكون ذات طابع عالمي ، وذات فائدة عامة ، تتعلق على الخصوص بالاحداث الجارية ، كما يشترط فيها أيضا أن تنشر الاخبار ، وتذيع الأفكار ، وتحكم على الاشياء ، وتعطي معلومات بقصد تكوين جمهورها ، والاحتفاظ به »

صحف الرأى وصحف الخبر :

٠٠ وكانت الصحف حتى العصور الحديثة صحف أخبار قبل كل شيء ٠٠ وظل الخبر في القرن التاسع عشر وحتى اليوم العنصر الرئيسي فى الصحف ٠٠ الا أن الصحيفة لم تبق مقصورة على نشر الأخبار ٠

٠٠ ونمت صحف الرأى بنمو الديمقراطية وانتشارها في البلاد ، وبانخفاض عدد الأميين وكل ذلك بفضل تقدم التعليم العام ٠٠ ويخطىء خطأ فاحشا من يعتقد بأن الصحف المحررة تحريرا جيدا أى التى تجمع أكبر عدد من الكتاب المشهورين هي التي يقرأها أكبر عدد من الناس ٠٠ ان أمرا واحدا يجذب الجمهور الى الصحيفة وهو الفضول ٠٠ وشيئا واحدا يحتفظ به وهي العادة ٠٠ ولكن العادات ليست واحدة ، والفضول يختلف نوعا ودرجة بين قارىء وآخر ، وأفضل الصحف اعدادا هى الصحيفة التي تعنى بما يهتم به كل قارىء ٠٠ والتى تقدم الأخبار والأفكار ، وما يضحك وما يبكي ٠٠ ولا يمكن للصحيفة مهما تبلغ من صرامة ان تهمل نشر الموضوعات الطفيفة ٠٠ كما ان الصحيفة التى لاتعنى الا بالسياسة لابد لها أن تحيط قراءها بكل حوادث البوليس ٠٠ ولكي تعيش الصحيفة يجب أن تدار ادارة تجارية بحيث تكون ايراداتها مساوية لمصروفاتها ولا يتم لها هذا الا ان توصلت الي طبع عدد ضخم من النسخ ، وبيعه ومواجهة أبواب المصروفات المختلفة كالمرتبات والأجور والمطبعة والمباني والشحن

والنقل الخ · وان الصحيفة التى تتجاهل هذه الحقيقة لن تلبث أن تفلس وتغلق أبوابها ·

يتساءل المؤلف : ماهى الصفات التى يجب أن تتوفر فى الشاب الذى يرغب في أن يكون صحفيا ناجحا ؟

ثم يقول : لايزال عدد كبير من الناس يجهل حقيقة هذه المهنة ، وسبب هذا الجهل انهم يرون الصحفيين فى المآدب والحفلات الساهرة ، والاحتفالات العامة ، كما يجدونهم فى المقاعد الأولى في المباريات الرياضية ، فيخيل اليهم أن العناية اختارتهم لينعموا بمباهج الحياة ، وليذوقوا حلوها دون مرها · ولا يدفعون قرشا واحدا مقابل هذا النعيم المقيم !

·· ولكن الواقع يختلف عن ذلك كثيرا ، فالصحفى يذهب الي المآدب مضطرا ·· وبينما يعود المدعوون الي بيوتهم بعد أن أكلوا وشربوا ·· يسرع الصحفى الى مكتبه ليكتب مشاهداته وملاحظاته ويستأنف عمله الليلي المضني ·· ان الامتيازات التى تمنح له لاتعد شيئا بالنسبة للخدمات التى يطالب بادائها ··· والحقيقة ان الصحافة مهنة كثيرة المطالب ، من يحترفها يضحى بوقته ، وراحته وأصحابه ، من غير أن يدرى به أحد ·· لقد مضى العهد الذى كانت الصحافة تعتبر فيه الملجأ الاخير لكل فاشل فى الحياة ·· فلم يعد هناك مكان في الصحافة للفاشلين ولا للهواة المترفين !

ويقول الاستاذ محمد زكي عبدالقادر : « ان الصحافة لاتغلق بابها فى وجه أحد ، ولكنها فى الوقت نفسه لاتفتحه لأحد فعلى الراغب القادر الكفء أن يفرض نفسه عليها فرضا ·· وان يفتح بابها فتحا ·· انها مهنة تبدو متخمة فى كل وقت ، وجائعة في كل وقت ·· »

ويقول المؤلف : « وتتطلب مهنة الصحافة صفات متعددة متنوعة ، فالشخص الذى لا مبدأ له لا يصلح ان يكون صحفيا ··

والشخص الذى لا أخلاق له يفسد المهنة ‥ ولابد للصحفى بالاضافة الى هذا وتلك ، من أن يتدرب على الاعمال التى يقوم بها ، وان يكون واسع الاطلاع ‥ عارفا كل مايدور حوله ‥ وعلى الشاب المبتدىء أن يضع نصب عينيه ان الصحافة مهنة شاقة ‥ مهنة لاتعرف الراحة ، ولا تعترف بها ‥ فان قبل بهذا الشرط ، أمكنه ان يخدم فى بلاطها ، ولا يكفي ان يقول المبتدىء : انى حاصل على ليسانس الصحافة أو دبلومها العالي ‥ وهذا مايؤهلني لأن أصبح صحفيا ناجحا ٠ ان الصحافة استعداد قبل كل شيء ، والشخص الذى لايشعر فى نفسه بهذا الاستعداد لايمكن أن يكون صحفيا ناجحا ‥ حتى لو درس الصحافة وعلومها وفنونها في أكبر الجامعات وأشهرها ‥

‥ ان أول سؤال يوجه لهؤلاء الذين يرشحون انفسهم ليكونوا صحفيين هو : هل خلقتم لتكونوا صحفيين ؟ هل أنتم متأكدون من أنكم تحملون فى صدوركم شعلة الصحافة المقدسة ؟ هل تشعرون بحاجتكم الملحة الي التعبير عما تجيش به أنفسكم وعما تعتقدون انه الحق ؟ هل لديكم الصفة الاساسية التي تسمى « الاحساس » بما يريده الجمهور ، التي تجعل صاحبها يميز بين مايميل اليه القارىء فيكثر منه ‥ وبين مايضايقه فيمتنع عن نشره ‥ ؟ هل فى استطاعتكم أن تمتنعوا عن نشر موضوع يهمكم ولكنه لايهم القراء ؟ هل فى امكانكم ان تعرفوا متى يجب الكف عن الكتابة فى موضوع معين حتى لايمله القراء ؟ ان لم تكن تلك الصفات متوفرة لديكم فحذار من أن تختاروا الصحافة مهنة لكم ‥ اتركوها وشأنها ، ووجهوا أنفسكم وجهة أخرى !

ان الصحافة مهنة لاتعرف الشفقة ولا الرحمة ‥ انها المهنة التى لا تقبل الضعاف والبلداء وان حدث وقبلتهم خطأ اسرعت الى نبذهم حتى لايكونوا عالة عليها ‥ انها المهنة التى لاتعترف بالوساطة ‥ والصحفى الخليق بهذه التسمية هو الذى

يتفرغ للصحافة ويلتقط الاخبار ويقدمها لصحيفته ٠٠ هو الذى لايعمل الا لأجل صحيفته ٠٠ ويجول العالم سعيا وراء هذا الهدف ، هو الذى يظل ساهرا على عمله ليخرج الي القراء الصحيفة التى يريدونها لأنفسهم ، ويريدها هو لهم ويجب الا يتبادر إلي ذهن الصحفى الناشىء ان الصحافة هي مجرد كتابة مقالات ، وتذييلها بامضاء صاحبها ٠٠ والا خاب ظنه حينما يبدأ عمله ويجد أن المقالات وقف على عدد محدود جدا من الصحفيين الذين قضوا فى المهنة السنوات الطوال ٠٠ على المبتدىء ان تكون لديه حاسة الشم الصحفى ٠٠ وهذه تقوم بأن يدرك بالغريزة مايهم الجمهور ، ويلتقط بسرعة ماهو جدير بالنشر ، ويجيد فن التقديم ويظهر مايستحق الظهور من أحداث العالم ، وأحداث مدينته ووطنه ، ان هذه الصفات مجتمعة لابد منها لكل من يريد ان يتخذ الصحافة مهنة له ٠٠

٠٠ ان الصحافة لاكثر المهن اتصالا بالحياة ، وعلى الرغم من أن الطبيب والمحامي والتاجر على صلة وثيقة ودائمة بالحياة فانهم لايرون الا بعض مظاهرها ولا يعرفون تمام المعرفة الا جانبا من بوادرها ، غير أن الصحافة تحتوى على الحياة بجميع مظاهرها وتعكس حلوها ومرها ، والتغييرات التى تنتابها فى كل لحظة ، مما يجعلها ذات سحر واغراء ٠٠ لابد للصحفى اذن أن يكون لديه الاحساس المرهف بالحياة والقوة الدافقة التى تضفى الحياة على مايكتبه ٠٠ ان الشاب الذى لايشعر بهذه الموهبة ، وبهذا الحب للحياة ٠٠ يجب عليه الا يدخل هذه المتاهة المعقدة التى لايعرف أولها من آخرها ٠

٠ ويتحتم على الصحفى كذلك ان يفهم الناس ويحبهم كما هم ولا يغرب عن باله انهم ليسوا ملائكة ٠٠ ولكنهم ليسوا شياطين ، عليه ان يحبهم بتناقضهم وبضعفهم وبفضائلهم التي كثيرا ماتكون مستترة ٠٠ وعليه أن يكون انسانا بكل ما في الكلمة من معنى ،

ودون هذه الانسانية التي تنم عن حسن الادراك والرحمة لن يحبه القراء الا بصعوبة ولن يكسب ثقتهم ٠

ان الصحافة رسالة قبل أن تكون مهنة ، والصحفى الناجح هو الذى يؤدى هذه الرسالة على خير وجه ٠٠ مضحيا بكل شىء فى سبيل المبدأ الذى يعمل له عن اقتناع وايمان !!

٠٠ ولن يكتب النجاح لمحرر الا اذا كان يحب مهنته بكل قواه ٠٠ ويعتبر صحيفته التى كرس لها حياته جزءا لايتجزأ منها ، فالى أمثال هذا المحرر تلجأ الصحيفة فى الظروف المفاجئة ، خبر غير منتظر ٠٠ موت عظيم مثلا ـ فهذا يتطلب مساحة فى صفحات مليئة بالاخبار والمواد الأخرى فعلى المحرر القائم بالعمل أن يكتب بسرعة بضعة أسطر تصف حياة ومآثر الراحل أو تشرح باقتضاب حدثا هاما ، وقع فى التو واللحظة ، وتقتضى هذه المهمة من صاحبها الا يتباطأ أو يتردد ، اذ ليس لديه الوقت الكافي للبحث والتدقيق ، ووزن الأمور بميزان دقيق ٠٠ ان ردود أفعاله يجب ان تكون سريعة ، كما لابد له ان يتخذ قراراته خلال بضع ثوان ٠٠ فاذا سها أو نسي فعذره أنه يعمل فى جو مكهرب وان الدقائق التى تعد على أصابع اليد الواحدة والتى تفصل بينه وبين موعد دوران الطابعة الروتاتيف كانت السبب فى هذا السهو الطفيف ، او النقص الذى يمكن ان يكمل فى الطبعة التالية ٠

ولما كنا نتحدث عن مناهج عمل الصحفيين ، فان أفضل نصيحة تقدم لمن يريد ان يتخذ الصحافة مهنة له الا يكتب لنفسه ، ولايكتب مايرضي شخصيته وذوقه ٠٠ ولايكتب بدافع الظهور وحب المجد الفارغ ! ! ليكون موضع اعجاب ٠٠ بل يكتب للجمهور الذى يقرأه ليفهمه أكبر عدد من الناس ٠٠ وعندما يقوم صحفى بمعالجة موضوع ما ٠٠ يجب عليه ان يتطلب الجوهر دون العرض ٠٠ وأن يسبر غور الموضوع ، وان يركز ويحذف ما لافائدة منه وأن يعمل جاهدا على توضيح المسائل المعقدة ٠

ان قلم الصحفى يمتاز علي غيره من الأقلام بالسرعة ،

والوضوح ، والبساطة وبأنه يتحدث بجرأة حديث الصديق الي الصديق ٠٠ حديث من لايعتمد علي المحسنات اللفظية ، ولا على الطريق الذى يجب ان يسير عليه ، ولانعنى بالسرعة والايجاز ان نحرض الصحفى على الكتابة لملء الفراغ ٠٠ وذلك لأن القارىء يلقي عادة نظرة خاطفة على صحيفته فلا يتعمق فيما يقدم له من مواد ، ان الصحفى السطحى سوف يكشف امره ٠٠ ولسوف ينفر القراء منه ٠٠ ولايلبث ان تستغنى عنه صحيفته لانه لايقدر المسؤولية ولايفهم الصحافة على أصولها !! ٠

● ● ●

فى فصول متتابعة أخرى يحدثنا المؤلف عن وكالات الأنباء العالمية ، ووكالات الأنباء المحلية ٠٠ وكيف تكافح الأخبار الكاذبة ؟ وحريه الصحافة ٠٠ والصحفى وسر المهنة ٠٠ والصحافة وسيلة من وسائل الدعاية ويتحدث الينا فى الفصل السابع عشر عن كرامة الصحافة واستقلالها ٠٠ وفي ذلك يقول : « لكى تؤدى الصحافة رسالتها على الوجه الأكمل يجب اولا وقبل كل شىء ان تعرف كيف تحافظ على كرامتها ٠٠ فالصحيفة التي ليس لها كرامة لايمكن ان يحترم الجمهور آراءها حتى ولو أقبل على قراءتها ٠٠ ذلك أنه غالبا ما يتعامل معها ليرفه عن نفسه من عناء الحياة وقد اثبتت الاستقصاءات التى أجراها الاخصائيون انه لااثر تقريبا لهذه الصحف على الرأى العام ٠٠ ويسوق المؤلف هنا قصة مجلة مصورة كانت تهاجم الايطاليين اثناء اعتدائهم على اثيوبيا سنة ١٩٣٥ ثم مالبث ان تغيرت الحال اذ اصبحت المجلة المذكورة بوق دعاية للجيش الايطالي ٠٠ وكان ان انفض جمهور القراء عنها بعد ان باعت كرامتها بأرخص الأثمان ٠٠ فتوقفت عن الصدور خلال الحرب العالمية الثانية ٠٠

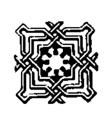
● ● ●

يتساءل المؤلف فى اخر فصل فى الكتاب : ما مستقبل الصحافة ؟ ويقول : لقد تقدمت الصحافة فى جميع مناطق العالم اما فى البلاد العربية

فقد ازدهرت الصحافة ازدهارا لم يعرف له مثيل ٠٠ ومهما يكن من أمر فان مشكلة منافسة وسائل الاعلام الأخرى للصحافة بدأت تقلق راحة الصحفيين ٠٠ وشعرت الصحف بوطأة المنافسة ٠٠ وهب الصحفيون يطالبون الحكومات بمنع الاذاعة والتلفزيون من نشر الاعلانات ان أريد الابقاء على الاعلام المطبوع كما قاموا من جهة اخرى باعادة النظر فى مواد صحفهم ووسائل اخراجها وانعقدت المؤتمرات وقر رأى الأغلبية على وجوب ترك الموضوعات التافهة والمثيرة ٠٠ والاكتفاء بالاعلام الجدى والمناقشة المفيدة ٠٠

وعلى صحافة المستقبل ان تعمل لخير الانسانية بحيث تؤالف بين الشعوب ، فتدعو للسلم ، وللتعاون ، وللتآخى ٠٠ والصحيفة التى تحيد عن هذا الهدف يجب ان تقاطع ، ان لم يكن بقوة القانون ، فبتأثير الضمائر الحرة ، والمثل العليا ، التى لابد ان تنتصر ان عاجلا ، وان اجلا ٠٠ وان الدلائل جميعها لتدل على ان القوة الغاشمة ، وسحر المال لم يعد لهما ذلك السلطان القوى ٠٠ كما لم تعد الشعوب تساق كالخراف الى تلك المجازر التى تسمى حروبا ٠٠ وان درس الحرب العالمية الأخيرة لن ينسى بسهولة فقد قامت تلك الحرب من أجل الممر البولندى ٠٠ ولكن اين هو الممر البولندى ؟ واين هي بولندا نفسها ؟ لقد ذهبت دماء الشعوب هدرا ، ووقعت دول تحت براثن قوى اخرى لاتقل عن النازية والفاشية !

ان دور الصحافة فى هذا العالم الذى يقف حائرا بين الخير والشر وبين الحرب والسلم لجد خطير ٠٠ وعلى هذا الأساس يتضح هدف الصحافة ويحدد الطريق الذى يجب عليها ان تسلكه ؟ وهو طريق وعر ، ولكنه المؤدى الى بر الأمان !





في مهب الريح

الأستاذ ميخائيل نعيمة

أديب من أدباء القمة فى العالم العربى ·· عرفناه من سنوات طوال منذ أن ظهر له أول كتاب أدبي ناضج ، فى اللغة العربية ونعنى به كتابه « الغربال » عرفناه ذلك الكاتب ، ذا الأسلوب المتفرد ·· بين زعماء الأدب ، وأمراء البيان !

مهما قلت ·· وحتى لو أطلت القول فى هذا المجال ·· فلا أظنني أقول جديدا ، لايعرفه القراء الأدباء عن زميل « أبي ماضى » و « جبران » و « أمين الريحاني » ·

اذن ·· فلأدع ذلك طالما انه تحصيل حاصل ·· ولابأس من أن أقول كلمة عابرة بهذه المناسبة قبل الالمام بكتاب الأستاذ ميخائيل نعيمة « فى مهب الريح » ·

اذا كان هنالك مغرضون تدفعهم دوافع من رغبتهم فى المنافسة ــ مجرد المنافسة ــ : لأن يقولوا ما يقولون عن أدب المهجريين ·· فما عليهم ــ استغفر الله ــ أقصد ما على الذين يستمعون اليهم من جيلنا الصاعد ، وشبابنا الآمل الطموح الا ان يقرأوا ــ فقط ــ هذا الكتاب كأثر بارز من آثار اولئك المهجريين ، وبديهي أن أقول ! ان كتاب النعيمة هذا ·· ليس هو أضخم كتبه العشرين أو الثلاثين ·· وليس هو بأشهرها على الاطلاق ! ·

شيء آخر لابد من أن يقال هنا أيضا : وهو ان الفحول ممن يعتد بهم ، ويؤخذ رأيهم ، وترضى حكومتهم ·· من أدباء مصر وغير مصر كالمرحوم العقاد ، ومحمد مندور ، والزيات ، وعبد الغنى حسن ، ووديع

فلسطين وغيرهم وغيرهم من الناقدين قد شهدوا لأدب المهجريين بأنه أدب أصيل ، يتميز أول ما يتميز بأنه انساني هادف يعتمد على التأمل ٠٠ بعيدا كل البعد عن الحذلقة او السفسطة او التهريج ٠٠ ثم هو بعد ذلك من أهم صفاته البارزة عمق الفكرة ، وفنية التعبير ، وصدق الاحساس والشعور ٠٠ ونبالة الهدف ٠٠ واستقلال الشخصية وما اظن الا اننا سنجد كل هذه السمات والخصائص واضحة فى هذا الكتاب كل الوضوح ٠

فلنستمع الى المؤلف ، ولنمض معه فى بعض الصفحات الرائعة من كتابه لنراه يقول :

من التشابيه المألوفة حتى الابتذال تشبيهنا الشيء بالريشة اذا هو بالغ فى خفة الوزن ، ثم تشبيهنا ماليس على شيء من الاستقرار بريشة فى مهب الريح ٠٠ وانى لاستعين بالتشبيه الاخير لانقل الى اذهانكم صورة العالم كما يتراءى لى فى هذه الايام ، فهو فى نظرى ريشة ـ واخف من ريشة فى مهب الزعازع الهوج التى تجتاحه من كل فج وصوب ٠٠ ماعرفت البشرية على مدى تاريخها الطويل فترة من الارتباك والقلق ، والذعر ، وتشرد القلب والذهن كالفترة التى تتخبط فى دياجيرها اليوم ، ولا هى شعرت يوما بأسس كيانها تتشقق وتميد الى حد ما تشعر اليوم ولاهامت على وجهها تفتش عن مخارج من مأزقها فلا تجد الا مآزق تفضى بها الى مآزق حتى يخيل الى من يرقب حركاتها ويصغى إلى ضجيجها وعجيجها انها فقدت رشدها ٠٠ وافلت زمامها من يدها فما تدرى انى تتجه ، وبمن ، او بماذا تستغيث ؟

لن اعطيكم مثالا على ذلك ما تشهدونه من صراع دام وغير دام بين مذاهب العالم من سياسية واجتماعية ودينية وسواها ، واعطيكم مثالا : هذه السيول الجارفة من الدعاوة للسلم والحرب فى آن معا : فمن على منبر تلك المؤسسة الضخمة المفككة الاوصال التى لقبوها تهكما ٠٠ « بـ « الامم المتحدة » ـ من فوق ذلك المنبر وحده تنهل شلالات ٠٠ ولا شلالات نياغرا ٠٠ من الخطب الرنانة ٠٠ وكلها يمجد السلم ،

ويدعو امم الارض الى التمسك به ناهيكم بما يفيض من منابر المعابد والمدارس ، ومن حقول الصحف ، ومن افواه المذيعين ، ومن شفاه رؤساء الدول ووزرائهم ، حتى لكأن العالم يوشك ان يدخل ذلك الفردوس الذى وعدت به الاديان ··

فلا حروب فى الارض بعد اليوم ، ولا عداوات بين اسودها وابيضها واصفرها ، واسمرها ، وبين حاكمها ومحكومها ، وجائعها ومتخمها ، وملحدها ومؤمنها ، بل هنالك تساهل وتفاهم ، واخوة ، وتعاون وسلام لايشوبه خصام !

إلا أنكم ماتكادون تنتشون بانغام السلم تعزفها لكم تلك الجوقة ليل نهار ·· حتى تنقلب نشوتكم قشعريرة اذ تسمعون تلك الجوقة بعينها تعزف لكم الحان الحرب ·· وبمثل الحماسة التى تعزف بها انغام السلم ــ بل اشد ·· فساسة العالم الذين ملأوا العالم تسبيحا للسلم هم هم الذين ملأوه تجديفا عليه ·· فقد هبوا فى كل مكان يحثون الناس بالوعد والوعيد على الاستعداد للحرب ·· وان انتم سألتموهم بأية حيلة ، وبأى منطق يبررون التناقض الفاضح مابين اقوالهم وافعالهم ·· فيبشرون بالسلم اذا هم يعدون عدة الحرب ·· اجابوكم بكل صفاقة وجه انهم لايروجون للحرب حبا بالحرب ·· بل حفاظا على السلم ··

ثم يقول المؤلف : لعمرى ان فى ذلك لمنتهى الاستهزاء بالعقل والمنطق ومنتهى الاستخفاف بالناس وآمالهم واقداسهم ·· فهل من يصدق ان المدفع الذى ماوجد الا لتمزيق السلم وازدراده يصلح ان يكون حارسا للسلم ؟ ام هل من يصدق ان السلم يقتات ويحيا بالقذائف الجهنمية المكدسة فى مستودعات الدول ، والحرب التى ابتدعتها ما حشتها بغير السم الزعاف للسلم ؟ قد تكون الزرافة فى عرين الاسد ، والشاة فى وجار الذئب ، والفأرة بين براثن الهر اوفر امنا على حياتها ·· من السلم فى فوهة المدفع ، وفى جوف الدبابة ، او فى قلب القذيفة الذرية ؟

وقد جرهم هذا المنطق الأعوج إلى آخر أشد اعوجاجا منه ، اذ خلقوا خرافة اطلقوا عليها اسما غرارا عليه مسحة من المنطق اما ذلك الاسم فهو « توازن القوى » ومعناه ان معسكرين متخاصمين اذا توازنت قواهما الحربية بات كلاهما يرهب خصمه فلا يجرؤ على مهاجمته ، وهكذا يبقى السلم بينهما فى مأمن من الحرب ، واذ ذاك فعلى سكان الارض اذا هم شاؤوا سلما دائما ان يحفظوا التوازن فى قواهم الحربية الى الابد ·· وفى ذلك من التضليل مافيه !

ثم يقول النعيمة ايضا : اذا كان الزاعمون ان السلم لايصان الا بآلة الحرب ، والا بالتوازن بين آلة وآلة جادين فى مايزعمون فانها الحماقة الخرقاء ، واذا كانوا ــ دفاعا عن مصالح موهومة يموهون ويخاتلون فى مايزعمون ، فانها الجريمة النكراء ، وهم سيكفرون عنها بعذاب ولا عذاب جهنم ·

ــ عدة السلم الصدق ، وعدة الحرب الكذب ··
ــ عدة السلم الامانة ، وعدة الحرب الخيانة ··
ــ عدة السلم الثقة ، وعدة الحرب الشك ··
ــ عدة السلم التعاون ، وعدة الحرب التنابذ ··
ــ عدة السلم المحبة ، وعدة الحرب البغض ··
ــ عدة السلم العطاء ، وعدة الحرب النهب ··
ــ عدة السلم التعمير ، وعدة الحرب التخريب ··
ــ عدة السلم الايمان بالانسان وعدة الحرب ، الكفــر بالله والانسان معا ··
ــ عدة السلم الحياة ، وعدة الحرب الموت ··

لو ان الناس حاولوا ان يحصروا فى الارقام كل ما انفقوه على عدة الحرب فى خلال العقود الثلاثة الاخيرة لاغير ·· لضاقت بهم الارقام ، ولتخدرت من هولها عقولهم ·· وانعقلت السنتهم ، وتعطلت مفاهيمهم الحسابية ·· فما من ارقام تستطيع ان تؤدى الى اذهاننا المقادير الهائلة من القوى الروحية والمادية التى انفقتها الانسانية على الحربين

العالميتين الاخيرتين بصرف النظر عن الحروب الثانوية التى نتجت عنهما ·· وانتم لو سألتم هذه الانسانية بعينها ماذا الذى انفقته خلال العقود الثلاثة الاخيرة على عدة السلم ·· لكان جوابها هزة من كتف ، او قلبة من شفة او شقلة من حاجب ·· ذلك لانها ما انفقت شيئا على الاطلاق ·· اجل نحن اليوم ريشة فى مهب الريح ·· وقد بات لزاما علينا إذا نحن شئنا أن نسترد لانفسنا شيئا من الثبات ، اما ان نزيد فى وزن الريشة ·· واما ان نخفف من حدة الريح ·· او نجترح العجيبتين معا ·· فهل من سبيل الى ذلك ؟

من الأكيد ان الذين جعلوا منا ريشة لن يستطيعوا ان يجعلوا من الريشة طودا ·· والذين اطلقوا علينا الرياح الهوج لن يكون فى وسعهم ان يجعلوا من تلك الرياح نسيمات بليلات ·· أولئك هم القابضون بأيد من حديد على ازمة حياتنا الجسدية والعقلية والقلبية ، أو تدرون من هم ؟ انهم أسياد الغرب الذى انتقلت اليه زعامة العالم منذ أيام اثينة وروما فما تخلى عنها حتى اليوم الا خلال فترات قصيرات ··

·· لقد ابطرت الغرب فتوحاته العقلية ، وزادت فى ثروته المادية مقادير لاتحصى ولاتعد ·· وبسطت سلطانه على الارض من القطب الى القطب ، ومن المشرق الى الغرب ، فبات لايشك قط فى حقه بتلك الثروة وذلك السلطان ، ولكنه ما لبث ان انقسم على معسكرين يتنازعان ثروة الارض وسلطانها ، ويتستران فى نزاعهما باسم العدالة من جهة ، وباسم الحرية من جهة اخرى ثم بعمل كليهما ليل نهار على كسب الانصار والامصار بالقوة حيث تنفع القوة ، وبالمال حيث لايجدى الا المال ، وبالدعاوات الطويلة والعريضة التى تنفذ الى القلب والعقل حيث لاتنفذ القوة ولا المال وتنجرف بهذا التيار الهائل جميع دول الارض ودويلاتها وفى جملتها دويلات شرقنا العربى ·· الى ان يقول : فما ادرى باى سحر سطت علينا اراجيف الغرب فى دعاواته ومهاتراته حتى بتنا نعتقد ان قوة الامم فى حناجرها فلا نشبع من التحدث عن تعشقنا للاستقلال والحرية ، وعن تفانينا فى سبيل الكرامة القومية ·· وعن امجاد اسلافنا وجليل ماقدموه من الاقوال والاعمال للحضارة البشرية ·· واى امجاد

السلف يتغنى به الخلف راجين ان يبعثوا بذلك همما تراخت ، وان يجمعوا كلمة تشتت ، وان يرفعوا الى فوق ٠٠ ابصارا منكسة الى اسفل ؟ تلكم الامجاد هى سيوف خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد ، هى الاعلام العربية التى خفقت فى سالف الازمان ، من حدود السد حتى حدود الغال ، انها الرغوة التى اثارها العرب فى اندفاعهم من قلب الجزيرة شمالا وشرقا وغربا ٠٠

ولكنها ـ يقول الكاتب الكبير ـ ليست المعجزة التى جاء بها العرب ٠٠ والتغنى بها لاينفع العرب ، ولا العالم فى شىء « اما معجزة العرب الكبرى فهى القرآن ، وهى وحدها التى تستطيع ان تجعل من العرب قوة اين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية ؟ واين منها قوة المال والرجال فالاساطيل للصدأ ، والرجال للموت ٠٠ والمال للزوال ٠ اما معجزة القران فللبقاء » ٠ ذلك لانها اقامت للعرب ولغير العرب هدفا من حياتهم ، وكانوا بغير هدف ٠٠ واختطت لهم طريقا الى الهدف ، وكانوا بغير طريق ٠٠ وما اكتفت بان اقامت لهم هدفا ، واختطت طريقا ، بل انها برهنت لهم بحياة النبى وصحبه ان ذلك الهدف مستطاع بلوغه على من سار فى الطريق ٠٠ فحياة النبى وخلفائه الاولين مليئة بالعبر التى تهدى الناس سواء السبيل فلا تتركهم ريشة فى مهب الريح !! لو لم يترجم النبى وصحبه القران الى افعال لما كانت المعجزة معجزة ٠٠ ولكنهم وقد امتلأت قلوبهم وعقولهم ايمانا ٠٠ ماترددوا فى ترجمة ايمانهم الى اعمال وأقوال تتوافق كل التوافق مع ذلك الايمان ، وانى لاذكر من الاخبار النبوية خبر شاة ذبحها اهل البيت فى غياب النبى صلى الله عليه وسلم وفرقوها على المعوزين ، وعندما عاد النبى صلى الله عليه وسلم اخبرته عائشة بما كان واضافت انهم لم يبقوا لانفسهم من الشاة الا الكتف ٠٠ فكان جواب النبى لها : لقد بقيت كلها الا الكتف ، انه لجواب حوى من البساطة والبلاغة والحكمة ما لم تحوه مجلدات من الفلسفة ٠٠ بقيت كلها الا الكتف ٠٠ ومعنى ذلك اننا نكسب ما نعطيه ونخسر ما نمسكه فالذى ننفقه على الغير من اموالنا

وقلوبنا وافكارنا وارواحنا يحسب لنا ، والذى ننفقه على انفسنا يحسب علينا .. فنحن مطالبون بسوانا قبل ان نطالب بانفسنا .. ونحن وكلنا عيال الله .. لانستحق نعمة من نعم الله الا اذا ابحناها من صميم القلب لغيرنا من عيال الله .. فهل من يدلني ـ بعد ذلك ـ على طريق الى الاخاء والسلم والتعاون بين الناس ، وبالتالى الى الحرية .. أقرب من هذه الطريق واقوم ؟

أجل .. ان معجزة العرب لفى القرآن الا انها أصبحت اليوم وكأنها ليست بمعجزة .. ذلك لكثرة ما الفتها الشفاه والآذان والعيون ومن شأن الشفاه والآذان والعيون انها اذا الفت عجيبة اغلقت دونها القلوب .. وقلوب العرب غدت مغلقة دون معجزة العرب منذ ان حكموا دنياهم فى دينهم .. فهم اليوم يؤمنون بالراديو والرادار .. وبالدبابة والطيارة ، وبالدعاوات والمخرقات .. ثم بالفلس الذى يبتاع كل هذه ـ يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح الى الراحة والهناء والسلام والحرية والكرامة الانسانية .. اما المفتاح الذى اعطى لهم فى القرآن فجوهرة يتبركون بلثمها .. ويباهون بجمالها .. ولكنهم يتهربون من استعمالها .. فكأنها للزينة لا لفتح الابواب المغلقة .. وفك المشاكل المستعصية أو كأنها للتسلية والترفيه عن النفس عندما تمل النفس العمل فى معامل الفلس والدينار .. أو عندما يأخذها شىء من الكلل ..

واها لهذا الشرق ، ما اضعف ذاكرته واوهن قلبه فسرعان ما نسى ميراثه ، وسرعان ماتخلى عن سلاحه الذى لايفل ، ليستبدل به سلاحا يتاكله الصدأ . وكم كنت اتمنى لو يسترد ميراثه وسلاحه لعله يستطيع ان يرد العالم الى رشده بدلا من ان يفقد هو الآخر رشده فى عالم جن جنونه ..

ويمضى النعيمة .. ليتحدث فى فصول اخرى عن السيف والقصبة وعن الخرافة الكبرى ، وعن رحابة الصدر .. وسحر الطفولة .. والدين والمدرسة والشباب الحائر .. والادب والدولة وأوزار الماضى .. وأوزار اللغة وأوزار الاجتماع ودود الجبن ..

والخيط الابيض والخيط الاسود ·· والتشاؤم والمتشائمون ·· ومجد القلم ·· وغيرها ··

فى الفصل الذى عنوانه « رحابة الصدر » يقول :

« حذار ثم حذار يابنى ان تزدرى اى انسان من الناس ·· فقد يستنسر البغاث ، وقد تستأسد الثعالب ، والبغاث اذا استنسر كان احد مخلبا واقوى منسرا من النسور ·· والثعالب اذا استأسدت كانت اشد بأسا وافظع بطشا من الاسود ؟ وانت فى الواقع لاتعرف اى الناس هم البغاث والثعالب ·· وايهم النسور والاسود لذلك اوصيك برحابة الصدر تجاه الاقوياء والضعفاء بالسواء ··

واحذر يابنى الذين يغالون فى مدحك ·· قبل ان تحذر الذين يغالون فى قدحك ·· واحذر اكثر من المادحين والقادحين ·· اولئك الذين لايمدحون ولايقدحون ·· فسلاحهم امضى من سلاحك ، لان صدورهم ارحب من صدرك ·· وهم يعرفون ان مادح السلطان كاذب وان صدق ·· ولانهم يعرفون ذلك تراهم لايمدحون ولايقدحون ·· لذلك اوصيك برحابة الصدر تجاه المادحين قبل القادحين ··

وفى فصل « الخيط الابيض والخيط الاسود » يقول :

ان تكن العين سراج الجسد فسراج النفس الضمير ، بالعين يميز الجسد الليل من النهار ، ويميز الاشياء من حيث اشكالها والوانها وابعادها ثم يميز ذاته من سائر الاشياء ، وبالعين يستنير ليسلك سبيله فى الارض ، كذلك بالضمير تميز النفس مابين الحلال والحرام ، والصلاح والطلاح ، والفضيلة والرذيلة ، وتميز نفسها من سائر النفوس ، وبالضمير تستنير لتسلك سبيلها فى دنيا الخير والشر ·· والانسان هو المخلوق الاوحد على الارض الذى خصته الحياة بنور الضمير علاوة على نور العين ·· ومثلما يتفاوت الناس فى صفاء البصر ·· يتفاوتون فى صفاء البصيرة ·· فالفرق بين الزباء والاعشى ، من حيث نقاوة البصر كالفرق — من حيث نقاوة البصيرة — بين من يحب قريبه محبته لنفسه ، وبين من يقول « من بعدى الطوفان » !

إلى أن يقول فى ختام هذا الفصل :

جميل بنا ان نحرص على حدقة العين التى بها نميز الخيط الابيض من الخيط الاسود ٠٠ واجمل من ذلك بكثير ان نحرص على حدقة العين التى نميز بها بين الخير والشر ـ بين الفضيلة والرذيلة ـ بين بياض الحق وسواد الباطل !

وفى الفصل الذى عنوانه : « مجد القلم » وهو آخر فصول الكتاب يقول :

« تأتينى من حين الى حين رسائل من ادباء ناشئين يطلبون الى فيها ان ارشدهم الى السبل الكفيلة بان تجعل منهم كتابا وشعراء ذوى مكانة فى دولة الأدب ٠٠ ويا ليته كان فى مستوصفى او مستوصف سواى « روشتة » اذا استعملها الراغب فى الادب اصبح اديبا ٠٠ اذن لكنا نصنع الادباء بمثل السهولة التى نصنع بها الزبيب من العنب ٠٠ والخبز من القمح الا ان الادباء يخلقون ـ بضـم اليـاء ـ ولا يصنعون ٠٠ والفرق بين الاديب المخلوق والاديب المصنوع كالفرق بين العين الطبيعية والعين من زجاج ٠٠

« ٠٠ من كان معدا للادب كان فى غنى عمن يدله على طريقه ، ففى داخله ومن خارجه حوافز لاتتركه يستريح حتى يتم التزاوج مابين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس وهو عن وعى ٠٠ وعن غير وعى ، لاينفك يلتهم التهاما كل مايتصل به من آثار أدبية ٠٠ ثم لاينفك يسود الاوراق بما يتولد فى نفسه من احاسيس وافكار وانطباعات ، ان اغمض عينيه فى الليل فعلى كاتب او مقال ٠٠ وان فتحهما فى الصباح فعلى شاعر او قصيد ٠٠ فكان كل مافيه وكل ماحواليه يدفع به دائما الى تحقيق حلمه بان يدرك اليوم الذى فيه ينطبع اسمه على شفاه كثيرة ٠٠ وتغدو مؤلفاته نجعة لجيش من القراء والاقلام ٠٠

لكل ذى مهنة او حرفة عدة وعدة الاديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وارادة ، وهذه كلها قابلة للتنمية والصقل ، وخير الوسائل لتنيمتها وصقلها هو احتكاكها المستمر بما سبقها وما عاصرها من نوعها ، ثم توجيهها التوجيه المستقل فى الطريق الذى تفرضه على الكاتب

حياته الباطنية والخارجية لذلك كان لابد لكم من المطالعة ٠٠ ومن فكر سريع الالتقاط وخيال مسبل الجناح وذوق مرهف الحدين ووجدان صادق الميزان ، وارادة صلبة العود ، وكان لابد لكم فوق ذلك كله من معدة ادبية تهضم ما تلتقطونه هنا وهناك فتحوله غذاء طيبا لكم وللذين يقرأون ماتكتبون !

● ● ●

ثم يوجه المؤلف الأديب فى ختام هذا الفصل خطابه الى الأدباء الناشئين قائلا :

٠٠ وان تسألوني ماذا يحسن بكم ان تطالعوه أجبكم : ان ذلك يتوقف الي حد بعيد ــ على ميولكم وأذواقكم ، وعلى مقدار جوعكم الي المعرفة التى دونها لاقيام لأى أدب فقد يكتفى الواحد منكم بمطالعة بعض الأثار الادبية المشهورة ، وقد يتعداها الاخر الي النجوم والحيوان والنبات وطبقات الأرض والفنون والأديان والتاريخ والفلسفة بأنواعها ، حتى إلى الروايات البوليسية والمقالات التافهة التى تحفل بها حقول الصحافة الرخيصة ٠٠ فالأمر الذى لاشك فيه هو انه كلما اتسع اطلاعكم على مجارى الحياة البشرية قديمها وحديثها ، بعيدها وقريبها جليلها وحقيرها اتسع مجالكم للتأمل والتفكر ، وللعرض والتصوير فما انسدت فى وجوهكم الطرق الي مواضيع جديدة تعالجونها بأساليب جديدة ــ تحاشوا اللف والدوران ، فليس اكره من جثة فيل او حوت تحيا بقلب ضب ، أو بقلب ضفدع ، وتحاشوا النوح ، والبكاء ، والتشكي من الدهر ، واستجداء رحمة القارىء وشفقته ٠٠ فهذه كلها من دلائل الهزيمة ، والهزيمة عار وأى عار على الذين سلحتهم الحياة بالفكر والحس والخيال والارادة ٠٠ ومن ثم فان الناس يحبون السير فى ركاب الظافرين ويكرهون مماشاة المنهزمين ٠

ــ أما العار الأكبر والأفظع فهو تقليدكم الأعمي للغير « أو سرقة بضاعة الغير ٠٠ » فالتقليد هو الشهادة بافلاس المقلد وسارق أدب الأحياء والأموات كمن يأكل لحم أخيه نيئا ٠٠ أو من كمن ينهش جيفة فى قبر ٠٠

ـ أما الشهرة فاياكم ان تبتغوها فى ذاتها ، فما هي غير ظل قامتكم الأدبية ·· ان امتدت تلك القامة امتد ·· وان تقلصت تقلص ·· وأما الغرور فاقتلعوا جذوره من صدوركم ·· فهو اشد فتكا بكم من السوس بالخشب ··

ـ والغرور هو غير الايمان بالنفس ·· ذلك بالوعة وقاذورة ، وهذا ميناء ومرساة ·· وما لم يكن من ايمانكم بانفسكم ميناء ومرساة ·· كنتم حيرة فى حيرة ·· وكان أدبكم رغوا فى رغوة ·

ـ قبل ان تهتموا بما يقوله الناس فيكم ، اهتموا بما يقوله وجدانكم لوجدانكم ·· اخلصوا لأنفكسم ولادبكم اولا ·· واذ ذاك فصدوركم لن تضيق بذم ·· ولن تنتفخ بمدح ·· فان كنتم اكبر من ناقديكم فما همكم أذموكم ، أم مدحوكم وان كنتم فى مستواهم فيجمل بكم ان تصغوا الي ما يقولونه فيكم ، وان كنتم دونهم فجدير بكم ان تتعلموا منهم !! ·

ـ تنافسوا ولا تتحاسدوا ·· واياكم ان تتشاتموا ·· فعداوة الكار ان اغتفرت لاسكاف او نجار او غيرهما من صانعي السلع وبائعيها فهى لاتغتفر للعاملين على السمو بالانسان فى معارج الفهم والحرية ! ·

ـ مادتم واثقين من ان لكم رسالة تؤدونها ، فلا تقنطوا من تأديتها ، وان اغلقت فى وجوهكم ابواب الصحف ودور النشر ، ثابروا على العمل وانا الكفيل بأنكم ستشقون لرسالتكم طريقا في النهاية فالناس في جوع وعطش دائمين الي القول الجميل ، ولاتنسوا ان الذين تبصرونهم اليوم في القمة كانوا بالامس في الأغوار والسفوح ··

ـ خذوا مواضيعكم من أنفسكم ومن الناس والاكوان حواليكم ، ولاتمسحوا أقلامكم منها الا من بعد ان تبدو لكم صريحة المعالم ، مشروعة الأبواب ، كي يسهل تناولها حتى على الذين هم دونكم مقدرة ومهارة فى الغوص الى الأعماق ، وليكن أجركم الأول ، والأعظم : تلك البهجة التى يشيعها فى الروح شعوركم بانكم صنعتم « شيئا » جديدا

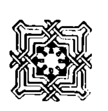
وجميلا ·· سواء أكان ذلك « الشيء » مقالا أم قصيدة أم قصة أم رواية ، أم كلاما لاينساق الي التبويب ولكنه يترك فيكم وفي القارىء نشوة وعبرة ··

●●●

وأخيرا ينهي الأديب الكبير وصاياه هذه الي الأدباء الناشئين ـ وأخلق بها ان توجه الى غيرهم ايضا ـ ينهي الاستاذ نعيمة نصائحه هذه بقوله :

« الكتابة عمل مرهق كسائر الأعمال البناءة الا انه عمل لذته لاتفوقها لذة ، وهي لذة قلما يتذوقها الكسالى وفاترو الهمة ، فان شئتم بلوغ القمم الأدبية حيث « الخالدون » فعليكم الا تشركوا في محبتكم للقلم محبة اى سلطان سواه ، وان تنبذوا الكثير من ملذات العالم وأمجاده ·· وانتم متي ادركتم اى مجد هو مجد القلم هانت لديكم من أجله كل أمجاد الأرض ، وصنتم أقلامكم عن التملق ، والتسفل والتبذل ، فما سخرتموها لمال أو لسلطان ، ولا لاية منفعة عابرة مهما يكن نوعها ··

ومادامت أقلامكم عزيزة فأنتم اعزاء ! ·



فهرس

الجزء الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلا	(نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(نفد)	الشيخ حسين باسلامة
• وقفة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبدالوهاب عبد الواسع
• الابحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحد	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	(تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

- مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
- قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
- نبض ... — الأستاذ عبد الله جفري
- نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر
- السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصص مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك — الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية) — الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبد الله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- خواطر جريئة — الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
- السنيورة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- جسور إلى القمة (تراجم) — الأستاذ عزيز ضياء
- تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله محمد الغني خياط
- الحمى (ديوان شعر) — الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- قضايا ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير — الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبد الله سراج
- كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
- شيء من الحصاد — الأستاذ حامد حسن مطاوع
- أصداء قلم — الأستاذ محمود عارف
- قضايا سياسية معاصرة — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي — الأستاذ بدر أحمد كريم
- الإعلام موقف — الدكتور محمود محمد سفر
- الجنس الناعم في ظل الإسلام — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- ألحان مغترب (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبد الله سراج
- سير وتراجم — الأستاذ عمر عبدالجبار
- الموزون والمخزون — الشيخ أبو تراب الظاهري

- لجام الأقلام — الشيخ أبو تراب الظاهري
- نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- حوار.. في الحزن الدافيء — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- صحة العائلة في بلد عربي متطور — الدكتور زهير أحمد السباعي
- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي

تحت الطبع :

- إليها (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبد الله سراج
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
- تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية — الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- قصص من طاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
- دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) — الأستاذ سباعي عثمان
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- هكذا علمني ورد زورث — الأستاذ أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- وحي الصحراء — الأستاذ عبد الله بلخير، الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- سباعيات — الأستاذ احمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق — الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- الطاقة نظرة شاملة — الدكتور عبدالهادي طاهر
- طيور الأبابيل (ديوان شعر) — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- عمر بن أبي ربيعة — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز (تراجم) — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- لا رق في القرآن — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- من مقالات عبد الله عبد الجبار — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- البعث — الأستاذ محمد علي مغربي
- شمعة ظمأى (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- دعوة ودفاع — الأستاذ سعيد الجندول
- لن تلحد — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع

• الجبل الذي صار سهلا	الطبعة الثانية	الأستاذ أحمد قنديل
• التنمية قضية	الطبعة الثانية	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	الطبعة الثانية	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى (قصة طويلة)	الطبعة الثانية	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	الطبعة الثانية	الشيخ حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الطبعة الثانية	الأستاذ أحمد السباعي
• الحضارة تحد	الطبعة الثانية	الدكتور محمود محمد سفر

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقليه
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مباديء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

تحت الطبع :

• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب على الحكمي
• هندسةالنظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
• المنظمات الدولية	الدكتور حسين عمر ابراهيم
• الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي



صدر منها :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الاملائي		الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية		إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)		
• تسالي	(من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) نفد	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي		الدكتور عاطف فخري
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد على الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
• القرآن .. وبناء الإنسان		الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ علي عبده بركات
• الطب النفسي معناه وأبعاده		الدكتور محمد محمد خليل
• الزمن الذي مضى	(مجموعة قصصية)	الاستاذ صالح إبراهيم
• مجموعة الخضراء	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
• ديوان السلطانين		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الإمكانات النووية للعرب وإسرائيل		الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الموت، والابتسامة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- ديوان حام — الأستاذ محمد مصطفى حام
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور ابن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن على في اليمن — الأستاذة أميرة على المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — دكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبد الرشيد حسن عطار

تحت الطبع :

- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحى رضوان
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب

كتاب للأطفال

صدر منها :

● لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

● القرد ● الأسد ● الغزال
● الضب ● البغل ● الحمار الوحشي
● الثعلب ● الفأر ● الببغاء
● الكلب ● الحمار الأهلي ● الوعل
● الغراب ● الفراشة ● الجاموس
● الأرنب ● الخروف ● الحمامة
● السلحفاء ● الفرس ● الضفدع
● الجمل ● الدجاج ● الدب
● الذئب ● البط ● الخرتيت

● الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
● السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
● النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
● الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
● المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
● بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

سلسلة حكايات كليلة ودمنه

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

● عندما أصبح القرد نجارا
● الغراب يهزم الثعبان

سلسلة التربية الإسلامية

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

● الله أكبر
● قد قامت الصلاة
● الصلاة
● صلاة الاستخارة
● صلاة العيدين
● صلاة الجمعة
● صلاة المسبوق

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.

مطابع سحر جدة
ت ٦٣١٤٤٠٥
٦٣١٤١٤٩
٦٣١٤٥٢٣

